موسوعة

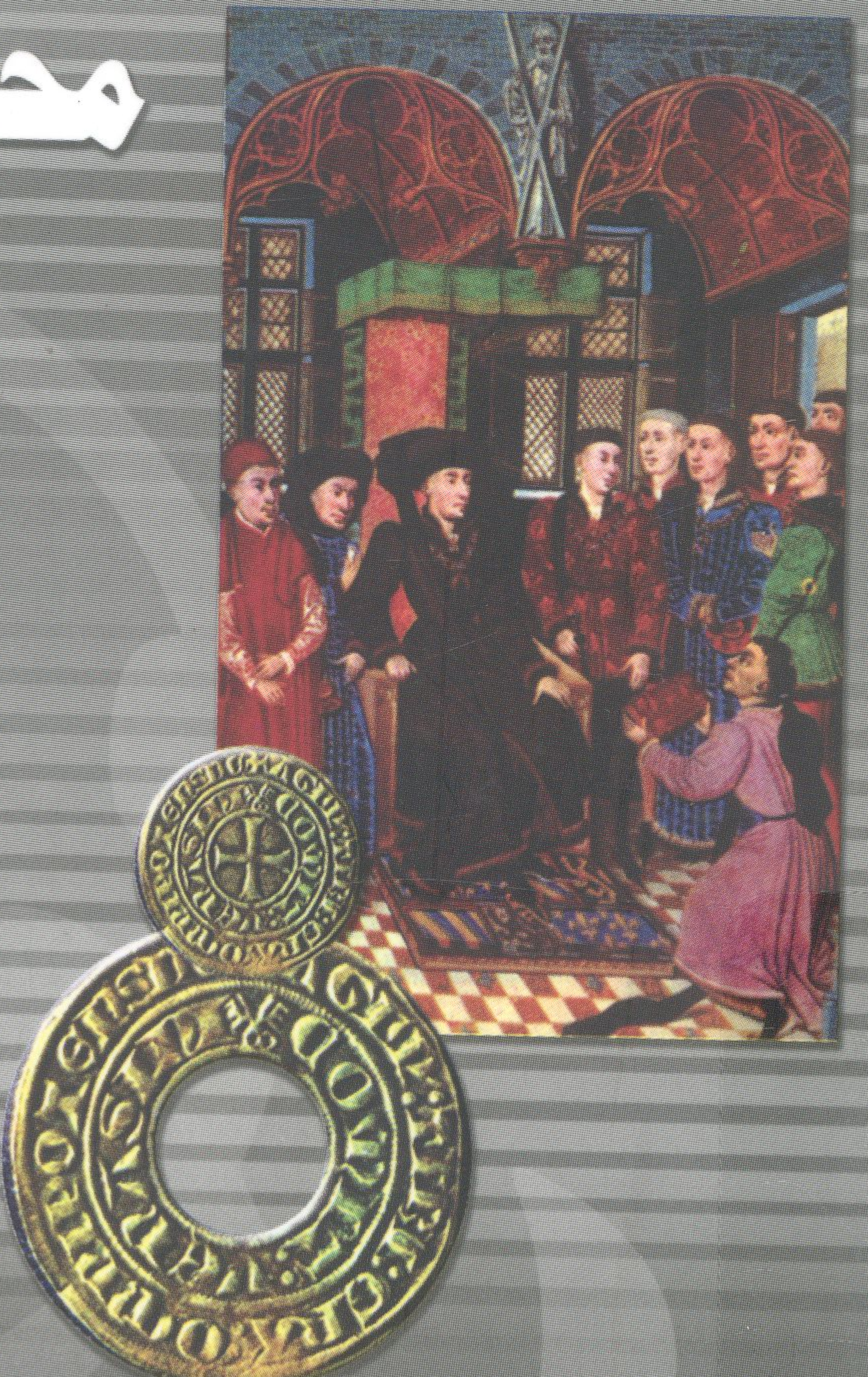
الثقافة التاريخية

والأثرية والحضارية

التاريخ الوسيط

٩

محاكم التفتيش









الفكر المخالف ومحاكم التفتيش


عملة ذهبية عليها صورة البابا كلمنت الخامس

تأليف

أ.د. إسحق عبيد

كلية الآداب - جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر

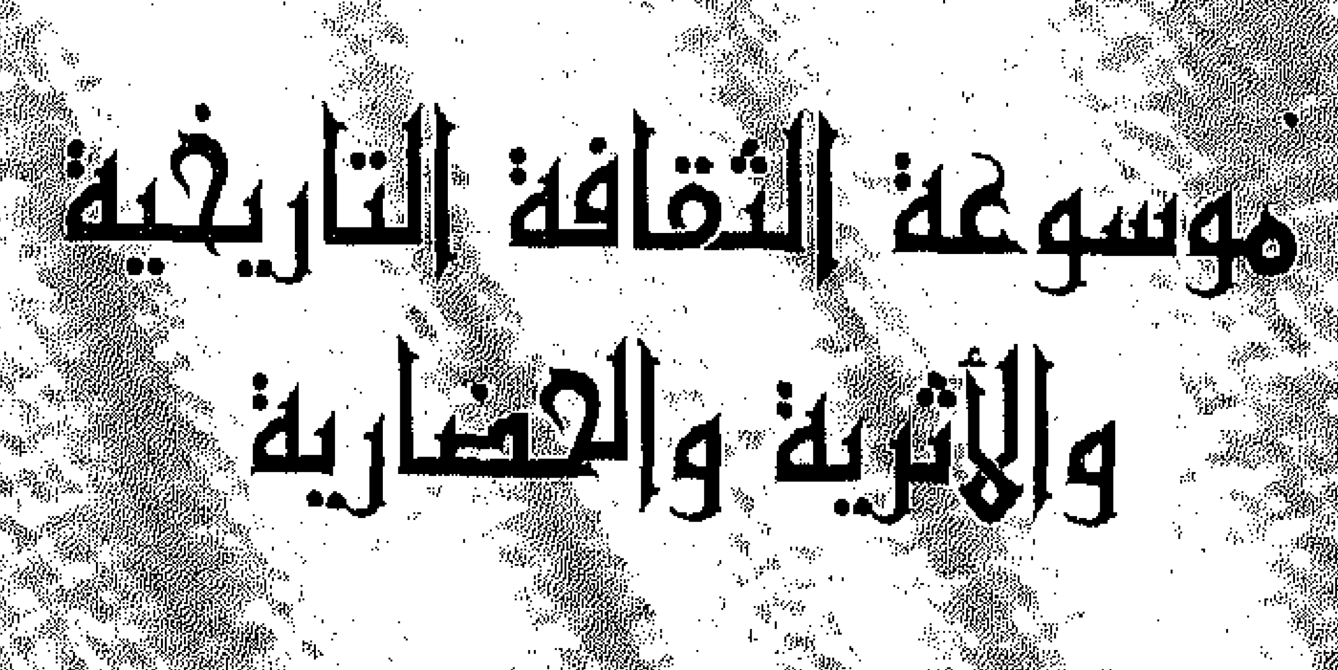
دار الفكر العربي

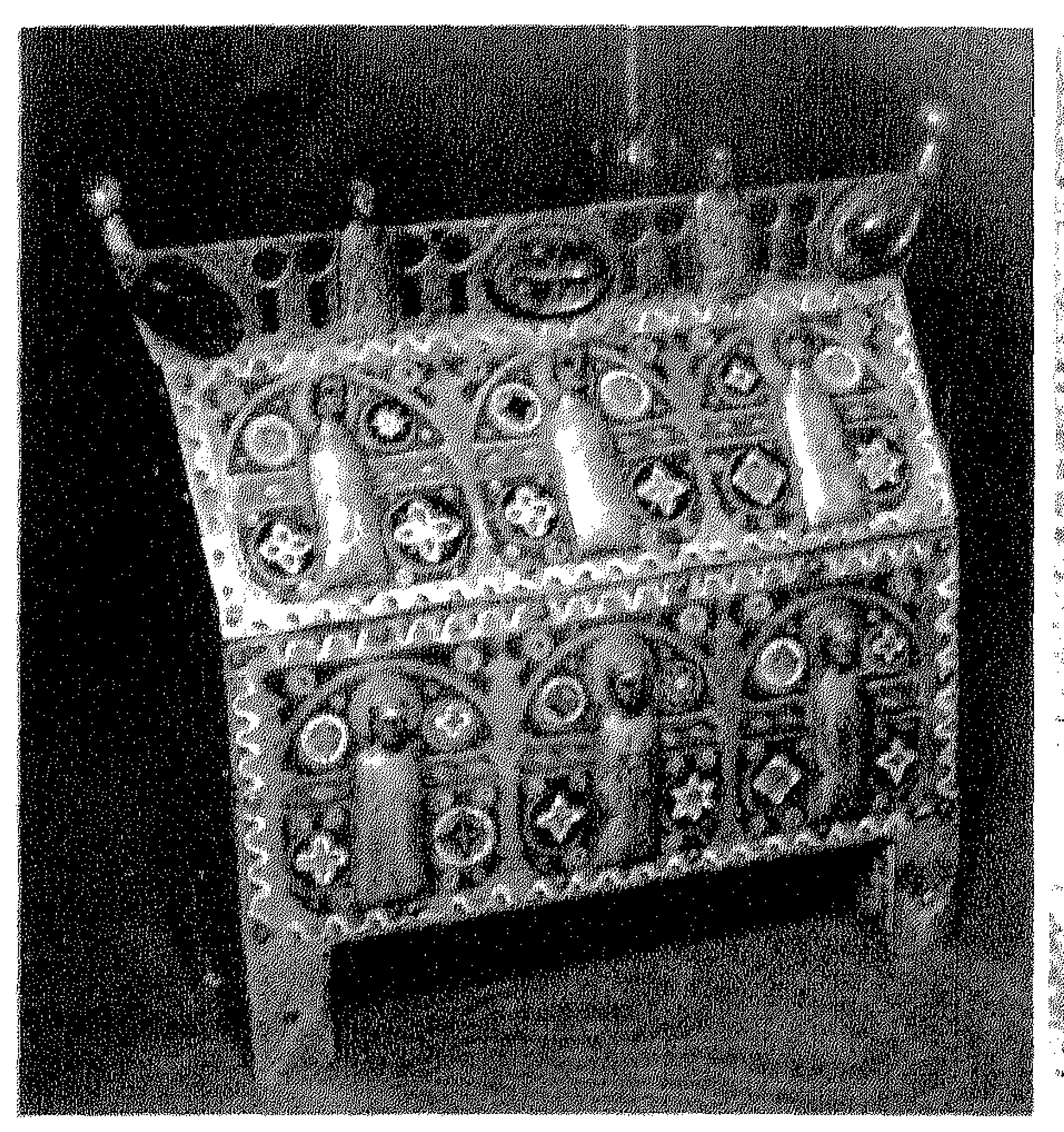
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

٦ أ شارع جواد حسني - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com





ريلك مقدس للنذور - من ليموجس - لندن

الإشراف الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
منى حامد عمارة

٩٤٩,٥	إسحق عبيد.
اس ف ك	الفكر المخالف ومحاكم التفتيش/ تأليف إسحق عبيد.
	ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٦م.
	أ-د ٩٢ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الوسيط؛ ٩).
	ببليوجرافية: ص ٩٠ .
	تدمك: ٢ - ٢١٢٢ - ١٠ - ٩٧٧.
	١ - محاكم التفتيش وبدايتها فى أوروبا. ٢- محاكم التفتيش ونهايتها فى أوروبا. ٣- العنوان. ٤- السلسلة.

رقم الإيداع: ٨٣٦٦ / ٢٠٠٦

دار الفكر العربى

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم السلسلة

التاريخ علم من أَجَلِّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة. ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعْد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

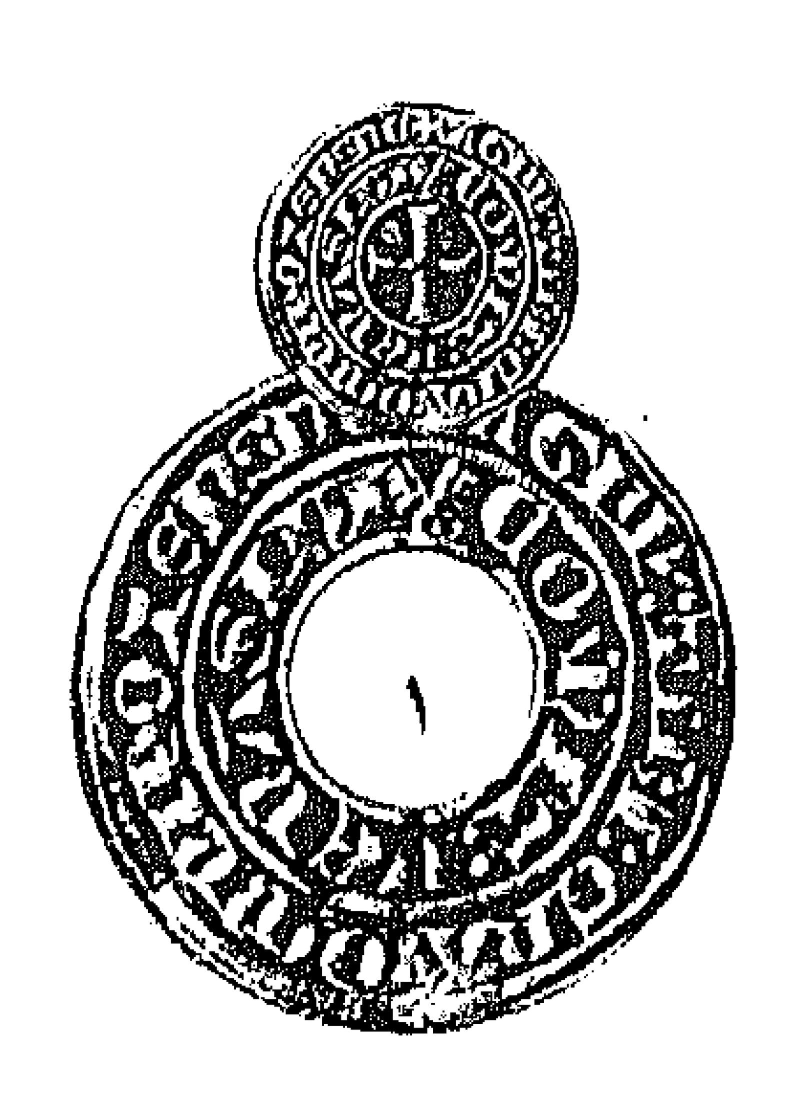
إن الروايات التاريخية قد تتشابه فى بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

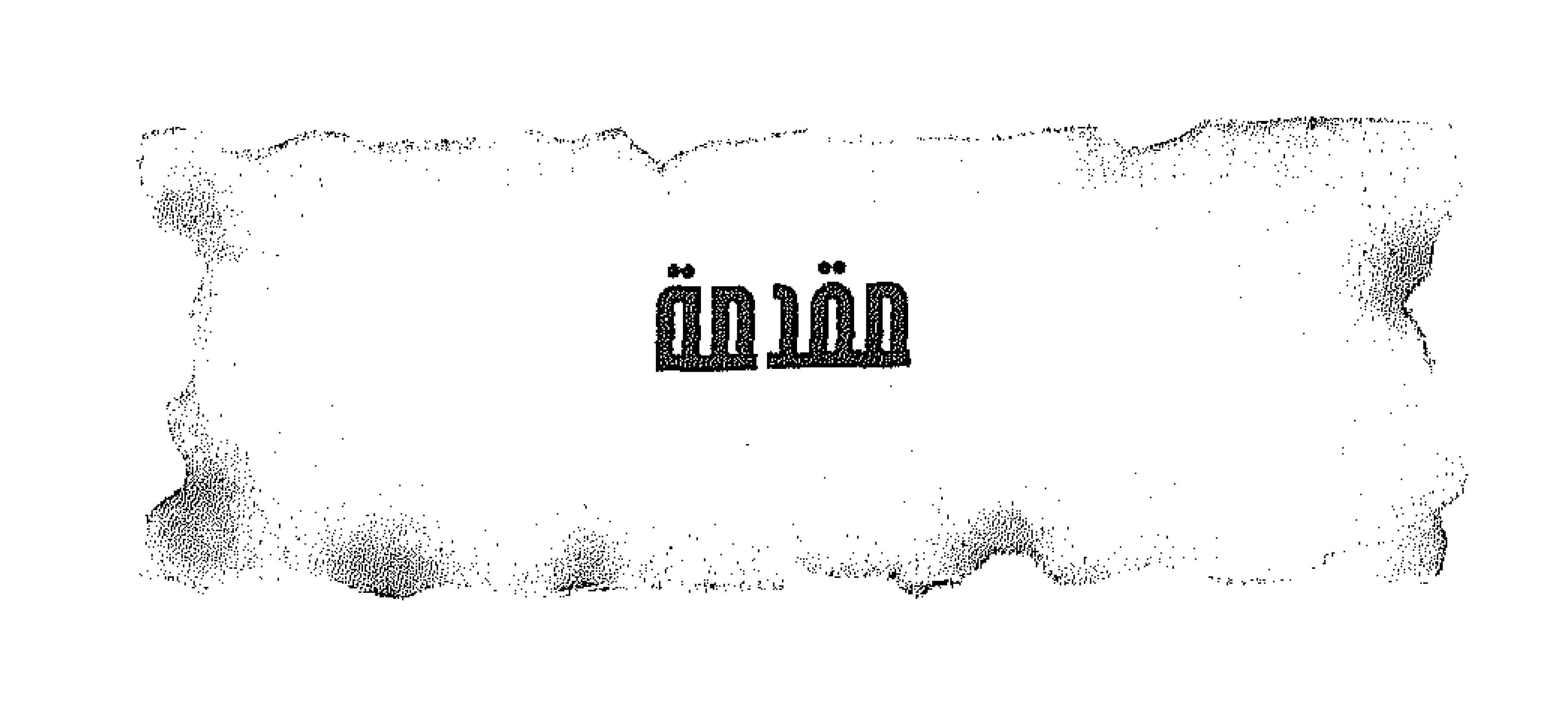
وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور





مقدمة

يُعد موضوع محاكم التفتيش من أخطر مـوضوعات العصور الوسطى الأوروبية، وهو قضية تحتاج إلى الكثير من الموضوعية والـدقة فى الأحكام، لكى تبرز إلى النور قراءة تاريخية جادة تلقى المزيد من الضوء على الصراع الرهـيب بين سادة العصور الوسطى من رجال دين ونبـلاء إقطاعيين من ناحية وبين الجمـاعات المقهورة من أصحاب الفكر المخالف الذين أنزلت بهم محـاكم التفتيش صنوفا من العذاب لا حد لها ولا طائل.

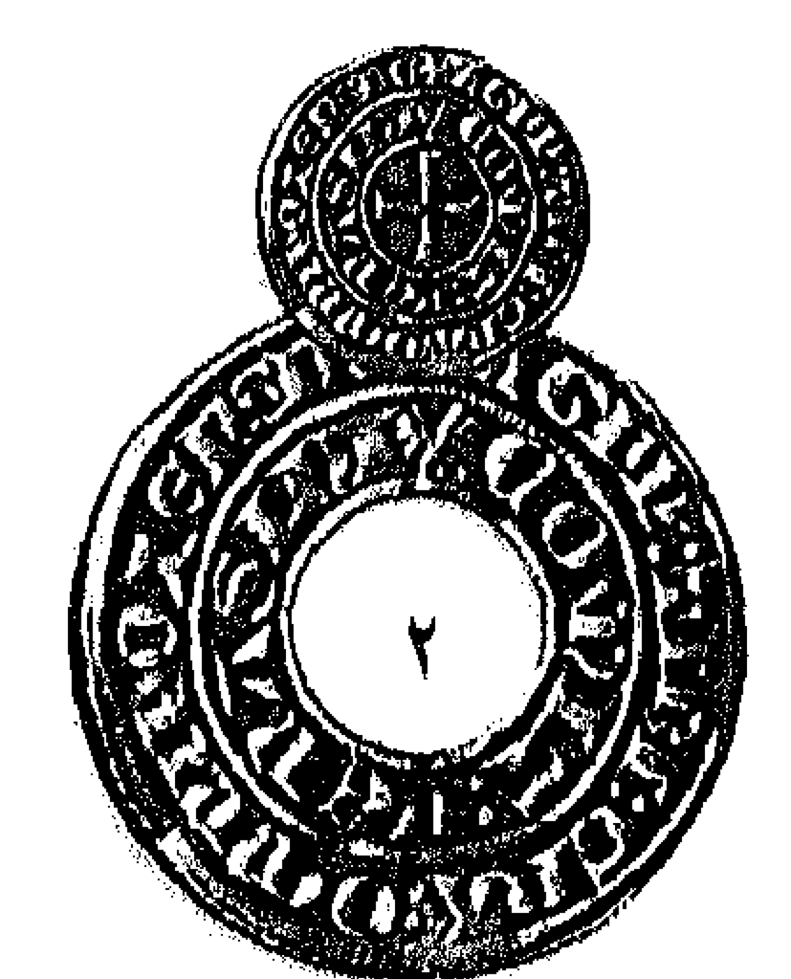
ولا شك فى أن آداب وأفكار وعـقائد الجـمـاعات المخـالفـة للكنيسـة الرومـانية وللسـادة الإقطاعيين قد تعرضت للدمار، بعد أن قامت محاكم التفتيش بإحراق هؤلاء المخالفين وكتاباتهم، ودمغتهم باسم «الهرطقـة». والأمر المؤلم أننا نستقى غالبية معلومـاتنا عن هذه الجماعات من أقلام أعدائهم، ومن ملفات المفتشين الكنسيين أنفسهم.

على أنه مع قيـام مارتن لوثر بثورته الإصلاحـية فى ألمانيا، تشجعـت أقلام عديدة وراحت تهاجم محاكم التفتيش فى مختلف البلدان الأوروبية.

وقد اعـتمدنا فى هذا الكتـيب المتواضع على العديد من النصـوص الأصلية اللاتينية وغـير اللاتينية للخروج بمادة علمية بعد غربلتها وتحليلها لكى نتحلى بالموضوعية فى الحكم.

وبكل المعايير فإن محاكم التفتيش تعـتبر وصمة عار فى جبين التاريخ الأوروبى الوسيط، إذ فرض المفتـشون وأتباعهم من أنفسـهم أوصياء على ضمائـر الناس، الأمر الذى أدى إلى حال من التوتر والهلع بين بسطـاء الناس، وظل الحال على هذا المنوال حتى انبلج فـجر عصر النهـضة فى أوروبا، وتحطمت حينها قلاع الإقطاع وزنزانات محاكم التفتيش، وبذلك خطت أوروبا من عصور الظلام إلى عصر جديد يؤمن بحرية الكلمة وبقيمة الإنسان الفرد.

أ.د. إسحق عبيد



الفصل الأول
الفكر المخالف فى غرب أوروبا

ليس صحيحا أن محاكم التفتيش قد ظهرت فى القرن الثانى عشر، كما يعتقد الكثيرون، وإنما فكرة اضطهاد الرأى المخالف لرأى الكنيسة قديمة قدم العصور الوسطى فى أوروبا، أى ترجع إلى القرن الرابع، ففى سنة ٣٨٥ قبض على المفكر الإسبانى بريسيليان (Priscillian) وأدين بسبب آرائه الغنوصية، ثم أحرق بأمر من الإمبراطور ماكسيمونس فى بلدة تريڤ (Treves).

والواقع أن الآباء الباكرين، وبخاصة أورجين السكندرى رفضوا فكرة اضطهاد الفرق المخالفة للمذهب الكنسى الرسمى، وقد جاء المثل من موقف قسطنطين الكبير الذى أصدر مرسوما سنة ٣١٣م يقرر فيه مبدأ التسامح مع كل الآراء والمذاهب الدينية المسيحية جنبا إلى جنب مع المذهب الوثنى.

غير أن سياسة الإمبراطورين ڤالنتنيان الأول (٣٦٤ - ٣٧٥) وثيودوسيوس الأول (٣٧٨ - ٣٩٥) اتسمت باضطهاد المخالفين لرأى الكنيسة ودمغتهم السلطات الكنسية بلفظة «الهرطقة»، وهذه كلمة يونانية الأصل، ومعناها الرأى المستقل أو الاجتهاد الفردى. وابتداء من مطلع القرن الرابع استعملت الكنيسة هذا اللفظ لدمغ من لا تتساوق آراؤه مع قانون الإيمان الكنسى وما اتفق عليه فى المجامع الكنسية المبكرة.

وقد نادى واحد من كبار الآباء الباكرين هو يوحنا ذهبى الفم الأنطاكى (٣٤٧ - ٤٠٧) بضرورة حرمان المهرطق من حرية الكلام أو التجمع، ولكنه استنكر أن يعدم أى هرطيقى؛ لأن الحكم بالموت إدخال لجريمة على الأرض لا تقبلها السماء. أما القديس أغسطينوس (٣٥٤ - ٤٣٠) فقد اقترح عقابا مخففا (Temperata Severitas) ضد المهرطقين كالغرامة المالية أو الجلد.



رأس الإمبراطور قسطنطين الكبير من الرخام



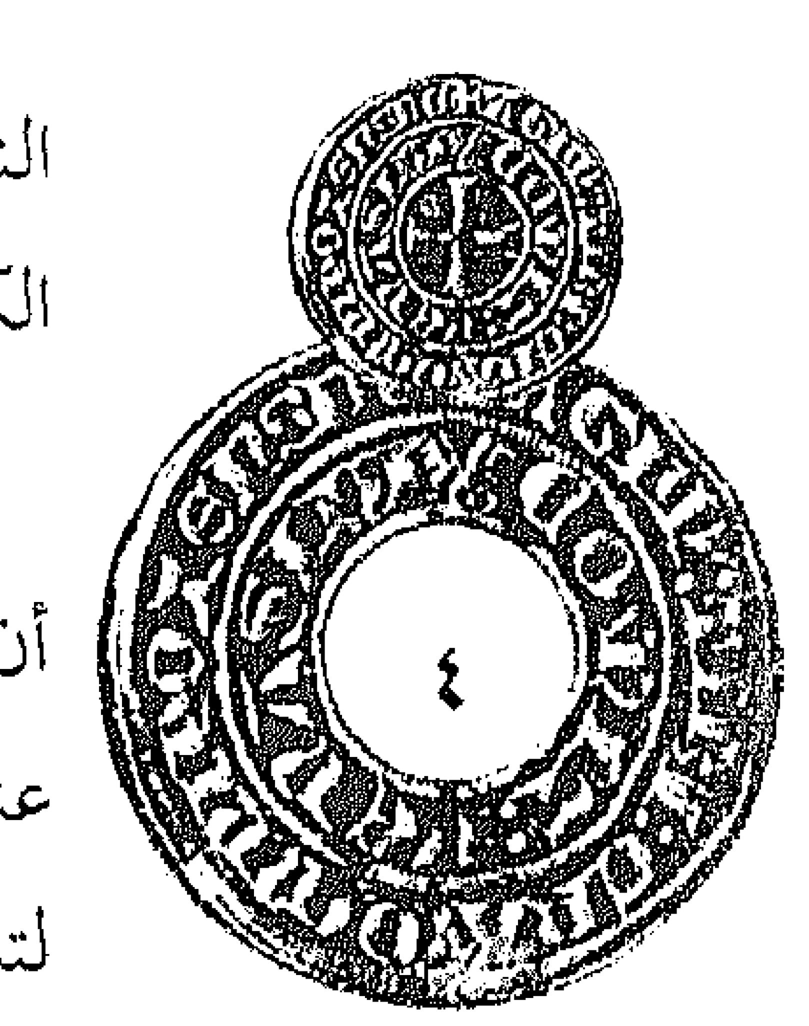
الإمبراطور جستنيان العظيم
تصوير جدارى بالموزاييك

ومن القرن السادس حتى القرن التاسع لم يتعرض الهراطقة للاضطهاد، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى قلة أعدادهم وأنهم لم يكونوا يمثلون خطرا على الكنيسة، ولكن فى نهاية القرن العاشر بدأت موجات الاضطهاد ضد الهراطقة، وصعد الأمر إلى أن نصل إلى القرن الثانى عشر فنجد فقهاء القانون الكنسى وعلى رأسهم أنسلم من لوكا (Anselm of Lucca) وإيڤو من شارتر (Ivo of Chartres) يؤكدون ما ورد فى مجموعة قوانين جستنيان من إدانة للهراطقة والحكم عليهم بالموت.. على أن أول من قرر عقاب الهراطقة بالموت حرقا هو بطرس الثانى ملك أراغون، وذلك فى سنة ١١٩٧.

ويرتبط اسم البابا إنوسنت الثالث بقيام محاكم التفتيش بصفة قانونية، فهو الذى أرسى قواعدها وأشرف على الحملة الصليبية الموجهة ضد هراطقة الجنوب الفرنسى فى أوائل القرن الثالث عشر.

والواقع أن الفكر المخالف لفكر الكنيسة الرومانية نشأ بين الجماعات الساخطة على حياة المدن وفحش أثريائها، وقد اتخذ هذا الفكر طريقتين: إما الهرب إلى شركة الرهبانية على قمم الجبال وفى البرية، وإما الانضواء تحت لواء إحدى الفرق «المهرطقة»، ويمثل الرهبان جماعة المثاليين أو المقاومة السلبية، إذ راحوا من بيوتاتهم وصوامعهم يرنون إلى «المدينة الفاضلة» فى ملكوت السموات، أما الهراطقة فهم بحق جماعات الثوار -حسب مفهوم العصور الحديثة- الذين قبلوا التحدى ودخلوا فى صراع رهيب ضد النظم الكنسية والعلمانية المستبدة.

ولسنا نبالغ إن قلنا بأن الرهبان والهراطقة يجمعهم فى صعيد واحد ذلكم الضمير المتمرد الساخط، وإن اختلف أسلوب التمرد، كذلك ندهش عندما نكتشف أن هذين الفريقين هما أقرب



الناس إلى جوهر الديـن وبساطته الأولى قـبل أن تتناوله الكنيسـة بأساليب الكهانة والوصاية على الأرض.

وتتضح أساليب الوصاية فى المزاعم البـابوية ومناداة البابا بأهليته فى أن يستبد بأرواح البشر، وفى تلك الحكومة الثيوقراطية المتمركزة فى روما، عندما صار الكاهن والأسقف فـى كل ربع من ربوع غرب أوروبا مجرد أداة لتنفيذ الرغبة البابوية.

ولعل أشد ما كان يبعث على الضيق من رجال الدين فى العصور الوسطى تلكم الحصانات الكنسية بحيث لم تكن يد العدالة العلمانية لتمـتد إليهم مهما بلغ الجرم، وترك أمرهم إلى المحاكم الكنسية.

كما كان التـبتل (عدم الزواج) الذى فرض على رجال الدين منذ القرن الحـادى عشر يمثل عزلا بـينهم وبين المجتـمع الذى عاشـوا بين ظهرانيـه، وصاروا لا يـعترفـون بولاء لأحـد سوى الكنيسة.

ولما أن اشتبكـت السلطتان الدينية والزمنية فى صـراع دموى فى القرن الحادى عـشر، تحول صعـيد أوربا إلى سـاحة من التـوتر الدائم، وفى أثناء هذا الصراع بـين الأمير والكاهـن خرجت البابوية عن حدود صلاحيتها، فدخلت المعارك ولطخت يدها بالدسائس، وذهل الناس عندما رأوا كاهن لله فى زى قـيصر، ممسكا بالسـيف وبيارق الحرب، فراحـوا يترحمون على السـلام العالمى وعلى «مدينة الله».

شاعت فى أثناء ذلك سيرة سيئة عن سلوك كـثير من رجال الدين، ولعل أبرز رذائل العصر كانت دفع الرشوة للحصول على المناصب الدينية (السيمونية)، ويورد المؤرخ لى (Lea) عدة أمثلة على ذلك: فقـد كان الأسقف ليبـولد من ورمز رجلا خشن الطبع، يحـمل السلاح وينزل الأذى بالآخرين إلـى حد أن شقـيقـه صارحه ذات يوم بالقـول: «يا أخانا الأسـقف، إن فرسـان العالم الإقطاعى أقل ضراوة منك فى مـسلكك، لقد كنت تخاف الله قليـلا قبل دخلولك سلك الدين، ولكنى أراك اليوم لا تخشى السـماء، فرد عليه الأسقف قائـلا: عندما نلتقى يا أخى أنا وأنت فى جهنم قد أبادلك مقعدك».

المثال الآخـر يظهر فى سلوك الأسـقف فيليب ده دريه (de Drux) الذى كان قـد تمرد ضد الملك الإنجليزى ريتشـارد قلب الأسد، فلما أن وقع الأسقف أسيرا فى يد ريتـشارد، راح يستنجد بالبابا سلستين الثالث، وأرسل البابا إلى الملك يطلب منه العفو عن الأسقف، ولكن ريتشارد بعث إلى البابا بلباس الحرب المضـفر بشرائح الحديد الخاص بالأسقف الأسير ومـعه العبارة الآتية: «هل هذا هو رداء ابنكم الأسقف يا مولانا البـابا؟» فما كان من البابا إلا أن طلب من ريتـشارد التشديد



فى سجن الأسـقف. وفى سنة ١١٩٨ فاحت رائحة فضـائح كبير أسـاقفة بيزانسـون المدعو جـيرارد دى روجيـمونت (de Rougemont)، وكذلك مخازى ماهى دى لورين أسقف تول، الذى كان غارقا حتى أذنيه فى وحل الرشوة ورحلات الصيد، بل إنه قام سنة ١٢١٧ باغـتيال خصمه رينوه دى سنليس.

ويحدثنا القديس برنارد دى كليرڤوه نفسه بأن الفساد بلغ حدا بات الأساقفة معه من زمرة الغلمان الطائشين، وعرف عن مندوبى البابا (القاصد الرسولى) أن جيوبهم باتت تحشى بالفضة والذهب فى جـولاتهم التفتيشية، ولقـد شكا رهبان الداوية إلى البابا إسكندر الثالث بأن القاصدين الرسوليين باتوا يعبدون صنم المال.

ولما أن يئس دعاة الإصلاح من فـساد الكنيسة، قصد روبرت جـروستست (Grosseteste) إلى بلاط البابا إنوسنت الرابع، ولما لم يجد أذنا صاغية صاح فى وجه البابا: «الويل لكم من صنم المال - هو ذا يشترى كل شهوة مادية، وبخاصة فى بيت الڤاتيكان».

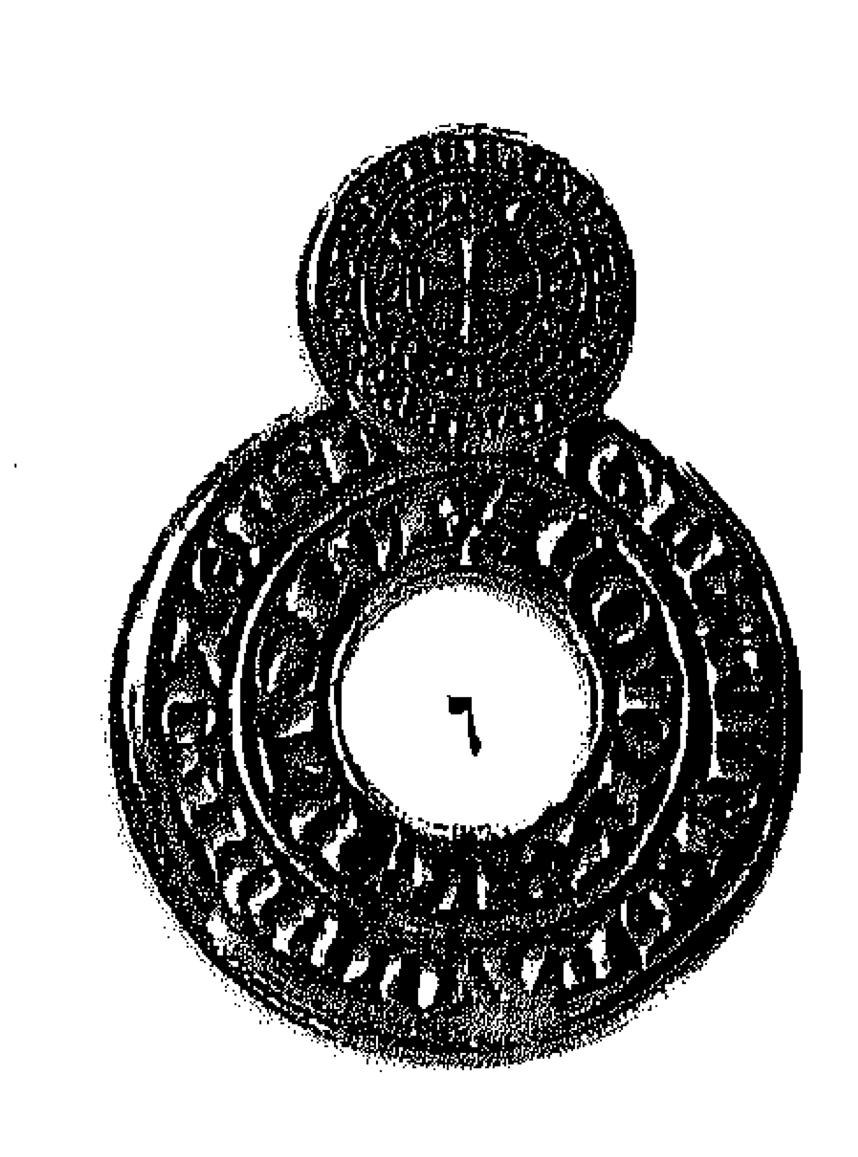
ولقد عـرف عن الديوان البابوى تورطه فى إصدار الخطابات المزيفـة لمنح الغفران ولتحـقيق مآرب أخرى للأمـراء والنبلاء فى سائر أركان القارة الأوربيـة، واشتهر عن المحاكم الأسقـفية تردد شهود الزور واختفاء ملفات كبار المتهمين من ذوى النفوذ.

وكلما علت قباب الكاتدرائيـات الفاخرة، كان عامة الناس يرون فيها تحـديا كنسيا لا يخدم سوى الطقوس الجوفاء من قوت وسواعد الفلاحين والطبقات الدنيا.

ولعل أشد ما أغضب الناس من رجال الدين حق الغفران الذى وضعه الكنسيون فى جيوبهم يمنحونه لمن أرادوا مـقابل دفع مادى: ولقد ظهـر الغفران (Indulgence) بشكل مميز عندما دعى البابا أوربان الثانى إلى الحركـة الصليبية فى مجمع كليرمـونت سنة ١٠٩٥ معلنا غفران خطايا كل من يحمل السلاح للقتال فى الشرق.

صكوك الغفران

بل إن الغفران وجد من كبار المفكرين فى القرن الثانى عشر من يصنفه إلى درجتين، فهناك غفران للذنوب (Coulpe) وهو - فى زعمهم - ينجى من نار جهنم، وهناك غفران من القصاص (Peine) ينجى من المطهر، وجاء اللاهوتيان إسكندر من هيلز (Hales)، وتوما الأكوينى يفسران بأن الغفـران يرفع المرء من المطهـر إلى الفردوس، وصارت تجـارة الغفـران تجارة رابحـة يثرى من دخولها البابا وكبار رجال الدين وصغارهم أيضا، حتى تندر بها الناس على كل لسان:



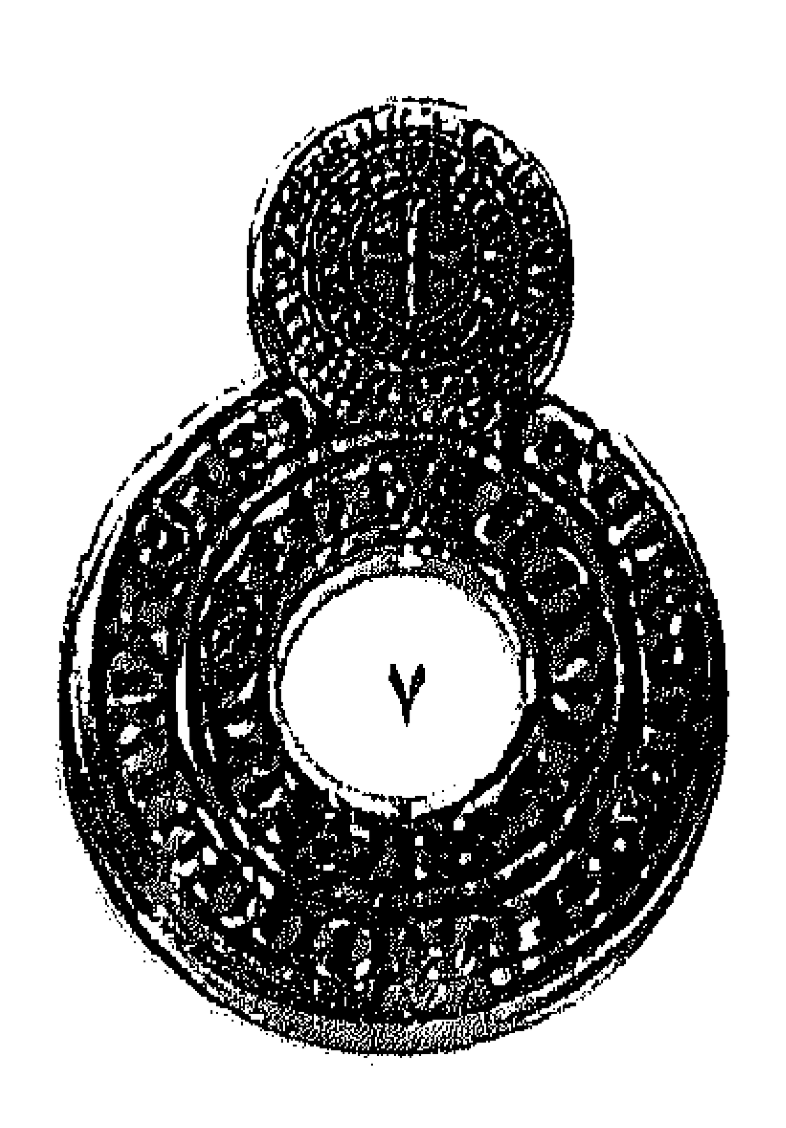
“Le Cose della guerra andcvan zoppe

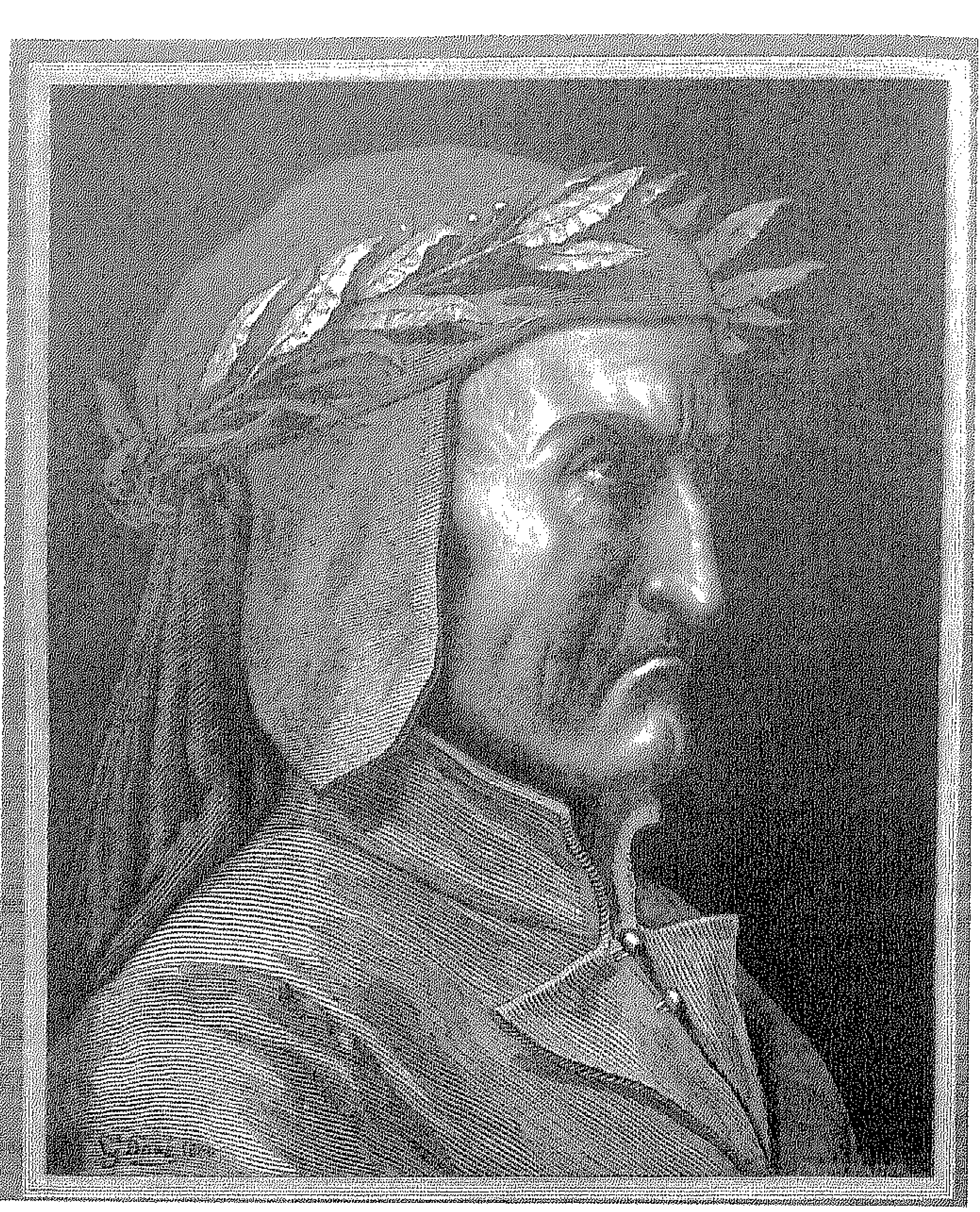
I Bolognesi richiedean danari

Al Papa, ad egli rispondeva coppe

E mandava indulgenze per gli altari.

البابا يخرج بالسيف فى زى الأمراء





دانتى - مؤلف الكوميديا الإلهية

دانتى

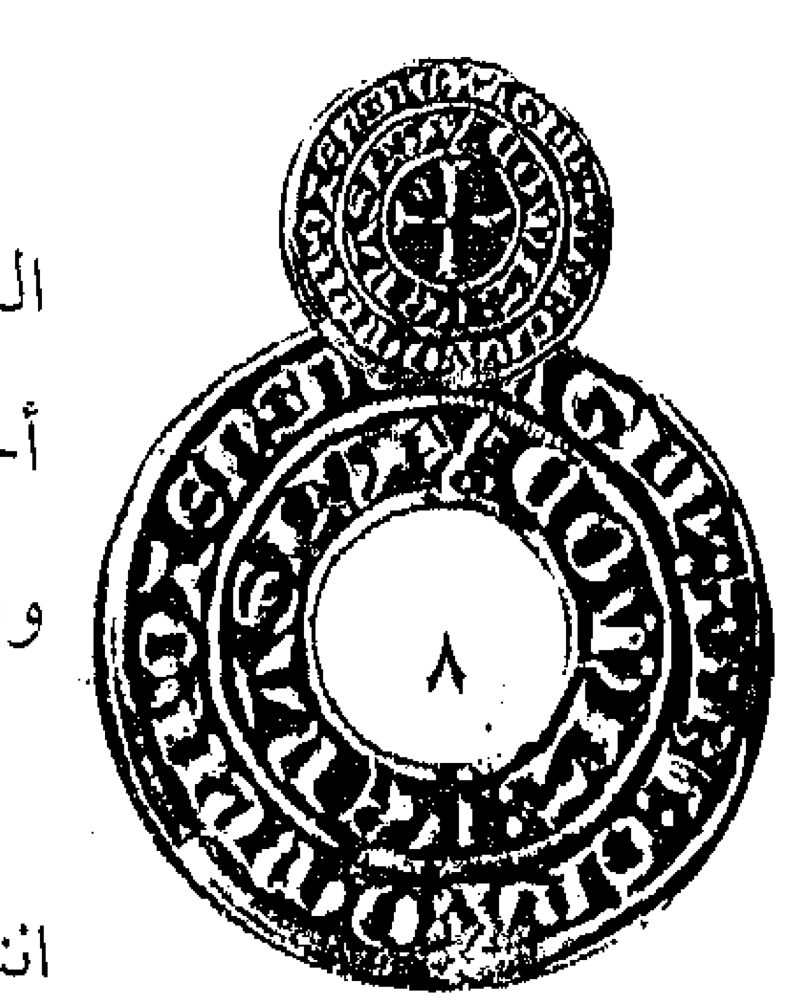
فى أثناء ذلك كله، كانت أوربا الغربية تشهد قيام المدن ونموها استقلالا عن سيطرة الأسقف والنبيل الإقطاعى ولكأنها جزائر تتوالد الواحدة تلو الأخرى وسط محيط زراعى شاسع، وفى نفس الوقت كانت الجامعات تشهد فكرا حرا يتلمس طريقه رغم أنف رجال اللاهوت.

وسرت فى القوم روح التمرد والغضب؛ التى وضحت إرهاصاتها فى الكوميديا الإلهية لدانتى، وفى آراء المعلم بطرس أبيلارد فى باريس (١٠٧٩ - ١١٤٢)، وفى معمل روجر بيكون فى أكسفورد (١٢١١ - ١٢٩٢)، وفى صيحات الراهب إيكهارت فى كولونيا (١٢٦٠ - ١٣٥٧) مبشرا بحياة البساطة والزهد.

كذلك كانت نقابات العمال والحرفيين من غزالين ونساجين وبنائين تتخذ مكانها على الأرض وتنشد لحن «المساواة» التى عاش فى ظلها البسطاء من صيادى الجليل.

الأطهار فى إيطاليا

لقد شهد القرن الثانى عشر حركة غضب جارف ضد الكنيسة، امتد نطاقه فى ربوع البلقان وشمال ووسط إيطاليا وجنوب فرنسا وإسبانيا وبلاد الراين والأراضى الواطئة وأواسط ألمانيا من كولون حتى جولزار، وعرفت غالبية هؤلاء المتمردين الساخطين بالأطهار أو «الأنقياء».



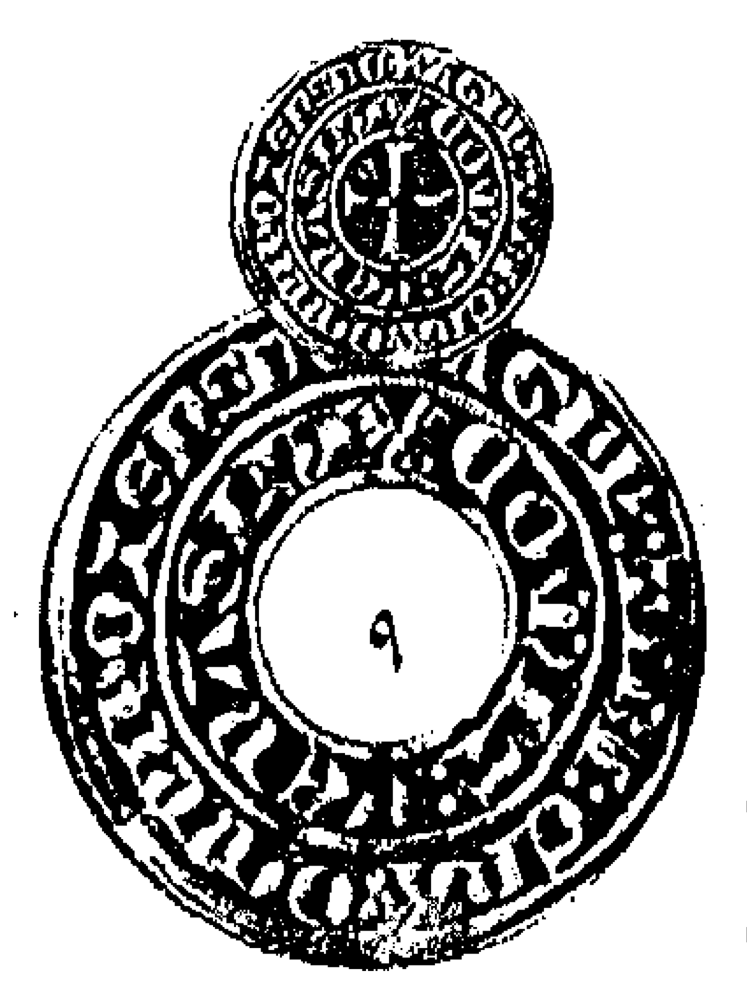
واللفظة إغريقية الأصل (Katharoi)، ومعناها «الذين يحيون حياة النقاوة والزهد» وقد أطلق عليهم المعاصرون أسماء متباينة، فهم النساجون، أحيانا، وفقراء لومبارديا أحيانا أخرى، أو فقراء ليون، وأتباع والدو، والألبجنزيين، والبوجومال (Bogomiles) وأتباع أرنولد، والزهاد.

والواقع أن هذه الجماعات الساخطة قد اتخذت أسماءها من مراكز انتشارها أو من أسماء زعمائها، ولكنها جميعا تنضوى تحت لواء «الأطهار»، ومن هذه الكلمة (كاثارى - الأطهار) اشتق الألمان الكلمة الدالة على الهرطقة (Keizer). ولعله من المفيد أن نتتبع فكر «الأطهار» منذ بدايته.

يرجع بعض الكتاب تعاليم الأطهار إلى أفكار مانوية ومسدكية وبوذية ومسيحية فى آن واحد، وينصب اهتمامهم فى الدرجة الأولى على إيجاد حل لمشكلة الصراع بين الخير والشر. ونحن نعلم أن «الأطهار» فى أوربا قد طلقوا تعاليم مانى وتبنوا أفكار تلميذيه بولص ثم حنا السموساطى (Jean de Samosate)، وقد ظهر زعيم آخر اسمه قسطنطين بوغونات أضاف بعض التعاليم إلى فكر «الأطهار» (٦٦٨-٦٨٥).

والواقع أن آراء «الأطهار» البولصيين ظهرت أول الأمر فى أرمينيا، وقد حاول الأباطرة البيزنطيون ليو الأيسورى وميخائيل كيروبالات وليو الأرمينى وتيودورة قمع هذه الحركة دون جدوى. وفى منتصف القرن العاشر اتبع معهم الإمبراطور البيزنطى حنا زيمسكس سياسة التسامح، ثم نقل جالية منهم إلى إقليم تراقيا، ومنها انتشروا فى أوروبا كلها، كذلك نسمع عنهم عند المؤرخة أنا كومنينا فى كتابها الكسياد، إلى حد أن والدها الإمبراطور الكسيوس كومنين قد دخل مع نفر منهم فى جدال طويل فى بلدة فليبوبولس.

يعتقد الأطهار فى ثنائية الوجود، فهنالك عالم الخير والروح من خلق هورمازد وهناك عالم الشر والمادة من خلق أهرمان، والله هو خالق العالم غير المرئى الروحى والأزلى، أما إبليس فهو مبدع العالم المادى، وإله العالم القديم (يهوه) هو الشيطان، أما أبناؤه وأحباره فهم كاذبون، وعلى ذلك فهم يرفضون «العهد القديم» رفضا كاملا، أما العهد الجديد» فإنهم يؤمنون به، نظرا لما فى تعاليم المسيح من روحانية كاملة ونبذ للماديات والأرضيات. وعندهم أن المسيح قد جاء ليهدم مادية «العهد القديم» ومملكة إبليس، مبشرا بملكوت السموات. وهم يؤمنون بتناسخ الأرواح، ولكنهم يرون فى قربان الكنيسة خداعا ونفاقا، ولا يجدون مبررا لطبيعة وظائف رجال الدين، إذ لا وساطة -عندهم- بين العبد وربه. أما الكنيسة فهى امتداد للمعبد القديم؛ ولذا فإنهم لا يدخلونها؛ لأنها خالية من سلام الروح، وهم لا يقبلون فكرة الأسرار الكنسية، ولا المطهر وينبذون الأيقونات، وأشد ما يؤرقهم فكرة الغفران!



كانت أول جولة صاخبة للأطهار فى النصف الثانى من القرن العاشر فى بلغاريا حينمـا هبوا ضد أمراء الإقطاع، على أمل تحطيم قيـود العبودية والارتباط بأرض السادة كمـا ترتبط السائمة بسواقيهـا. ثم ظهر لهم زعيم يدعى بوجوميل (Bogomil) ومعنى اسمه «المحبوب من الله»، وقد حرض بوجوميل أتبـاعه على التمرد ضـد السلطة لأنها تجسيد لتـحكم الشر على الخيـر، وشجع على احـتقار رجـال الإقطاع من مصاصـى الدماء، وبعث الحماس فى دمـاء العبيد يحضـهم على الامتناع عن الخدمة. وسـرعان ما سرت تعاليم بوجوميل إلى الصرب والبوسنيـة، الأمر الذى دفع البابوية على عهد إنوسنت الثالث وهو نوريوس الثالث إلى تحريض ملوك المجر لقمع الحركة دون هوادة. وفى سنة ١٢٣٤ دمر جيش المجر إقليم البوسنية بالحديد والنار وذلك تحت ستار حملة صليبية بإيعاز من البابوية.

وقد نادى هؤلاء الأطهـار بالمساواة بين جـميع أفـراد المجتمع، وامـتنعوا عن المشـاركة فى الحروب، وأحـجموا عن ذبح الحـيوانات، ورأوا فى الحمـلات الصليبيـة مذابح بشـرية من تدبير الكنيسـة. ولم يلجأ البوجـوميليون إلى حمل السـلاح إلا بعد أن اكتـووا بنار الحملات الصليبيـة ضدهم، فحملوا للدفاع عن أنفسهم وهم كارهون، وهم يجعلون المثل الأعلى لحياتهم ما ورد فى موعظة المسيح على الجبل.

وقد ترجم الأطهار الإنجيل على اختلاف بلدانهم -إلى لغاتهم المحلية (Vernacular) كرها من جانبهم للسان الكنيسة اللاتينية. وعندهم ألقاب ودرجات روحية، فهناك الابن الأصغر والابن الأكبر. ويرتبط من ينضم إلى هذه الجمـاعة بالعهد (La Convenansa)، وبعدها يتعهد بالامتناع عن تناول اللحم والبيض والألبان وكل ما هو ليس بنباتى أو مائى فى جوهره. وعليه ألا يكذب، وألا يحلف، وألا يسير بمفرده إن توافر له على طريقه «أخ من الجماعة. . وألا يتنكر لعقيدته حتى لو عذب بالنار أو الحديد أو الغرق. وبعـد هذه التعهدات يضع كبير مـن كبارهم إنجيل يوحنا على رأس العضو الجديد وهو يتلو آية: «فى البدء كان الكلمـة. . .» ثم يرتدى لباسا خاصا ويتلقى قبلة السلام، وبهذه الطقوس يكون العضو قد شارك فى «عماد الروح» (Consolamentum)، ومن ثم فإنه يطلق كل ما هو مادى ويسلك بالروح فقط.

ولهم أسلوب عـجيب مع من يشـتد به المرض من أبناء الجـماعة فـهم يخيـرونه بين الموت كشهيد أو كمعترف، فإن هو اختار «الشهادة» فإنهم يحضرون وسادة (Untertuch) ويكممون بها فمه بإحكام حتى يموت، فى حين تقف فرقة من المنشدين ترفع الترانيم المناسبة للموقف، وإن هو اختار الاعتـراف، فإنه يحرم من الطعام ثلاثة أيام كاملة، فإذا مـا قدر له أن يعيش رغم هذا العناء (endura) الذى يكابده عن طيب خـاطر، فإنه يبرهن أيضـا عن صلابة روحه واحـتقار جـسده،



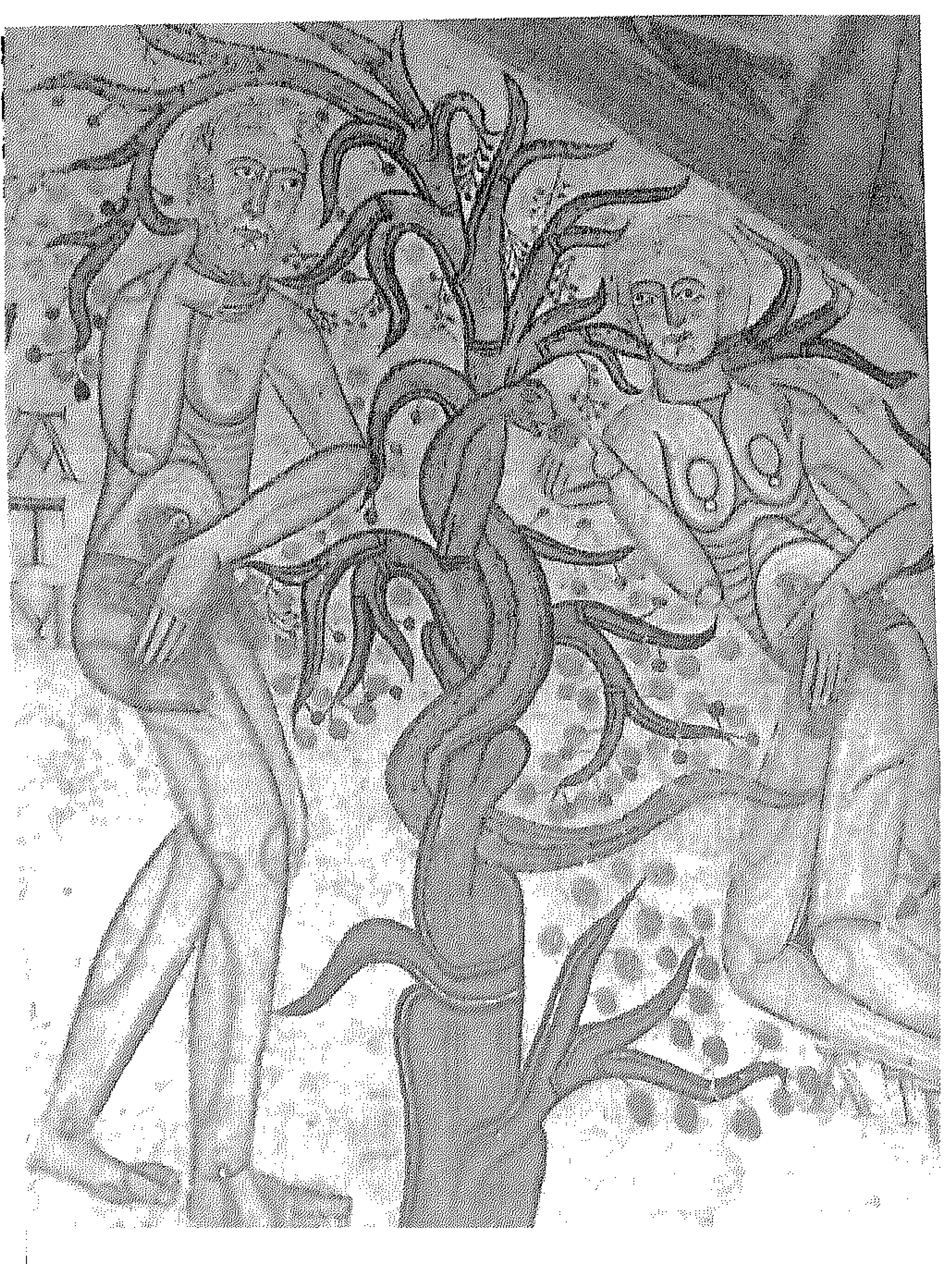
فيخلعون عليه لقب «الكامل» (Perfectus). والواقع أن كثيرين من «الأطهار» كانوا يقبلون على الانتحار بالسم أو بقطع الشرايين، ولكأنهم يشتهون الموت.

ولعل الإشارة إلى صلواتهم توضح مدى زهدهم فى الحياة الدنيا، فهم يصلون ضارعين: «أيها الرب، لا تترأف على جسدى فهو فاسد، ولكن ارحم روحى وأطلقها بسلام من سجنها المادى».

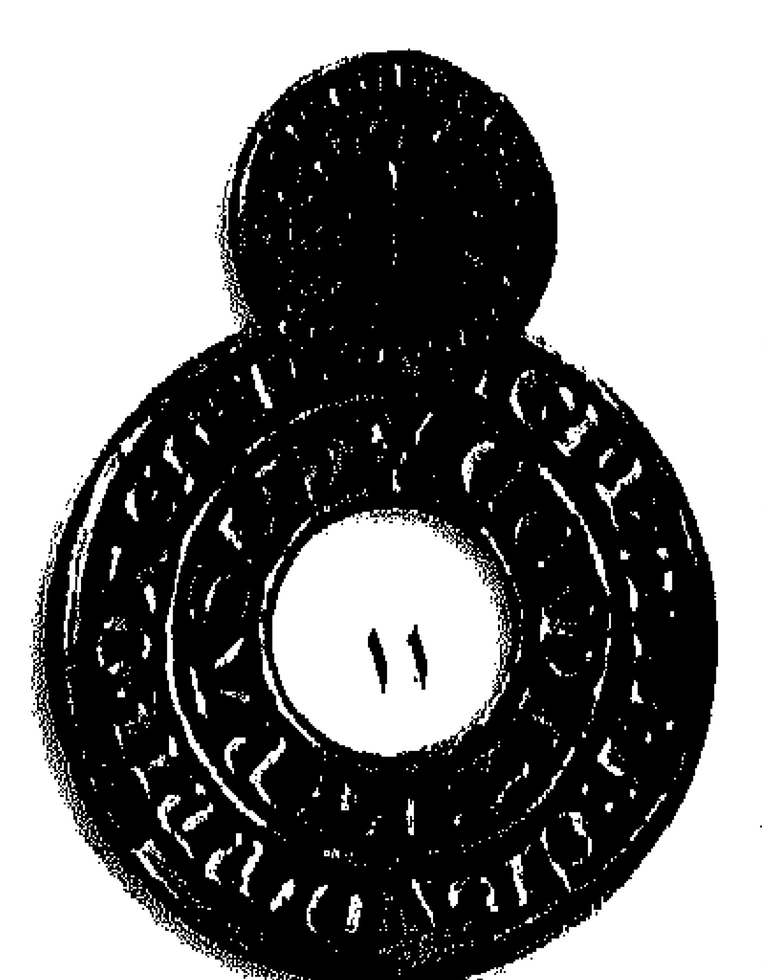
ومن هذه القناعة بالزهد بلغت أيام صيامهم فى العام ١٢٠ يوما، هذا إلى جانب الاكتفاء فى قوتهم بالخبز والماء، ولقد عافت الجماعة فكرة الزواج، وإن سمح بها ينبغى أن تتوقف العلاقات الزوجية بين الرجل وامرأته بعد الإنجاب الأول مباشرة، على أن الغلاة كانوا يتجنبون حتى مجرد لمس النساء، وقد ورد فى سجلات محاكمات بلدة تولوز (سنة ١٣٠١) أن رجلا من «الأطهار» طلب من ابنته ألا تلمسه طيلة حياته، ولم يسمح لها بالاقتراب من فراشه وهو يحتضر.

وتقوم الكراهية للزواج عندهم على أساس أن الخطيئة الكبرى قد دنست العالم البكر وآدم الطاهر عندما عرف آدم حواء، لقد كانت هذه «المعرفة الجنسية» تعرية للآدمية أمام عورتها الكبرى، فسقطت الروح وضاع الطهر، ودخلت الأبالسة إلى جنة عدن فأفسدت كل شىء!!

وقد ظهرت جماعة من «الأطهار» فى لمبارديا بإيطاليا، واستقت اسمها من بلدة كونكوريتسو (Concorrezo)، وأخرى فى بلدة بانولو (Bagnolo)، وتعتقد هاتان الجماعتان – إلى جانب ما سبق ذكره من آراء – بأن الشيطان هو الذى جبل الإنسان والعالم؛ لأنهما



آدم وحواء – تصوير جدارى على كاتدرائية مدريد

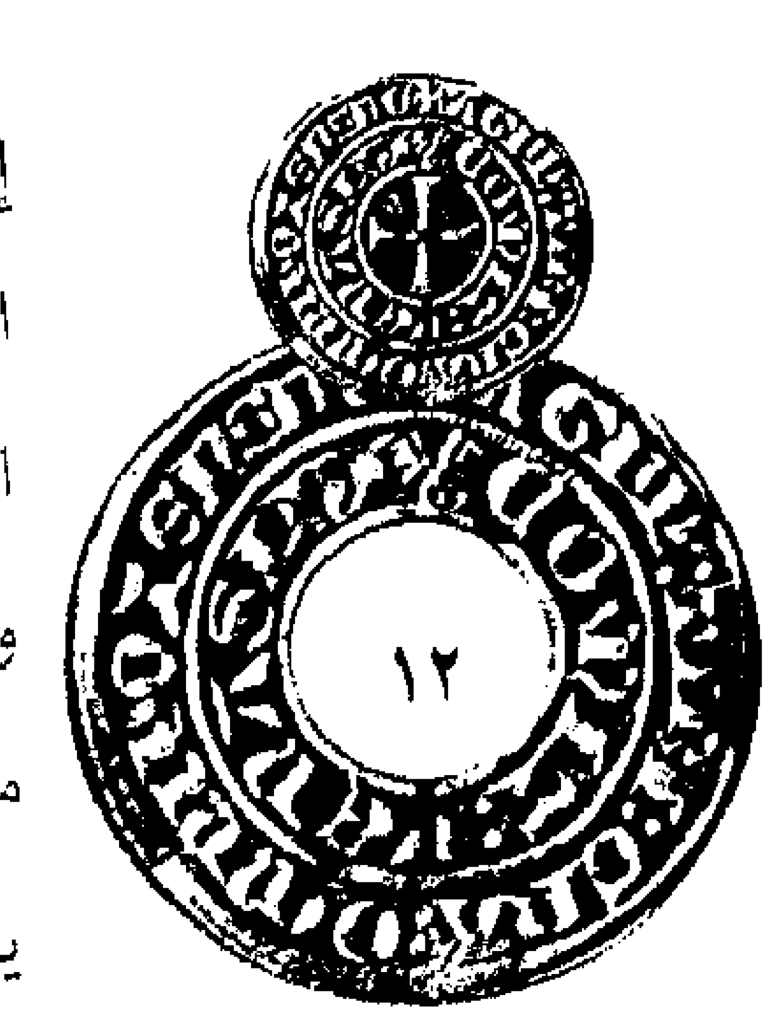


من المادة، ويرون كذلك أن الشيطان قد أدخل الإثم فى جسد الإنسان، فلوث البشرية جميعا ببؤرة الخطيئة الكبرى، ويصور بعضهم الشيطان على أنه كان صاحب قدر كبير فى السموات قبل سقوطه، إذ كان كبيرا على الصاروفيم والشاروبيم الذين يلهجون بمديح الله، ولكنه - أى الشيطان- قد اغتر بنفسه وطلب إلى الملائكة أن تلهج أيضا باسمه بنصيب من المديح، فحل عليه غضب الله وأسقط من منزلته، وفى غضبته عند السقوط إلى الهاوية قام بتجفيف المياه عن المسكونة ثم أوقع آدم فى شرك حواء. ويمثل ميلاد المسيح عندهم إذن الخلاص من رق الجسد وأغلال المادة، وهم يؤمنون بالتناسخ للأرواح، ولما كان فى الإمكان أن تتناسخ الروح فى نبات أو حيوان لذلك فقد حرّموا قتل الحيوانات، وإن كانوا قد استثنوا الأسماك والزواحف.

وعلى الرغم من أن غالبية معلوماتنا عن «الأطهار» قد وردت من سجلات أعدائهم من الكاثوليك والمشرفين على محاكم التفتيش، إلا أن أحدا لم ينكر على تلك الجماعات شجاعة أفرادها الفائقة، وقبولهم الموت حرقا بالنار دون خوف أو وجل، ويروى عن أحداث سنة ١١٦٣ فى بلدة كولون أن من بين المقدمين للحرق بالنار كانت تلك الفتاة بالغة الفتنة والجمال، والتى أشفق الجلادون عليها بسبب جمالها الأخاذ، فجذبوها بعيدا عن المحرقة ونصحوها بإعلان توبتها حتى تنال العفو، ثم طلبت الفتاة من الجلادين أن يقربوها من النار - كى تشاهد رماد الضحايا، ولما أن اقتربت أفلتت من أيديهم وألقت بنفسها فى قلب اللهيب «استعذابا للاستشهاد مع الإخوة».

ولقد بالغت سجلات محاكم التفتيش فى إلصاق الاتهامات بتلك الجماعات، فزعموا أنهم يعبدون الشيطان، وأنهم يمارسون حرية الجنس، وأطلقوا عليهم «أتباع لوسيفر»، أى الشيطان كما خلعوا عليهم اسم «إخوة الروح الحرة» (Freres du Libre Esprit) وقد برزت سيدتان فى زعامة هذه الفرقة فى إيطاليا هما ميلتادى مونتميانو، وجوليت دى فلورانس.

والواقع أن المدن اللومباردية فى الشمال الإيطالى كانت قد انتعشت منذ منتصف القرن العاشر لاضطلاع أهلها بالتجارة بين الشرق والغرب، وقد كان هذا الرخاء مسيلا للعاب كل من الإمبراطور والبابا، فسعى كل منهما للسيطرة عليها، وقد جاهدت هذه المدن لإقامة حكومات ديمقراطية جمهورية لتباعد بينها وبين مخالب سيد روما وقيصر ألمانيا، غير أن رجال الدين داخل تلك المدن وقفوا ضد تيار الحرية، فباعوا ولاءهم تارة للإمبراطور وأخرى للبابا، كما أنهم طالبوا لأنفسهم بامتيازات خاصة كالإعفاء من الضرائب والاحتفاظ بمحاكم أسقفية خاصة برجال الدين



إلى جانب حق محاكـمة الهراطقة أمامهم. وراح العلمـانيون المتطلعون إلى الحرية والحياة الديمقراطية يدحضون آراء رجال الدين ويفتشون عن الأسانيد التى تسفه مزاعمهم، وفى وسط هذا الصراع الفكرى أخذ الحرفيون والعمال والبسطاء فى تكويـن جماعات لهـم لا تهتم بهذا الجـدل، وإنما تسعى لحل مشكلاتها الاجتـماعية. . كذلك شهدت المدن الإيطاليـة قيام حزبين: الأول يناصر البـابا فى صراعـه ضد الإمبـراطور الألمانى وعرف بحـزب الجويليف (Guelps)، والثـانى يؤازر الإمـبـراطور الألمانى ضـد البـابا وعـرف باسم الجبليين (Gibbelines).

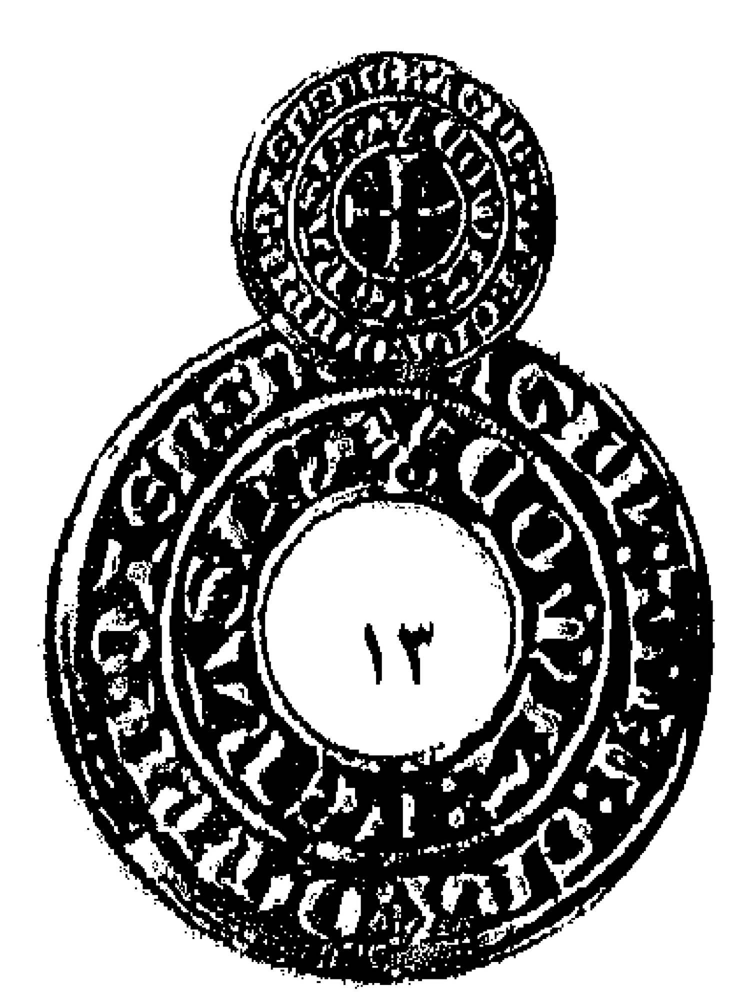
وفى وسط هذا الجو المتوتر وصلت أفكار الأطهار، ووجدت مناخا طيبا لانتشارها، إلى حد أننا فى سنة ١١٣٠ نشهـد قيام محاكم أسقفية لمطاردة ومحاكمة الهراطقة الجدد الذين عرفوا باسم باترينى (Patereni)، وهو اسم مـشتق من اسم حى الفـقراء فى مديـنة ميلان، وبعـد ذلك وقع صراع بين هذه الجمـاعة وبين الكاثوليك فى بلدة أورڤيـتو (Orvieto)، وازداد نفوذ الأطهار فى الشمـال الإيطالى إلى حد أزعج كلا من البـابا والإمبراطـور؛ ولذلك فـإنه بعد أن تم الصلح بين الإمبراطور فـردريك بربروسا والبابا لوسيوس الثـالث سنة ١١٨٤ فى مدينة ڤيرونا، اتفق الطرفان على ضرورة سحق الهراطقة وذلك بإقامة محكمة للتفتيش الأسقفى، تملى قراراتها على السلطات العلمانية لمدن الشمال الإيطالى فى هذا الخصوص.

ورغم أساليب القمـع، كان الأطهار يختفـون من مدينة ليظهروا فى مدينة أخـرى، كما أن العلمانيين من أهل المدن الإيطالية كـانوا متعاطفين مع هذه الجماعات، وخـاصة أن جلاديهم كانوا عملاء للإمبراطور أو البابا. ومع مطلع القرن الثالث عشر انتشرت فرق الأطهار الفقراء فى كل من ميلان وفرارا وڤيرونا ورمينى وفلورنسا وبراتـو وبياتسنزا وترفزو وڤتربو. ورغم قرارات البابوية بالبطش بهؤلاء الأطهـار إلى حد إحراقهم بالنار، إلا أن أفـراد هذه الجماعات لم ييـأسوا، وباتت ميلان قلعة لهم وملاذا لمن يفر إليها من المضطهدين سواء فى فرنسا أو فى ألمانيا.

ويجب التـأكيد على أن أطهـار ميـلان كانوا على درجـة عالية من الثـقافـة، إذ درج أفراد الجماعـة على إرسال أبنائهم النابهين فى بعثات دراسـية إلى جامعات باريس حـتى يتزودوا بسلاح العلم للدفاع عن معتقداتهم.

أرنولد من بريسكا

وقد نتج عن هذه الحـركة مدرسـة الأرنولديين من أتباع أرنولد من بريسكا الذى قـاد حملة إصلاح ضـد فساد رجـال الدين. ولد هذا الرجل فى بداية القـرن الثانى عشـر فى بلدة بريسكا، ودرس اللاهوت على يد رجل حـر فى باريس هو المفكر بطرس أبيلارد، وقـد شرب التلمـيذ من



أستاذه حب الحرية وعلم المنطق والسخط على رجال الدين الفاسدين. وبعد إنهاء دراسته في باريس، عاد أرنولد إلى موطنه الأصلي في شمال إيطاليا، ورسم قسيسا، وسرعان ما راح يبشر بآرائه الإصلاحية، فأعلن أن امتلاك رجل الدين، قسا كان أو أسقفا أو بابا لأملاك خاصة إنما هو إثم خطير، وقد وجد هذا الكلام قبولا طيبا لدى السكان الذين ضجوا من مفاسد الكنيسة وفحش ثرائها؛ ولذلك فإن تعاليم أرنولد قد طرحت أمام المجمع اللاتيراني الذى انعقد سنة ١١٣٩، وقرر البابا فيه عزل أرنولد من سلك الكهنوت وطرده إلى خارج إيطاليا. هرب أرنولد إلى باريس ليحتمى بجوار أستاذه أبيلارد، وفى أثناء غيابه، تغنى الكثيرون فى روما نفسها بتعاليمه، وثاروا ضد فساد البابوية وصادروا أملاكها، فأصدر البابا قراره بالسجن على أرنولد وأستاذه أبيلارد وإحراق كتبهما معا، وفى حين أن الأستاذ قد امتثل لحكم البابا، إلا أن التلميذ قرر ألا يستسلم، ولكن الملك الفرنسى طرد أرنولد من فرنسا، فسافر إلى ألمانيا، ومنها إلى سويسرا، ثم عاد إلى موطنه الأصلى، وتجمع أطهار لومبارديا من حوله، وراح هو يخطب فيهم، مشبها البابا وكرادلته بالفريسيين والكتبة المنافقين، كما أنه نشر فضائحهم وأشار إلى مجالسهم ومجامعهم على أنها مغارات للصوص وأوكار للثعالب. أما البابا - عند أرنولد - فهو كلب الصيد المفترس الذى يحتفظ بمركزه بالدم والنار، الذى يملأ خزائنه بعرق الفقراء والجائعين. وهنا اضطر البابا إلى الاستنجاد بخصمه القديم وحليفه اليوم وهو الإمبراطور فردريك بربروسا للقضاء على أرنولد المتمرد، وقام بربروسا بحملة لهذا الغرض سنة ١١٥٥، وقبض على أرنولد، وأمر بشنقه ثم إحراقه، وأخيرا ذر رماد جسده فى نهر التيبر. وفى مقابل هذه المذبحة الظالمة كافأ البابا هادريان الرابع حليفه بربروسا بأن توجه إمبراطورا مقدسا فى مدينة روما.

أما فى فرنسا، فقد ضاق الناس بسلوك رجال الدين ورجال الإقطاع جميعا، كذلك كان رجال الدين يعارضون قيام «القوميونات» (Communes) فى المدن التجارية النامية؛ لأن هذا كان يعنى التحرر من قبضة الأسقف والنبيل الإقطاعى. وفى أوائل القرن الثانى عشر وجد الناس أن الحملات الصليبية التى روجت لها البابوية كانت خداعا للرأى العام الغربى، وبأنها لم تكن تهدف إلا إلى تحقيق الأطماع الذاتية تحت قناع الدين، وتحسر القوم على دماء الأبرياء التى أريقت باسم الصليب، وتطلع الناس إلى مصلح نبى جديد يمسح غبار الظلام ويحرر الأفراد من الأوصياء والجلادين.

وقد ظهر هذا المصلح فى الجنوب الفرنسى:

بدأت آراء المصلحين بشخص اسمه بطرس من بروى (Pierre de Bruys) الذى كان قسا

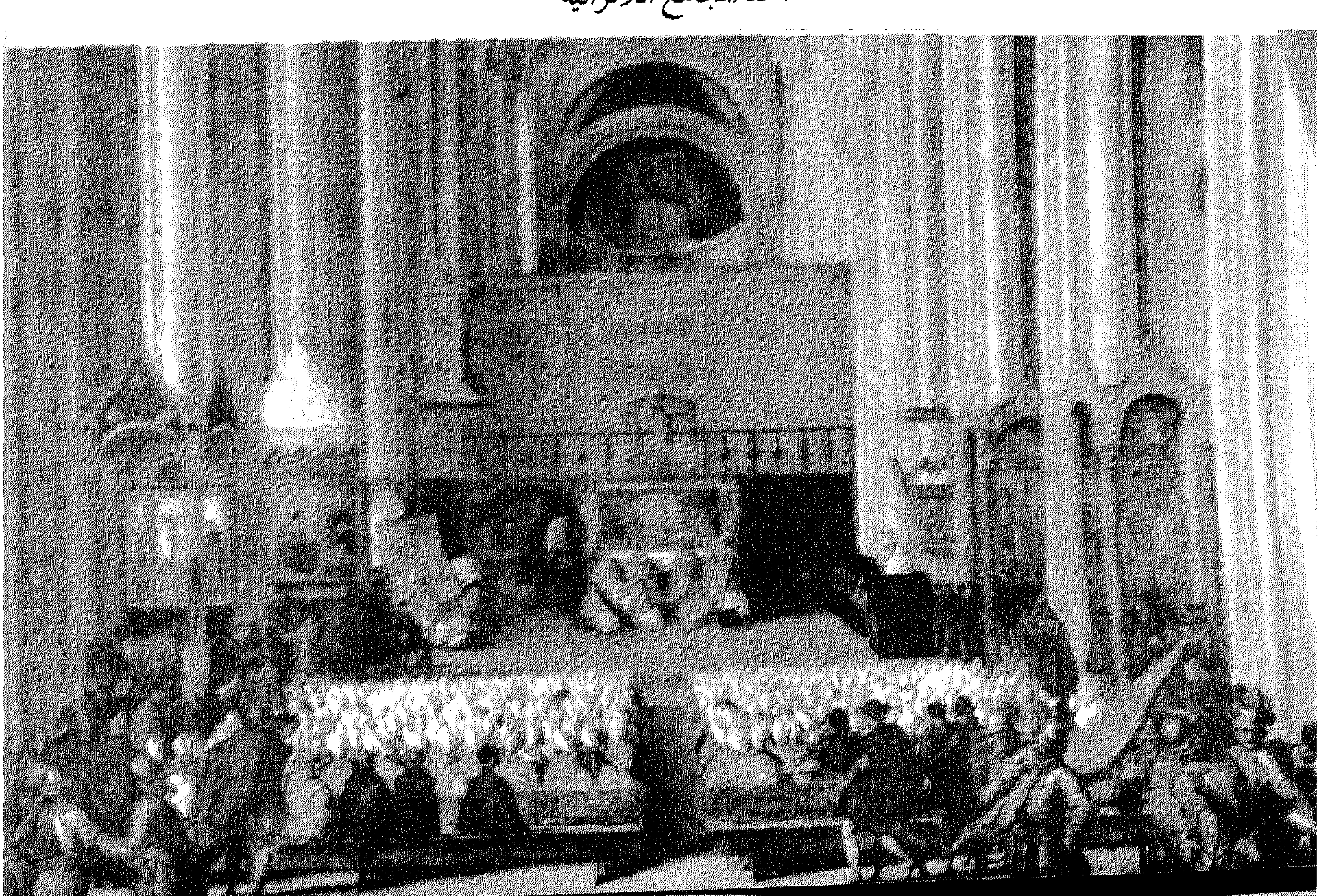
١٤

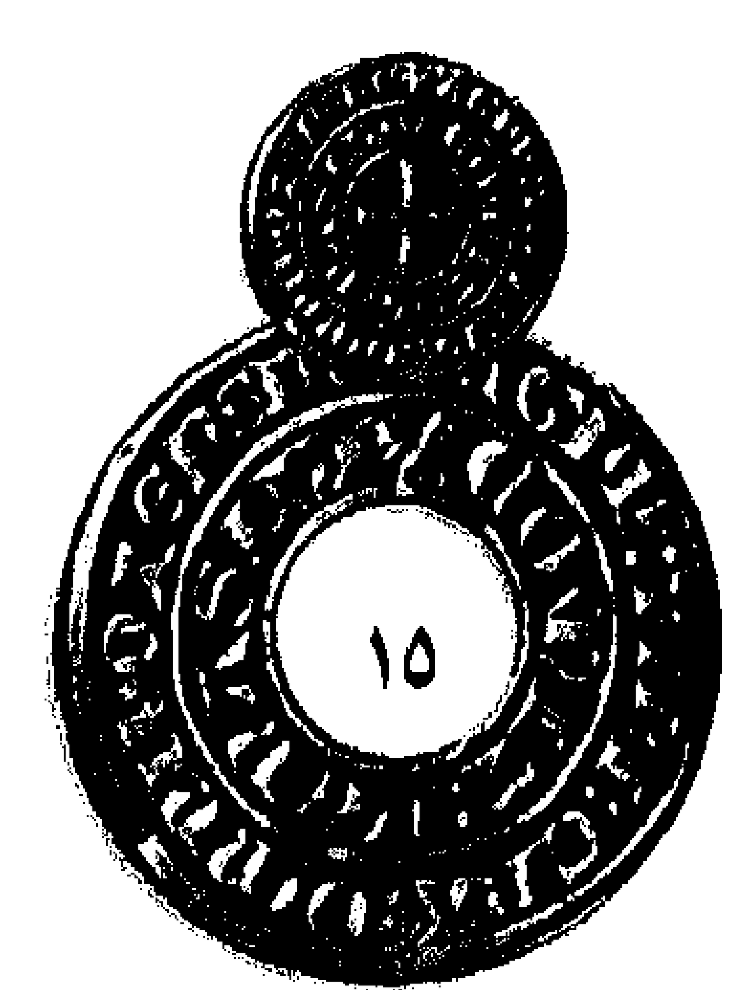
مخلوعا بسبب آرائه، إذ كان ينادى فى الجنوب الفرنسى بعدم جدوى الكنائس وطقوسها وأسرارها وكهانتها وقداساتها؛ لأنها جميعا مسرحية زائفة، أما الصلاة الجنائزية على الموتى فهى امتهان للحى وللميت، إذ كيف يمكن للحى أن يساعد الميت؟ وأما زواج رجال الدين فهو إثم كبير؛ ولهذا فإن السلطات فى الكنيسة قد حرضت الغوغاء على بطرس هذا، فهجموا عليه وقتلوه سنة ١١٣٧ . ثم أتى من بعده رجل آخر اسمه هنرى من لوزان، ونادى بنفس المبادئى التى نادى بها بطرس من قبل، فطرد من دير كلونى، وانتهى بنفس الطريقة التى انتهت بها حياة بطرس، بعد أن نشر آراءه فى لى مانز، وتور، وريمز وبوردو.

بطرس والدو

ولعل أهم ثائر بعد ذلك هو بطرس والدو (Waldo) من أهالى ليون بفرنسا، الذى كان تاجرا ناجحا كون ثروة طائلة من الربا، وذات يوم صادف فى الطريق واحدا من الشعراء الجوالين ينشد سيرة القديس الكسيس (Alexis) ذلك النبيل الرومانى الزاهد الذى تخلى عن قصوره وضياعه حبا فى حياة الزهد والفقر، والذى أخذ يطوف بلاد الغرب ليقتات على التسول والاتضاع.

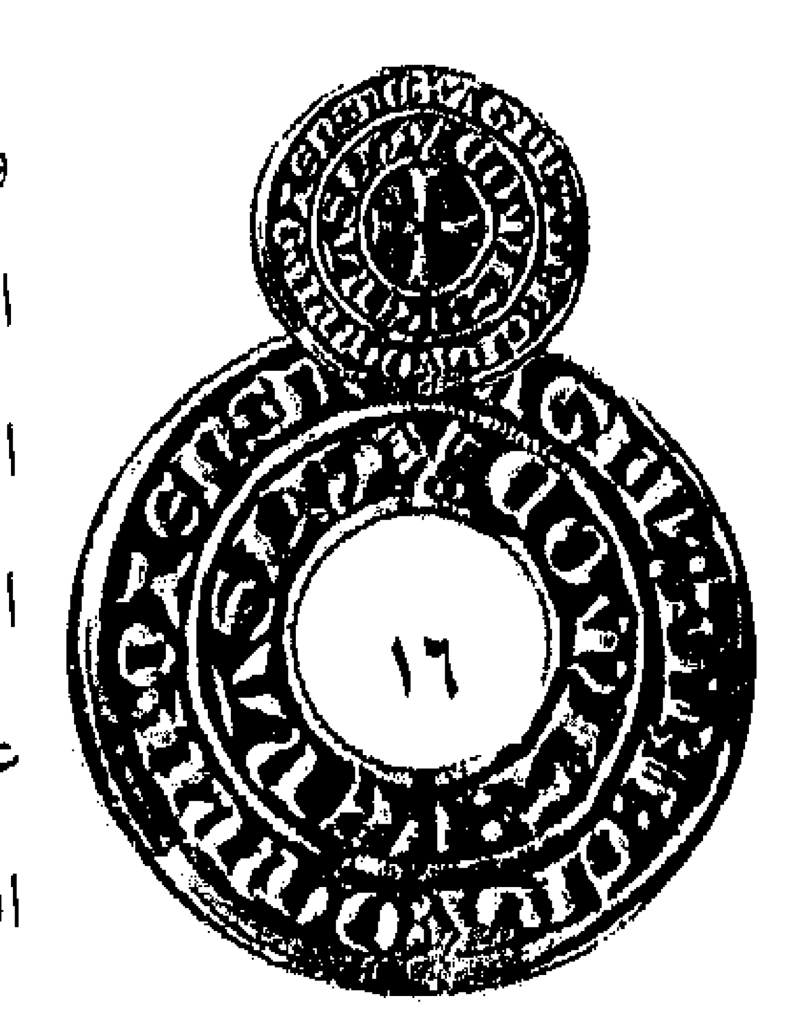
أحد المجامع اللاترانية





وما إن وصلت أنشودة الشاعر إلى النص القائل: «قم وزع مالك واتبعني»، حتى أصيب والدو بمس من محبة الزهد وصاحب السيرة، فقفل (سنة ١١٧٦) عائدا إلى داره، ليخير زوجته بين رفقته على دروب الفقر وبين ميراث الثروة، فآثرت الزوجة - بطبيعة الحال - المال. وعلى التو أخذ والدو فى توزيع كل ما يملك على الفقراء والمعوزين ولم ينس أن يرد لكل من تقاضى منه شيئا من الربا كل حقوقه، وقضى والدو على كل ما يملك، ثم ارتدى مسوح النسك وراح يطرق بوابات الأديار يطلب كسرة من الخبز يقتات عليها. وجن جنون الزوجة، فهرعت إلى أسقف ليون تشكو إليه حال زوجها ومسلكه، ولما كان والدو ضئيل التعليم، ولا يعرف اللاتينية، فقد طلب من أحد أصدقائه أن يترجم له الكتاب المقدس إلى اللغة الفرنسية، وأخذ يبشر بهذه الترجمة عن سيرة البساطة الأولى للمسيح وتلاميذه، وهرع كثيرون يقلدون والدو «الفقير بالمال، والغنى بالروح»، وتنقل أفراد الجماعة يبشرون بما ورد فى الترجمة الفرنسية للإنجيل.

وانزعج أسقف ليون؛ لأن بعض ما ورد فى الترجمة كان محرفا، فأمر والدو وأتباعه بعدم التبشير، ولكن الأخير لم يهتم بالأسقف، فقام الأسقف بطردهم من ليون، وفى سنة ١١٧٩ ظهر وفد منهم أمام البابا إسكندر الثالث يشكون إليه من أسقف ليون، ومع أن البابا سمح لهم بحياة الزهد التى اختاروها طواعية، إلا أنه أصر على عدم قيامهم بالتبشير باللغة الفرنسية، ولم يفت البابا أن يحيل الوفد إلى أسقف إنجليزى هو والتر ماب (Walter Map) لكى يعرضهم للسخرية ويحكم عليهم بالجهل، وغضب أتباع والدو وخاصة بعد أن قرر مجمع ڤيرونا تجريمهم تحت اسم «هراطقة والدو الأطهار». بعد هذا اتخذت الجماعة مركزا لنشاطها فى مدينة ألبى (Albi) بالجنوب الفرنسى، ومنها اشتقت الجماعة اسمها «الألبجنزيين» (Albigensos)، وكان أول من أطلق عليهم هذا الاسم المعاصر بطرس دى ڤوه دى سرناى Pline de Vaux de Cernay فى مؤلفه بعنوان «تاريخ الألبجنزيين» Historie Albigeoise. وأتباع والدو من الأطهار درجتان: الأولى تعرف بالكاملين (Perfecti) وهم الذين يعيشون حياة الزهد والطهر الكامل، وهم يشتهون الموت ولا يخشون الاضطهاد وهم على اعتقاد بأنه عقب وفاتهم مباشرة تتصل أرواحهم بالطهر الأعلى فى ملكوت السموات، أما الطبقة الثانية فهى تتألف من «المصدقين Credentes» وهم على رجاء الوصول إلى درجة الكمال بفعل التناسخ والتطهر مرحلة بعد أخرى. وقيل أنهم يضعون كل ما يملكون فى شركة للجماعة لكل نصيب يساوى نصيب الآخر، والواقع أن الأطهار الألبجنزيين عرفوا بالتمسك الشديد بما ورد فى الأناجيل فحفظوها عن ظهر قلب، وهم متواضعون فى الحديث، مجلسهم بسيط، ولا يكذبون أو يحلفون، ولا يقبلون العمل بالتجارة خوفا من الربح الحرام، ومبدأهم الدائب: «بعرق جبينك تأكل خبزك»، واشتهر عنهم العمل بصناعة الأحذية



وإصلاحـها وهم لا يكنزون مالا، وشـعارهم أيضا: «خـبزنا كـفافنا أعطنا اليـوم»، وهـم لا يفـرطون فى الطـعـام، ولا يتـرددون علـى الحـانات أو المراقص.. وهم كثـيرو المطالعـة والدرس والصلاة، كمـا وأنهم يتحـاشون استخدام الألفاظ السوقية ومجالس النمامين، ويتم لقاؤهم فى مغارب اليوم عند أحـد الإخــوة للدرس والصـلاة، وإن أبدى أحـدهم بـلادة فى فـهم الدرس، شـد المعلم من أزره بقـوله: «تعلم فـقط كلمـة واحـدة كل يوم، وبذلك تتعلم ٣٦٠ كلمـة على مدار العام، ويا لذلك مـن بركة لنا جميـعا ولك».

ولقد راجت أفكار والدو بوجه خـاص فى الجنوب الفرنسى - بلاد «لانج دوك» (Langue d'oc) التى يفـصلها نهـرا اللوار عن بلاد «لانج دوى (Langue d'oil)» . والحق أن بلاد الجنوب الفـرنسى كانت فى القـرنين الحادى عـشر والثـانى عشـر تتمـتع بالرخاء وبمناخ الحـرية الفكرية، فانتعـشت الآداب فى مدائن ناربون، تولوز، ألبى، بيزييـه وكركاسون. كذلك كـان للأثر العربى الوافد من إسبـانيا بالغ التأثير على العقليـة الفرنسية فى تلك النواحى، وكان كونتـات البلاد نبلاء نابهين ومستنيرين، فشجعوا الآداب وفـتحوا قلاعهم للشعراء والمغنين والمنشدين، ومن ثم ظهرت فى الجنوب الفرنسى نزعات للتحـرر والانعتاق من تحرشات الكنيسة والملكيـة الفاسدة، وكان أتباع والدو موضع الاحـترام فى الجنوب الفـرنسى، نظرا لحسن سـيرتهم، وطلاوة لسـانهم إلى حد أن الناس أطلقوا عليهم «القوم الطيبين bos homes» .

وفى سنة ١٢٠٢ على وجـه التحـديد تم لقاء بيـن أتباع والدو وبين الفـئات السـاخطة فى الشمال الإيطالى، والذين عرفوا حـينئذ باسم «المتَّضعين Humiliati». ومن هذه الجماعة الأخيرة تعلم الوالديون أنه لا يليق برجل الدين الآثم أن يقدم الموعظة أو يمارس الأسرار الدينية؛ لأن فاقد الطهر لا يعطى طهرا، ونادوا بأنه ليس هنالك ما يمنع اعتراف المرء لرجل علمانى صالح، على أنه فى سنة ١٢١٨ تم لقاء آخر بين الجـماعتين، ونظرا لتشدد أتباع والدو فـى ضرورة «التبتل»، وقع خلاف بين الفئتين وافترقتا عند بلدة برغامو، وتطرف قوم من أتباع والدو فى الزهد فأحجموا عن العمل، مكتفين بمـا يمن به عليهم الكرام من صدقات، وهؤلاء يعتقـدون أيضا أنه لا وجود لمطهر ولا لجهنم، ولا قيامة للجسد، إذ كيف تكون قيامة لفساد مادى؟

يواكيم من كالابريا

وفى نفس الوقت الذى ذاعت فـيـه آراء والدو، ظهـرت تعاليم زاهد آخـر هو يواكـيم من كلابريا، كان هذا الرجل يحيا حيـاة الزهد والطهارة، بعد أن أمضى سنينا طوالا فى بلاطات أمراء أوربا، وقد دخل دير سيتوه (Citeaux)، ثم اختير مقـدما لبيت كوراتزو (Corazzo) فى صقلية سنة ١١٧٧.

وفى سنة ١١٨٤ سمح له البابا لوسيوس الثالث بكتابة تعليق عن الكتاب المقدس، وفى سنة ١١٩١ هجر يواكيم ديره ونزل فى بلدة فلورا (Flora)، حيث أقام بيتا للتوحيد وللمتوحدين (Solitaires)، وذلك بدون الرجوع إلى المسئولين فى رئاسة ديره الأصلى، وقد وافق له البابا على ذلك فى سنة ١١٩٥.

كان يواكيم يؤمن بأن الوعظ والتبشير والإرشاد لن يجدى مع مظالم المجتمع شيئا، فلجأ إلى التأمل والتوحد ليشبع بمحبة الله، وله نظرية فى الثالوث، وتفسير لمسار التاريخ: فالعهد القديم، عنده - هو عهد الله «الأب»، والعهد الجديد عهد المسيح «الابن»، والعهد المنتظر هو عهد الروح القدس، ولقد انتهى العهد القديم ومضى العهد الجديد، وبقى أن يحل عهد الروح القدس، الذى أطل يواكيم على أعتابه مبشرا وداعيا، وهو يستقى تفسيراته من الرموز الواردة بين أسطر الرؤى الإنجيلية، لقد ولى عهد المخافة والناموس، وبقى أن تعمل تباشير عهد المحبة الخالصة لأجل المحبة (Caritas Caritatis)، ولكل عهد من العهود الثلاثة مثالياته، فالمثال الأعلى فى العهد القديم هو شركة الزيجة، وفى الجديد حياة الرهبنة، أما النموذج الحسن الأحسن فهو من معطيات عهد الروح القدس، ألا وهو التأمل والتوحد.

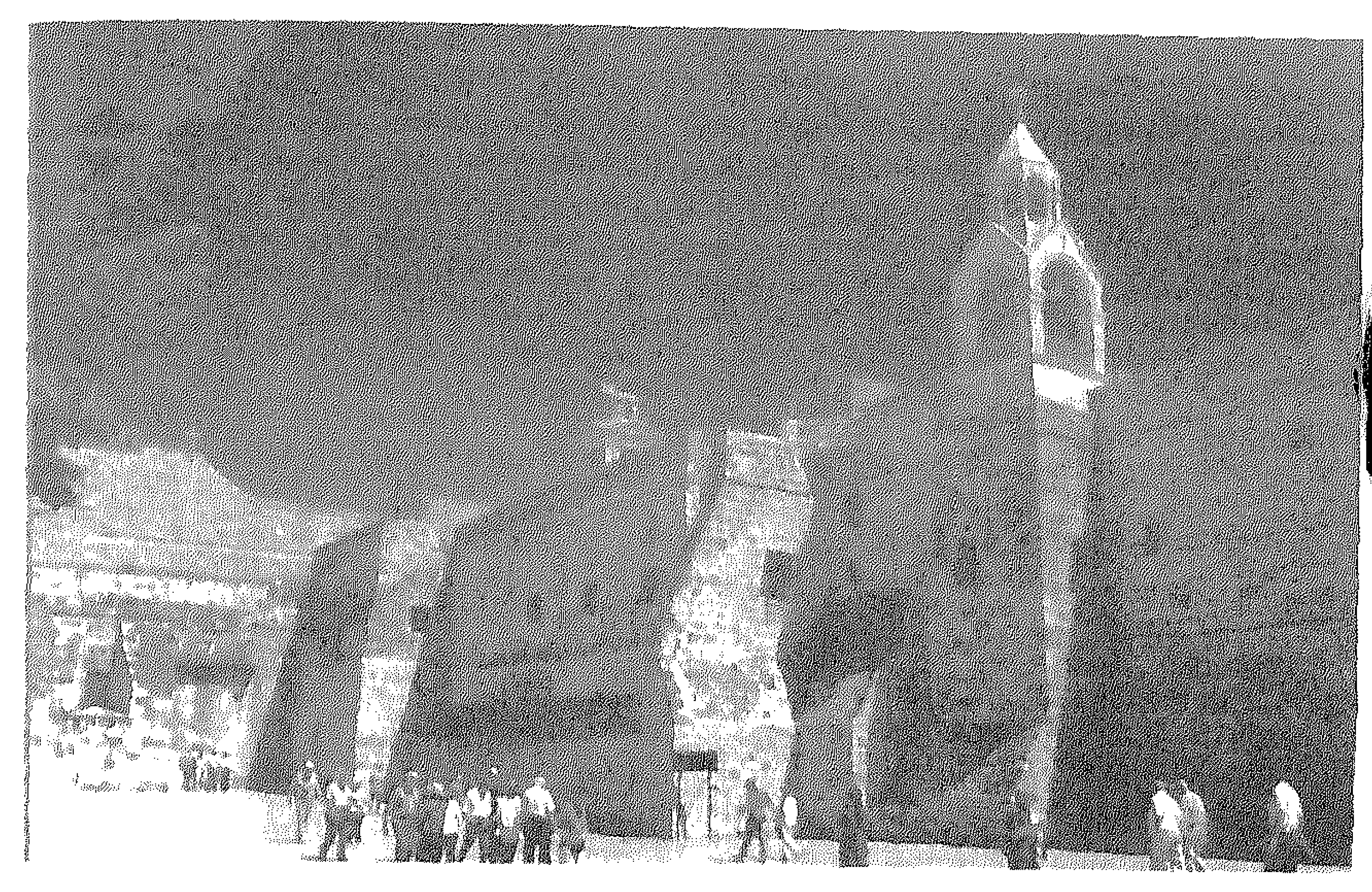
ومن حسن المصادفة أن آراء يواكيم قد تحققت أثناء حياته، فلقد نشطت جماعات الزهاد من الرهبان الأصغار (Friars Minor) من فرنسيسكان ودومينكان وجزويت وهم جميعا أداة للكنيسة الرومانية تبشر بالزهد والبساطة، وواضح أن الكنيسة الرومانية تحاول من خلال هذه الجماعات محاربة «الأطهار» بنفس سلاحهم.

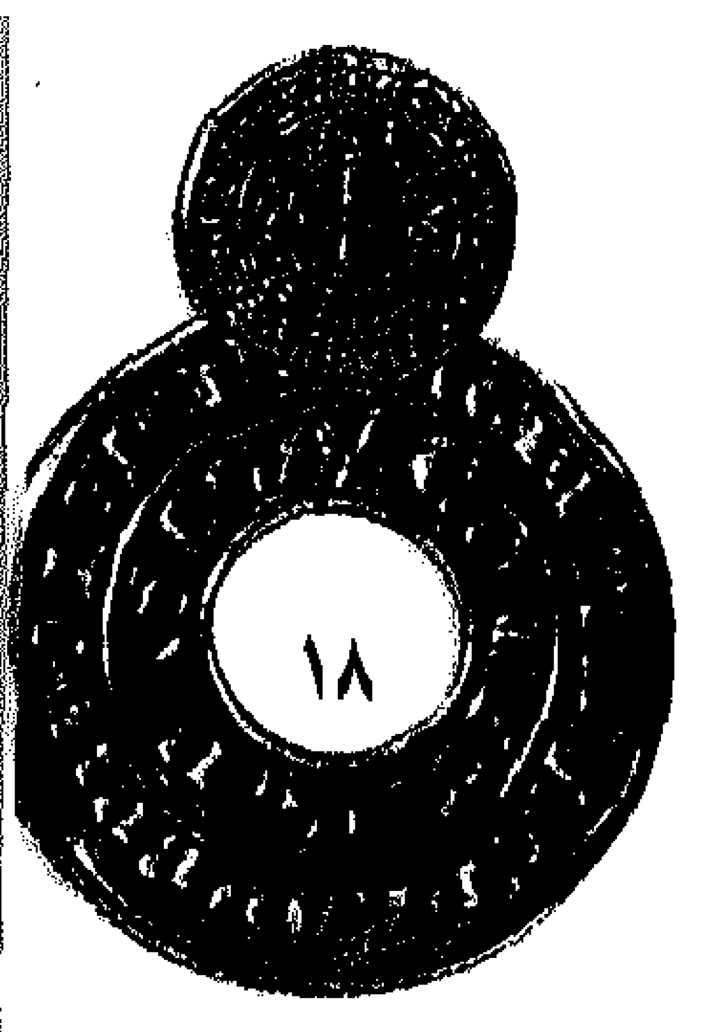
كما تنبأ يواكيم بأن كل عهد من العهود ينتهى بعلامات وكروب، كما أن لكل عهد طقوسا خاصة تنتهى بانتهائه، وعلى هذا فإن «القداسات» الكنسية سوف تختفى مثلما اختفى من قبل «حمل الفصح»، هذا ويرى الرجل أن فداء الإنسانية من السقطة الكبرى لم يكتمل بعد، فالمسيح الذى ظهر فى بيت لحم لم يكن إلا رمزا للمسيح الذى سوف يأتى، كذلك لابد وللكنيسة من أن تنتهى هى أيضا ليحل محلها «بيت المحبة والرحمة» والتأمل فى المحبة الإلهية.

ولقد قربت الساعة، ودق ناقوس «الإنجيل الجديد»، وهو ليس إنجيلا مغايرا بمعنى المغايرة، وإنما هو فهم لأسرار ورؤى الإنجيل الحقيقى، ولقد أدان المجمع اللاتيرانى الرابع على عهد إنوسنت الثالث (سنة ١٢١٥) آراء يواكيم.

أطهار بلاد فلاندرز

أما عن «الأطهار Cathari» فى بلاد فلاندرز، فقد جاء ظهورهم متأخرا عن أقرانهم فى لومبارديا والجنوب الفرنسى، ولقد تمتعت فلاندرز بقسط من التسامح مع الفكر المخالف فى بداية الأمر، وكان المجتمع مؤلفا من طبقتين: الأولى هى طبقة النبلاء وكبار أصحاب المصانع، والثانية

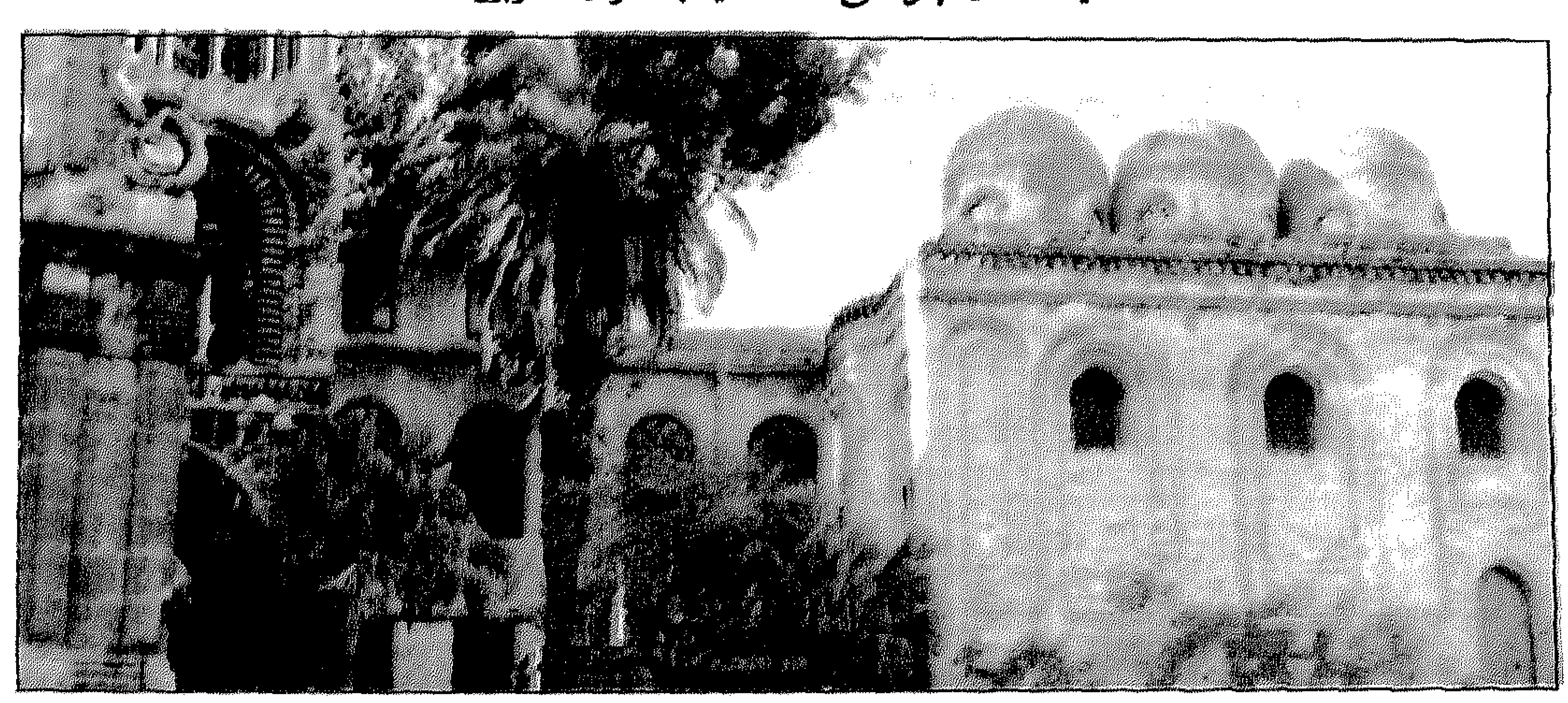




كنيسة المهد - بيت لحم بفلسطين - مهد السيد المسيح

هى طبقة العمال الكادحين من «النساجين Textores»، ولقد اقترن اسم النساجين فى فلاندرز بفرقة «الأطهار»، وقد فرق أطهار فلاندرز - مثل غيرهم من أطهار أوروبا- بين إله العهد القديم وإله العهد الجديد، فالأول هو الله الناموس والآخر هو إله السماحة والمحبة - الرب الطيب- الذى لا يقبلون سواه، ورب العهد الجديد ليس فى حاجة إلى كهانة ولا إلى معمار كنائس، وإنما هو رب القلوب النقية والنفوس المنكسرة، وهو معين السواعد العاملة لكسب أجرها اليومى، وهم لا يحلفون ولا يكذبون ولا يقرون الحرب، ومثلهم الأعلى هو سيرة الرسل الأطهار من صيادى الجليل البسطاء، وتنسب الطائفة الأولى من أطهار فلاندرز إلى لامبرت لى بج (Lambert le Begue) أى «المتلعثم»، وهو قس من بلدة ليبج (Liege)، قام فى سنة ١١٨٠ بشن حملة ضد مفاسد الكنيسة وتحرشاتها بأمور العلمانيين، فقام الأساقفة بالقبض عليه ثم قتلوه، وقيل أنه قبل وفاته، جمع جيشا من فضليات النسوة الطاهرات وأنزلهن فى دار للطهارة، وعرفت الجماعة باسم

كنيسة سان جوفانى - صقلية بالطراز العربى





«بجوان Beguin»، وهى كلمة مشتقة من لفظة «بج Beg» السكسونية ومعناها «تنظيم نسائى يحيا حياة الزهد والنقاوة»، ويرى البعض أن حياة الزهد والطهر عند نساء فلاتدرز يرجع إلى نقص واضح فى أعداد الرجال بسبب الأعداد الكثيرة التى هلكت فى الحملات الصليبية من فلاندرز بين أعوام ١١٣٨، ١٢٠٤.

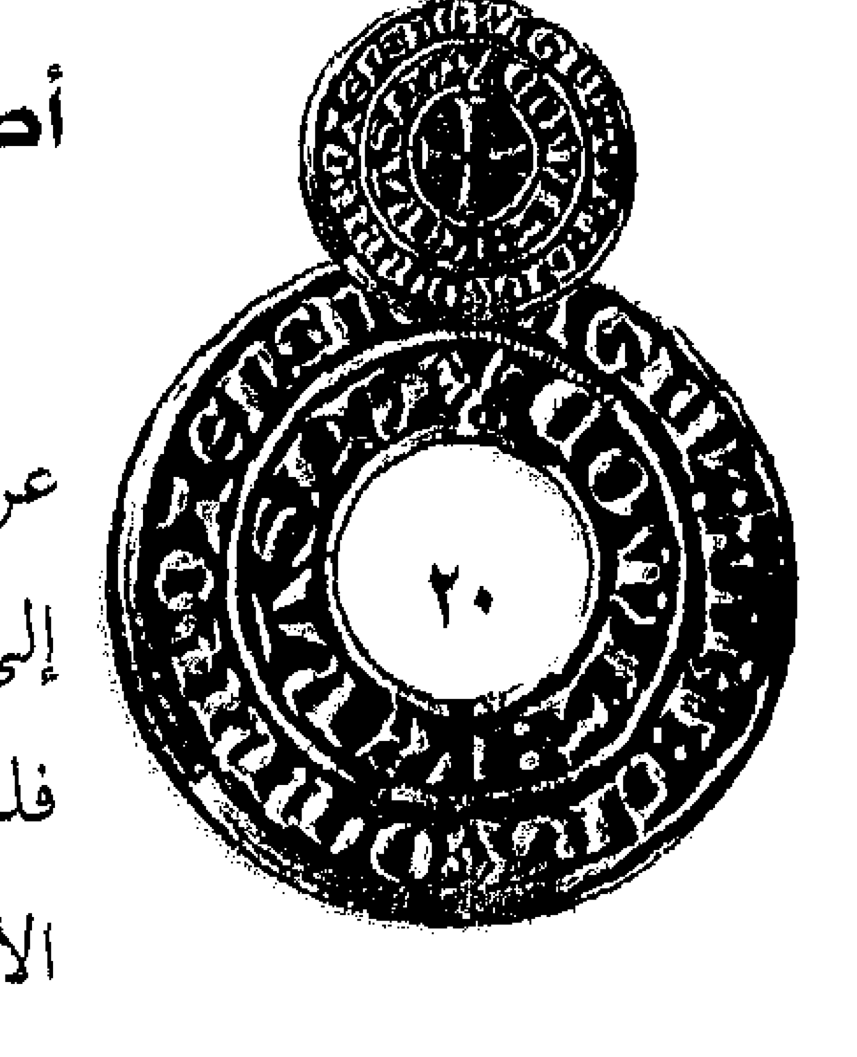
وأهم واجبات هذه الطائفة كانت القيام بالتمريض واستضافة الغرباء والمعوزين، وهن يعتقدن أن الخضوع لسلطة البشر إثم؛ لأن من تحل به روح الله لا يخضع لسلطان عبيد الله، ولا للكنيسة.

وسرعان ما حذا رجال فلاندرز حذو نسائها، فأقاموا بيوتات مثيلة عرفت باسم «بجرديان Beghardian»، عاش أهلها على التبتل وعلى العمل بسواعدهم، غير أن نفرا منهم ملوا هذه الحياة، فهجروا البيت وهاموا على وجوههم فى أصقاع البلدان يبشرون بالزهد وحياة الطهر، وانتشرت تعاليمهم فى وادى الراين حتى تمركزوا فى القرن الثالث عشر فى بلدان كولون وميتز وستراسبورج ومينز.

وتتصل بهذه الجماعات طائفة أخرى ظهرت فى بلدة أنتورب (Antwerb)، وعرفت باسم «لولارد Lollards» (سنة ١٣٠٠)، وقد اهتمت هذه الفئة بالعناية بالمرضى والمجانين ودفن الفقراء، وكانوا يحصلون على المال اللازم لأداء خدماتهم المجانية من التبرعات ومن عرق جبينهم أو من الشحاذة والتسول، وينسب هؤلاء إلى زعيمهم لولارد والتر (Lollard Walter)، وقد قبض عليه سنة ١٣٢٧ وعرض لعذاب شديد، ولكن عزمه لم يهتز، ثم أحرق الرجل دون أن يفشى سرا من أسرار رفاقه.



ثلاث راهبات - تمثال خشبى

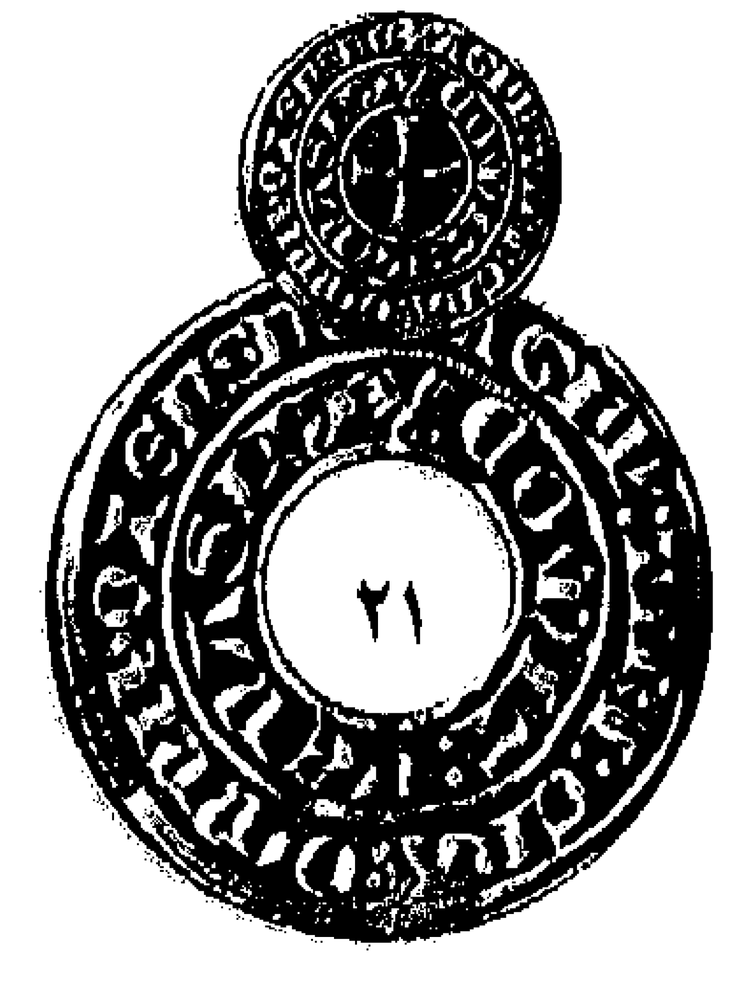


أطهار باريس:

وفى بداية القرن الثالث عشر ظهرت جماعة من «الأطهار» فى باريس عرفت باسم «إخوة الروح الحرة» « Freres du libre Esprit» وانتقل فكرها إلى إيطاليا بزعامة سيدتين هما ميليتيادى مونتميانو، وجوليت دى فلورانس، ولقد وجدت هذه الجماعة ترحيبا خاصا بين أبناء الشعب الألمانى، وذلك على يد زعيم يدعى أورتليب من ستراسبورج (Ortlieb of Strassburg)، ويعتقد هؤلاء «الإخوة» أن كل إنسان يضم بين جنباته قبسا روحيا طاهرا من عند الله، وعلى ذلك فإن قول الكنيسة الكاثوليكية بأن الإنسان قد ولد بالإثم والخطيئة قول مردود، وعليه فإنهم لا يرون ضرورة فى قيام الكنائس ولا القسيسين؛ لأنه لا وساطة بين الخالق وعبده، ويرون أنه بعد الموت تصعد الروح إلى باريها، دون أن تمر على مطهر أو ما شاكله؛ لأن الروح نقية فى الأصل، وهم يعتقدون أن كل ما يدخل الفم فهو طاهر، والإخوة على وجه الخصوص لا يجدون أية غضاضة أو إثم فيما تتناوله اليد أو تبصره العين أو تسمع به الأذن، ولعل هذه التعاليم «التحررية» قد شجعت «الإخوة» على أن يستحلوا كل شىء فمارسوا حرية الحب وتدنسوا فى فجور شديد، كما تزعم سجلات أعدائهم من الكاثوليك.

أمام هذه الآراء السابقة الذكر، التى تهدد كيان الكنيسة الرومانية من أساسها، بل وتلغى مبرر وجودها أصلا، كان طبيعيا - أن تنزعج الدوائر الكنسية فى غرب أوروبا، فهرعت منقضة تستخدم أسلحتها التقليدية من لعنة وقطع وحرمان وحملات صليبية ومحاكم تفتيش إرهابية ضد هؤلاء «الثوار» الذين دمغتهم بالهرطقة لتبرر ضربهم بالحديد والنار.

ولعل المؤرخ الموضوعى لا يجد غضاضة فى مسلك البابوية والكنيسة فى الدفاع عن كيانها وعقيدتها لو أنها أعطت المثل الطيب فى سلوكها الذاتى، ولكن واقع الأمر يشير إلى عكس ذلك تماما، لقد وصلت البابوية إلى الدرك الأدنى فى وحل الرشوة والدعة والفجور، وبات الڤاتيكان بيت سوء، ويكفى أن نشير فقط إلى طرف من سيرة واحد من البابوات هو إسكندر السادس بورجيا الذى تولى العرش البابوى سنة ١٤٩٢ : كان الكاردينال رودريجو بورجيا من أصل إسبانى، عينه عمه البابا كالكستوس (١٤٥٥ - ١٤٥٨) كاردينالا، وصارت له الكلمة العليا فى روما، ويعترف أحد المعاصرين صراحة بأنه بوصول رودريجو إلى قلب الكيوريا بات تزييف كل شىء فى متناول كل يد، وهذا الشاهد المعاصر هو جان دى ڤولترا (Jean de Volterra) الذى صاح فى قلب الڤاتيكان أمام الحاضرين قائلا: «أيها السادة، إن كان أحدكم يبحث عن تنفيذ مطلب غال أو غير عادل أو مزيف فإن الوقت قد حان تماما؛ لأن البابا الحالى يعطى كل شىء لمن يدفع».



البابا إسكندر السادس:

بعد وفاة البابا كالكستوس، باع الكاردينال رودريجو بورجيا صوته بمال وفير إلى البابا بيوس الثانى، ولم يرغب بسبب حداثة سنه أن يتقدم لاعتلاء العرش البابوى، وفعل نفس الشىء مع البابا إنوسنت الثامن بعد وفاة بيوس الثانى، وأخيرا فى سنة ١٤٩٢ كانت الثمرة قد نضجت، واعتلى بورجيا العرش البابوى باسم البابا إسكندر السادس.

عرف عن بورجيا أنه لم يكن يطيق حضور صلوات القداسات، وإن اضطر إلى الحضور فإن الصلاة تختصر للغاية فلا تتعدى نصف الساعة.

وكان بورجيا مغرما بالنساء، وكان يحيط نفسه بالراقصات، ويروى أنه لم يكن لينام فى فراشه بمفرده.

ولبورجيا أبناء لقطاء كثيرون، وخاصة من السيدة ڤانوتزا (Vannozza) التى رزق منها بكل من قيصر، وجان، ولوكريس، وجوفرى، كما رزق من أخرى بكل من جرومين، وإيزابيل، وبيارلويس، ولورا، ومن خليلاته أيضا السيدة جوليا فرانيزى (Julie Franese)، وقد أورد المعاصر إنفسورا (Infessura) فضائح كثيرة تتصل بالبابا إسكندر السادس وزوجه غير الشرعية جوليا وابنته لوكريس، وخاصة يوم زواج ابنته من جان سفورزا (Sforza).

وكان بورجيا لا يتورع عن مسلك الفجور فى العلن، بل فى وجود بناته وأفراد حاشيته الفاسدة؛ ولذا فقد أشارت إليه بعض الأصابع بالاعتداء على المحارم.

واشتهر عن بورجيا - مثلما قيل عن سلفه سكستوس - الولع بالغلمان، مما أعاد إلى الأذهان غرام الإمبراطور هارديان بغلامه أنتونينوس، وذلك على الطريقة الإغريقية القديمة.

وفى السيمونية وصل الأمر بالبابا بورجيا إلى بيع منصب الكرادلة بالمال، وقد بلغت الرشوة فى هذا الصعيد مبلغ مليون ومائتى ألف مارك من الذهب، ولقد حفر المعاصرون أغنية ساخرة على جذع شجرة فى بلدة باسكوينو (Pasquino) تشهر بنزوات وسيمونية إسكندر السادس، وبجره روما إلى درك الجحيم الأسفل، مثلما فعل من قبل تاركوينوس ونيرون.

وقد اعتاد بورجيا على الاستيلاء على أملاك وأموال الأساقفة الأغنياء عقب وفاتهم، ويسوق المؤرخ بيركارد أمثلة كثيرة على ذلك، أبرزها حالة الأسقف إجرد دويركوب (Egerd Duerkop).

ولم يكن بورجيا يتورع عن دس السم لمن يريد التخلص منه من معارفه لكى يرث أملاكه، ولم يسلم من هذا الجرم علمانى أو رجل دين فى روما وذاع عن سم بورجيا - الذى تخصص فى إعداده صيادلة مرموقون فى روما- اسم خاص هو «كانتاريللا Cantarella».

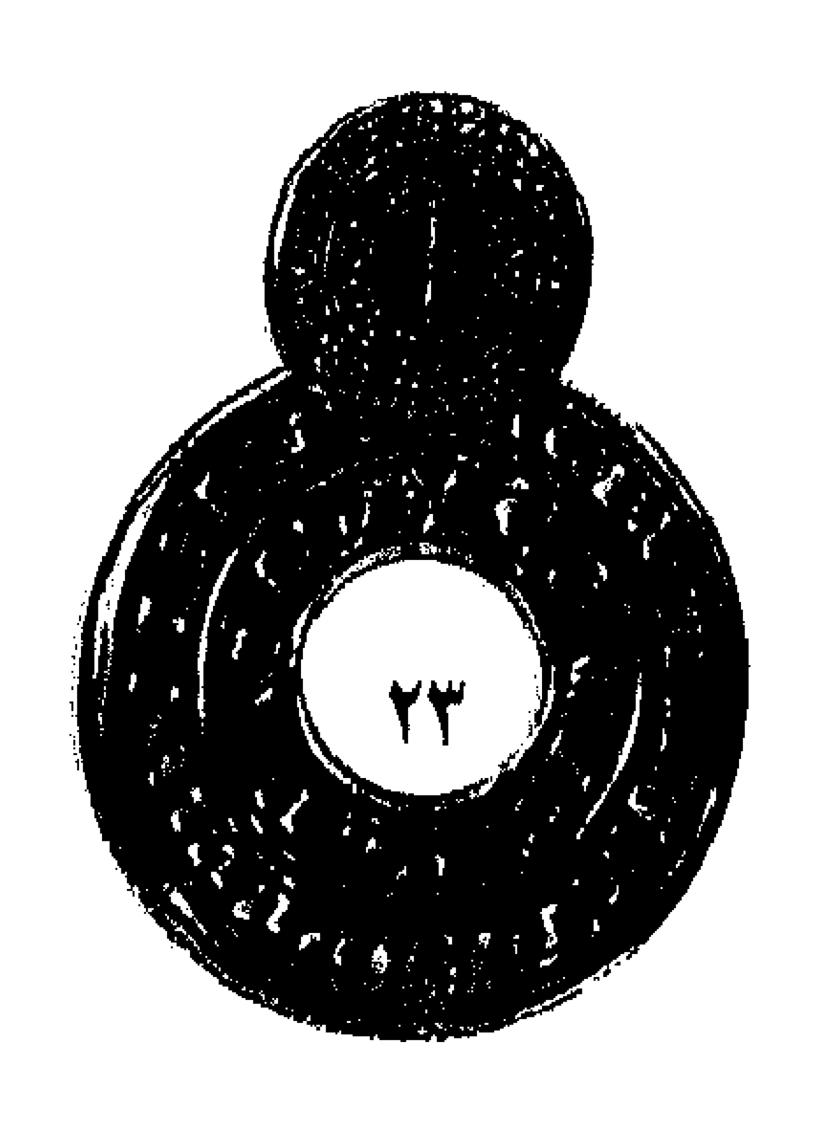
ولقد ظل بورجيا متربعا على العرش البابوى حتى ناهز الثانية والسبعين من العمر، ورغم تقدمه فى السن، ظل موفور الصحة والعافية، كما يشهد بذلك سفير البندقية فى روما - جستنيان - الذى قال بأن البابا كان يبدو كشاب فى سن الثلاثين فقط.

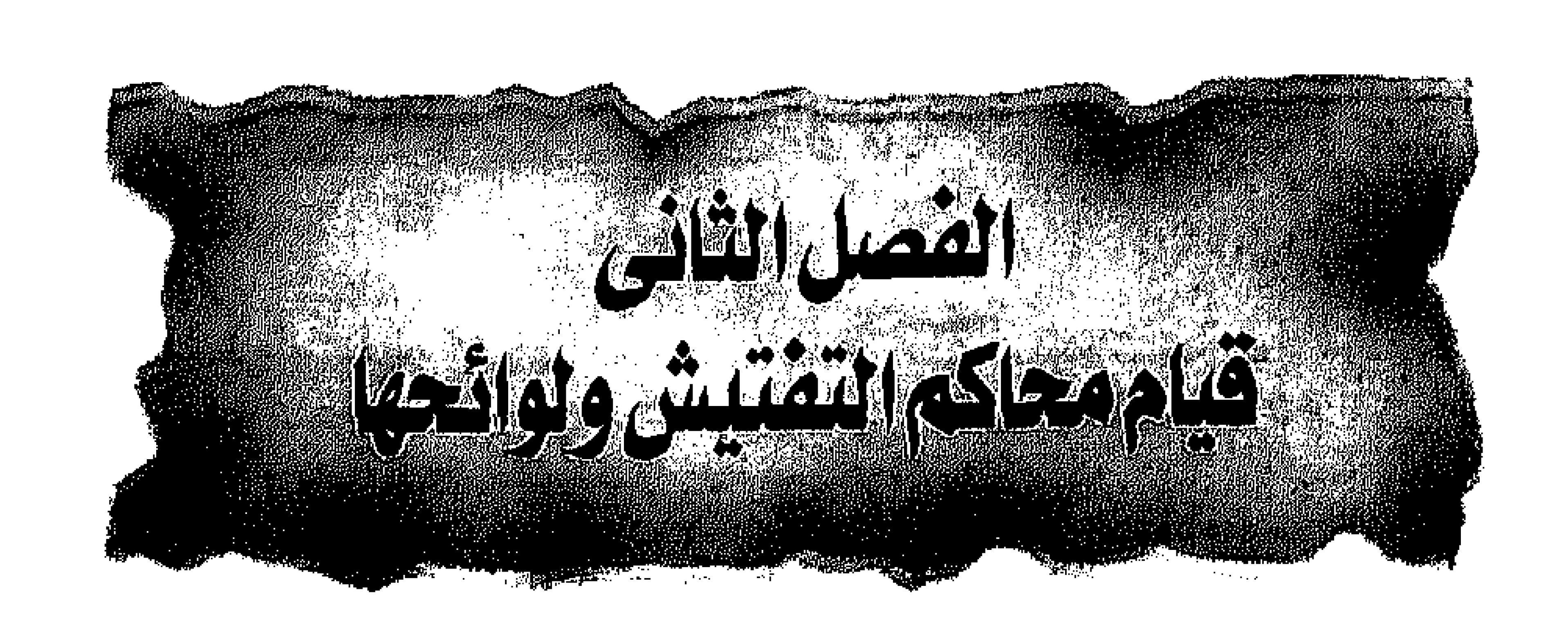
ويروى أن إسكندر السادس (بورجيا) قد أعد هو وابنه قيصر بورجيا السم للتخلص من الكاردينال هادريان، ولكن القدر تدخل إذ شرب الكاردينال - خطأ- من الكأس السليم، وتجرع البابا وابنه من الكئوس المسمومة، فكانت نهاية البابا. وإسكندر السادس بعد هذا هو المسئول عن ذبح المصلح الفلورنسى ساڤونا رولا، كما سيأتى فيما بعد.

على هذه الشاكلة الذميمة تردى الڤاتيكان وسيده وكرادلته؛ ولذلك فإن صيحة الإصلاح أخذت تعلو فى عنان السماء تطالب بالتغيير وتبشر بفجر جديد، ولم تفلح أساليب الإرهاب والقمع فى ظل محاكم التفتيش فى تعطيل مسار التاريخ والانعتاق من أغلال الكنيسة الرومانية.



البابا إسكندر السادس (بورجيا)





الفصل الثانى
قيام محاكم التفتيش ولوائحها

محاكم التـفتيش (Inquisition) اصطلاح مشتق من كلـمة لاتينية هى (Inquirere) بمعنى «يبحث - يتقصى - يفتش».

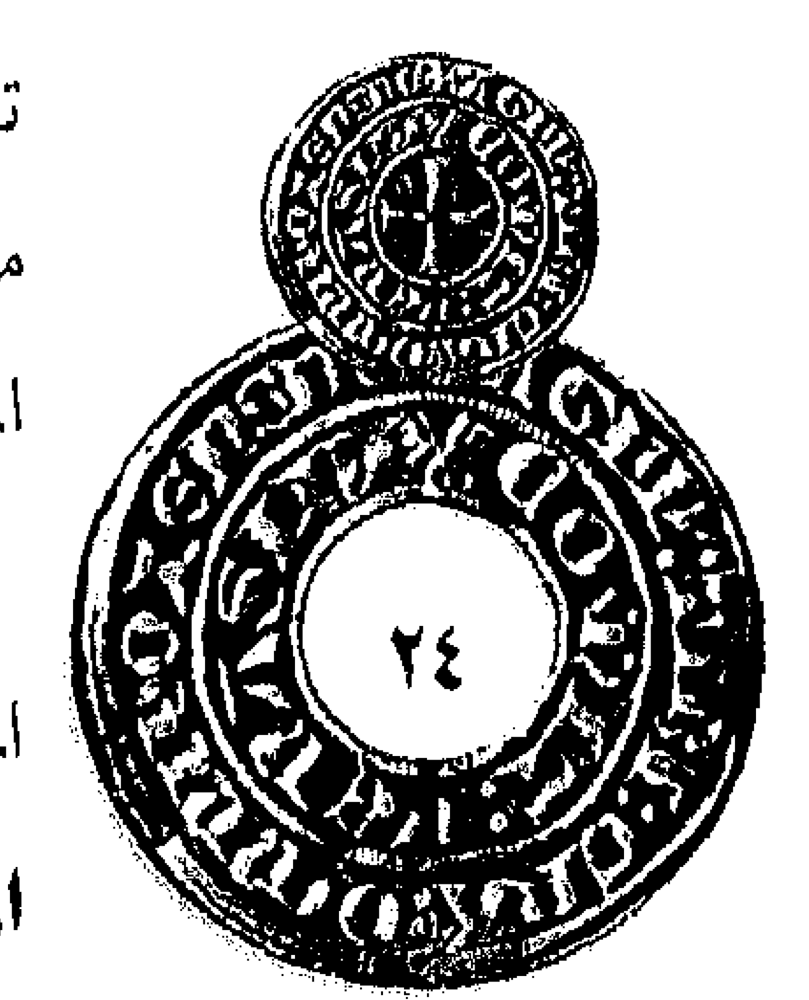
ولقد أسسها البابا لوسيوس الثالث ثم إنوسنت الثالث، وخاصة فى المجمع اللاتيرانى الرابع سنة ١٢١٥، واستمرت فى قمع الفكر المخالف بالحديد والنار والإرهاب عدة قرون.

وفى إسبانيا بدأت محاكم التفتيش نشاطها سنة ١٤٧٨ بإيعاز من الملكين فردناند وإيزابيللا، وبتأييد من البابا سكستوس الرابع.

وفى البداية كـان اللاهوتيون يرون محـاربة الفكر الدينى المخالف- أو إن شئت الهـرطقة - بأسلوب المجادلة والمحـاجة بدلا من اللجوء إلى الـعنف: من قبيل ذلك دعـوة القديس برنارد دى كليرڤوه (القرن ١٢)، بأن السلاح لن يجدى، وعلينا بسلاح الجدل»، ولقد أقر نفس المنهج الأب وازو Wazon أسقف لييج، كـما أن المجامع الكنسية التى انعـقدت فى ريمز (سنة ١٠٤٩)، وفى



الكاتدرائية التى تُوِّج فيها الإمبراطور فردريك باربروسا - صقلية



تولوز (سنة ١٠٥٦) قررت إدانة المخالفين للعقيدة الكاثوليكية بلعنة الحرمان من جسد الكنيسة فقط، وذلك لوقاية قطيع المؤمنين من التلوث بالآراء المهرطقة.

وقد استبعد البابا إسكندر الثانى فكرة سفك دم أى فرد بسبب آرائه المخالفة؛ لأن «سفك الدم أمر لا تقره قوانين السماء ولا القوانين الوضعية».

الملك لويس السابع

إلا أنه فى سنة ١١٦٢ كتب الملك الفرنسى لويس السابع إلى البابا إسكندر الثالث بأن المانويين فى فلاندرز باتوا يستوجبون اهتماما خاصا، محذرا السيد البابا «لأن فكر المانوية كالوباء، يجب استئصاله قبل أن يستشرى شره، وإنى أهيب بك - إشفاقا على العقيدة والإيمان - أن تخولوا صلاحيات كاملة لكبير أساقفة ريمز لمعالجة الموقف فى حزم بالغ لتحطيم من يتمردون ضد الله - فى قسوة بالغة، وإن تهاونتم فى الأمر، فإن هذا سوف يؤدى إلى ضرر بالغ يلحق بالكنيسة، قد لا تحمد عواقبه». وبالفعل تحرك البابا إسكندر الثالث، وعقد مجمعا فى تور سنة ١١٦٣ برئاسته شخصيا، وقرر المجتمعون تكليف الأساقفة والأمراء الإقطاعيين باتخاذ أقصى درجات الحيطة والشدة فى مطاردة المانويين الذين انتشروا كالأخطبوط فى أراضى غسقونيا وأصقاع أخرى فى الغرب.

المجامع البابوية:

وعندما انعقد مجمع اللاتيران سنة ١١٧٩ برئاسة البابا إسكندر الثالث، طلب إلى السلطات العلمانية معاقبة المانويين والبولصيين والألبجنزيين؛ لأنهم باتوا يروجون لآرائهم المهرطقة جهارا، كما أصدر المجمع ضد هذه الجماعات قرارا باللعنة (Anatherma)، واستنفر المجمع السلطات العلمانية لحمل السلاح وشن حرب «صليبية» ضد شرورهم.

وفى مجمع ڤيرونا المنعقد سنة ١١٨٤ برئاسة البابا لوسيوس الثالث، وحضور كبار الأساقفة والأساقفة، وحضور الإمبراطور الرومانى المقدس فردريك بربروسا، تقرر مطاردة «الأطهار والمتضعين» وفقراء ليون من علمانيين وإكليروس على حد سواء، على أن يسلم المهرطقون للسلطات العلمانية للقصاص، وكلف كبار رجال الدين بالتفتيش عن أفراد هذه الجماعات بمساعدة «العيون» للقبض عليهم، وكل من يتهاون أو يقصر فى هذا الأمر، يعرض نفسه لقرار الحرمان لذاته، والقطع لأملاكه.

على أنه ابتداء من سنة ١١٧٨، لم يقتنع البابا إسكندر الثالث بجهود الأساقفة فى أبروشياتهم فى تعقب الهراطقة، فقرر تعيين كاردينال دى سانت كريسوجونى (Cardinal de Saint Chrysogone) قاصدا رسوليا على أرض اللانج دوك (الجنوب الفرنسى)، وخوله

صلاحيات طائلة لقمع الهرطقة فى تلك الأنحاء، على أن يعاونه فى هذا الأمر جماعة من رهبان السسترشيان.

ولما جاء البابا إنوسنت الثالث خول هذه الصلاحيات (سنة ١١٩٨) إلى الآباء السسترشيان فى تولوز، بمعنى أنه عينهم قاصدين رسوليين من قبل الكرسى البابوى.

وفى سنة ١٢٣١ قرر البابا جريجورى التاسع تعيين الرهبان الدومنيكان لمحاربة الهرطقة «لأنهم عمال جادون... على أن هذا لا يعنى أننا نحرم الأساقفة من حق التفتيش عن الهراطقة، ولكننا نعلم أن الأعباء الأخرى الملقاة على عواتقهم لا تسمح لهم حتى بالتنفس».

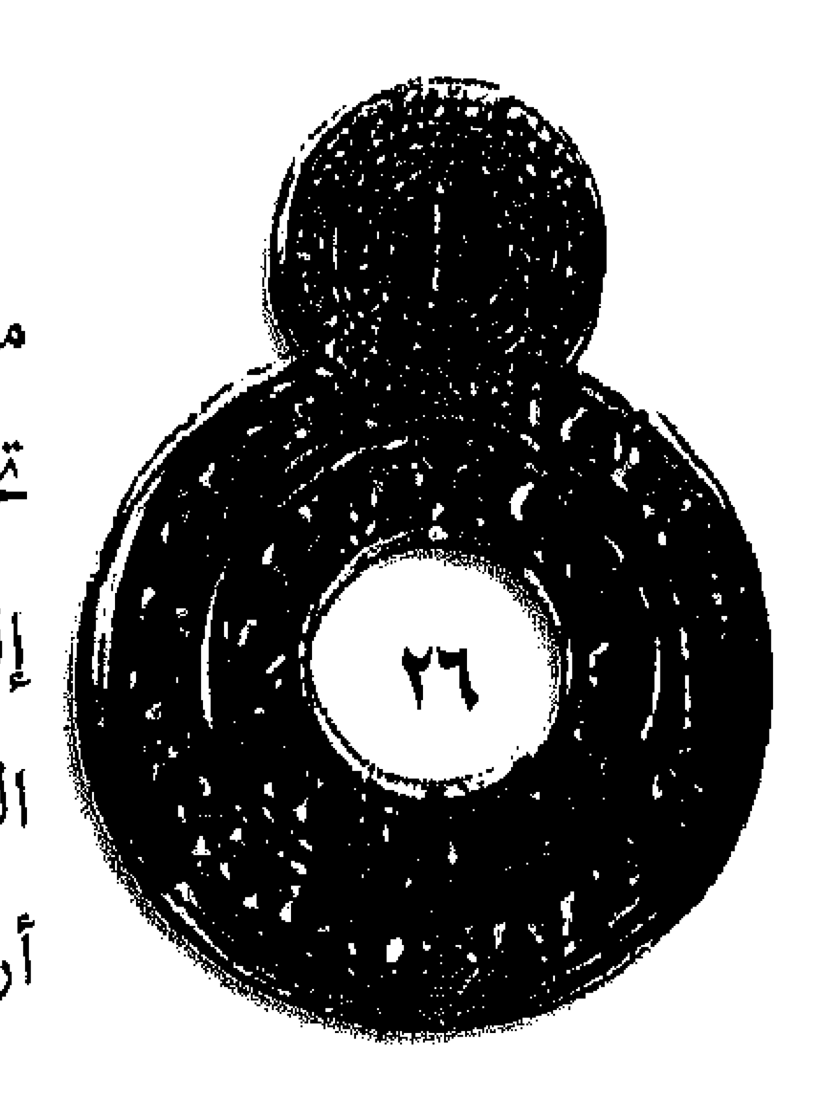
إن هذا التطور يشير فى وضوح إلى أن البابوية قد وضعت محاكم التفتيش كلية تحت سيطرتها المباشرة، دون تدخل من الأساقفة المحليين، مستعينة فى هذا بأداتها الطيعة من رهبان الفرنسيسكان والدومنيكان.

الملك لويس التاسع:

وفى عهد الملك الفرنسى لويس التاسع، اهتمت والدته الملكة بلانش القشتالية بمهمة قمع الهراطقة فى فرنسا (سنة ١٢٢٨)، وأعلنت بلانش أنها سوف تتعقب الهراطقة فى كل أرجاء البلاد، بشرط أن تشير السلطات الكنسية إلى أوكارهم، وكان طبيعيا أن يتحمس ابنها لويس التاسع للمشروع، فوكل الأمر لرجل جبار هو روبرت لى بوجر (Robert le Bougre)، المفتش الكنسى العام على الشمال الفرنسى، الذى كان هرطيقا ثم استقام أمره، وأخذ يمارس أساليب القمع البشعة باسم الملكية الفرنسية والبابوية معا.

وقد تقرر - بناء على ذلك - أن تقبض السلطات الكنسية للتفتيش على المتهم وتحاكمه، وإن تمت إدانته يسلم إلى السلطات الزمنية «لإحراقه بالنار»، ثم امتدت صلاحيات المفتش العام على الشمال الفرنسى - وهو روبرت لى بوجر- سالف الذكر - لتشمل أيضا كل الأراضى الواطئة وبلاد الفلاندرز.

أما فى إيطاليا فقد كلف البابا هونوريوس الثالث سنة ١٢٢٤ أساقفة برسكيا ومودينا وريمنى بتعقب الهراطقة كل فى أبروشيته، وفى سنة ١٢٢٨ صدرت الأوامر البابوية إلى جيوفرى المندوب البابوى بتسليم الهراطقة إلى السلطات العلمانية لتنفيذ إحراقهم بالنار، كما عين البابا جريجورى التاسع (سنة ١٢٣٢) الراهب الدومنيكانى ألبريك (Alberic) مفتشا عاما على لومبارديا، وفى سنة ١٢٣٣ عين بطرس من ڤيرونا مفتشا على ميلان، ثم الراهب الدومنيكانى ألدوبرانديني (Aldobrandini) مفتشا على فلورنسا.



أما فى صـقلية، فقـد سيطر الإمبـراطور فردريك الثانى بنفـسه على محاكـم التفتيش ووضع المندوب البـابوى الموفد من قبل جريجـورى التاسع تحت نفوذ التاج الصقلى، وكان فردريك يضم أملاك وأموال من تتم إدانتهم إلى خزانتـه الملكية، وفى سنة ١٢٢٠ أصـدر فردريك قـرارا ملكيا بتـحريم الهرطقـة وعقاب الهراطقـة بحكم الموت، وقد عمم هذا القـرار على سائر أرجاء إمبراطوزيته الرومانيـة المقدسة بقرار آخر سنة ١٢٣٨، وكلف كوانراد دى مربورج للقيام بمهمة التفتيش فى ألمانيا، نيابة عنه.

وانتقل نشـاط محاكم التـفتيش من ألمانيا إلـى بوهيميا والمجـر والبلاد السـلاڤونية ثم إلى اسكنديناوة وإنجلترا، بل إن أثرها وصل أيضا إلى بيت المقدس!

أما فى إسبانيا، فقـد قرر الملك جيمس استدعاء المفتشيـن الكنسيين إلى بلاده لتطهيرها من الهراطقـة، وذلك فى رسالة بعث بهـا إلى البابا جـريجورى التاسـع فى ٢٦ مايو ١٢٣٢، وذلك بتشجيع من كاهن اعترافاته الراهب الدومنيكانى رايموند دى بنافورت.

تشكيل محكمة التفتيش:

أما تشـكيل محكمـة التفـتيش فكان على الوجـه الآتى: المفتش الكنسـى مفوض من قـبل البابوية، ومـنها يستـمد صـلاحياته فى الربط والإدانة، وهـو أشبه مـا يكون بالقاضى، كـما أن الأراضـى الـتـى يقومـون بالتفـتيش عليها تصـبح طيِّعة لكل أوامـــرهم، دون تـدخـل مـن أساقفتها أو أمرائها الإقطاعـيـين أو قضـاتها المدنيـين، والمفـتش الـكنسى هو الذى يـوجـه الاتهـام، ويحكم فى القـضـايا، ويصدر الإدانة. وأمام



محاكم التفتيش

هذه الصلاحيات العريضة، خشى الأساقفة المحليون أن تضيع هيبتهم أمام الرعايا، فهرعوا متطوعين لمعاونة محاكم التفتيش حتى تزداد قيمتهم فى نظر الناس، إلا أن مجمع فيينا المنعقد سنة ١٣١٢ تظم العلاقة بين الأساقفة ومحاكم التفتيش، فأذن للأساقفة كل فى أبروشيته بإقامة سجون خاصة لإيداع من تثبت إدانتهم من الهراطقة.

أما تكوين محكمة التفتيش فكان على الوجه الآتى: المفتش العام هو رئيس المحكمة والفيصل فى نظر القضايا، ويعاونه نفر من المتخصصين هم: نائب المفتش، والمسجل القانونى، والمستشار القانونى، والحليف والمحلفون.

يعرف المسجل الشرعى باسم «نوتارى» (Notarius)، ويتم اختياره بالتفويض من روما، ومهمته استدعاء المتهمين للمثول أمام المحكمة، وكذلك استدعاء الشهود، والإشراف على تدوين السجلات الأصلية لوقائع القضية ونسخها، كما أنه يقوم بتوجيه بعض الأسئلة للمتهمين، ولئن تعذر حضور المفتش حل المسجل مكانه فى رئاسة الجلسة.

أما الحليف (Socius) فهو رجل دين - غالبا ما يكون من أبناء الدومنيكان أو الفرنسيسكان- يختاره المفتش العام ليعاونه فى حيثيات التفتيش جميعا، وهو يسكن معه رفيقا، ويقدم له النصح، ويدبر له شئون حياته الخاصة، ويصحبه أيضا إلى روما لإنجاز الأعمال فى البلاط البابوى.

أما المحلفون (Jurati) فهم نفر مختار من رجال الدين والعلمانيين، للاستفادة بآرائهم ولاستكمال ما قد ينقص المحكمة من معلومات.

وتستعين المحكمة أيضا بعدد من الضباط (Servientes) وحاملى الرسائل (nuntii) والأدلاء (المخبرين) (exploratores) والسجانين (Carcerarii)، ويلعب الأدلاء دورا خطيرا فى مهام المحكمة، فهم قد يسافرون متنكرين إلى خارج البلاد لتعقب الهراطقة الهاربين، وقد ينضمون إلى اجتماعات الفئات المهرطقة للتحقق من تعاليمهم وطقوسهم، ثم يعودون إلى المحكمة للإدلاء بآرائهم ضد المتهمين، وقد برز فى هذا الخصوص شخص يدعى أرنود سيكريت (Arnaud Si-cret) الذى كان فى خدمة محكمة باميه (Pamiers) وسافر متنكرا إلى إسبانيا، يتعقب نفرا من «الأطهار» اللاجئين هناك. إلى جانب هذا كانت المحكمة تستعين بنفر من المشرفين على السجون الخاصة بإيداع الهراطقة وعرفوا باسم «مشرفى السجون» (Custos - muri)، ويعاونهم عدد من المعاونين لمراقبة المساجين وعرفوا باسم «السجانين» (Carcerarii) وقد اعتاد هؤلاء الأخيرون على اصطحاب زوجاتهم معهم إلى مقام خاص لهم فى السجن، نظرا لطول مدة إشرافهم على

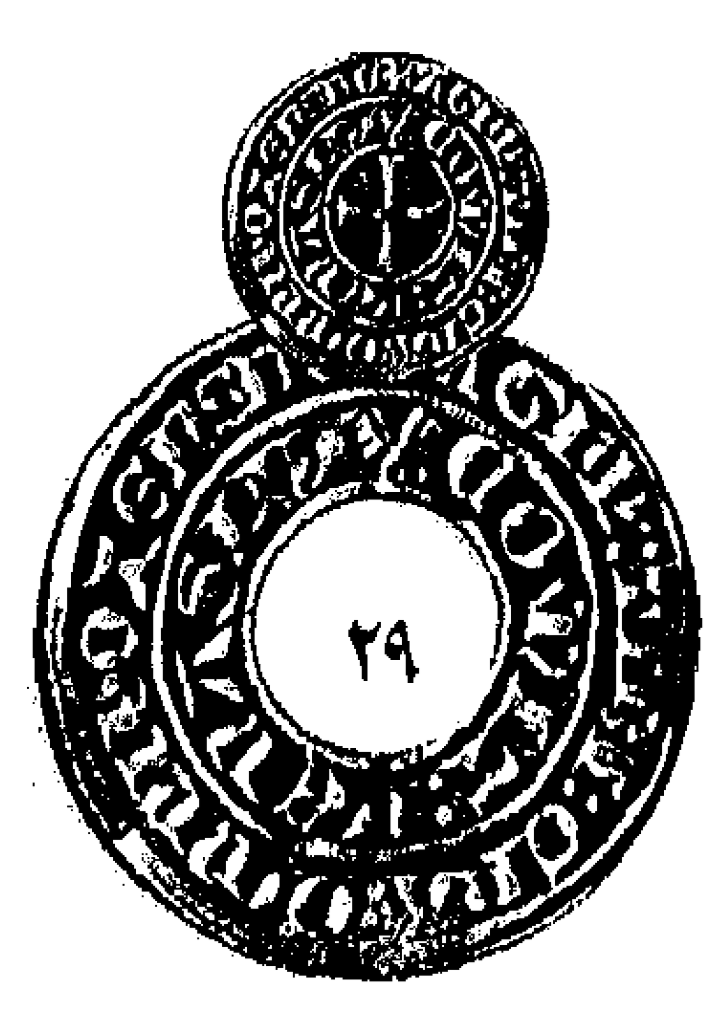
المساجين، وقد عرف عن هذه الفئة الأخيرة التراخى فى الحراسة وتقبل الرشوة.

وقد بلغ عدد أفراد المحكمة التفتيشية ١٢ تقريبا، ولكن إصدار الحكم كان وقفا على المفتش فقط.

بعد هذا العرض لتشكيل محاكم التفتيش يحسن بنا أن نتقصى رأى هذه المحاكم فى مختلف الفرق «المهرطقة» التى عرضنا لها فى الفصل السابق: تروى مصادر وسجلات محاكم التفتيش أنه فى سنة ١١٦٧ عقد «المانويون» (الأطهار) مجمعا فى سانت فيلكس دى كاراماان (Saint - Felix de Caraman) على مقربة من بلدة تولوز، تحت إمرة زعيمهم نيكيتا، وبعدها أقيم للأطهار «أساقفة» من بين «الكاملين» للإشراف على جماعاتهم فى أنحاء غرب أوربا، ومن أشهر هؤلاء: مارك، على كنائس لومبارديا وتوسكانيا وترڤيز، ثم روبرت دى سبيرونى (de Sperone) لشمال أوربا، ثم سيكارد كيليريه (Sicard Cellerier) على مدينة ألبى (Albi)، ثم برنارد ريموند على كنائس تولوز، ثم جيرارد ميرسييه (Mercier) على كنائس كركاسون، ثم ريموند كساليه (Casalis) على كنائس ڤال داران (Val d' Aran) فى ولاية كومين.

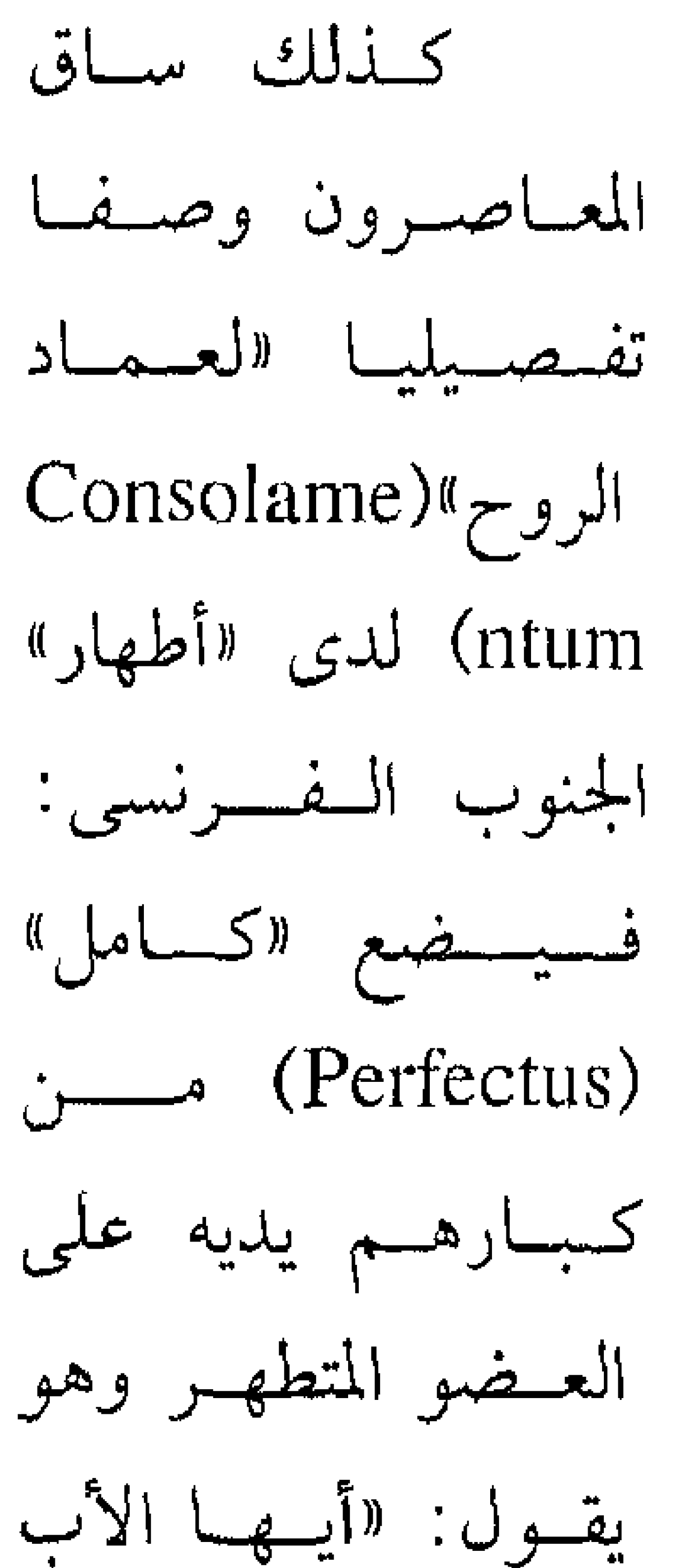
ويلاحظ أن نفرا قليلا من هؤلاء «الأطهار» قد تنكروا فيما بعد للحركة وانقلبوا عليها وعين بعضهم فى منصب المفتش العام لإرهاب الجماعة، ولعل البابوية فى هذا كانت فى غاية الدهاء، إذ إن مثل هؤلاء «المرتدين» كانوا على علم بخفايا جماعاتهم وبممارساتهم الخفية قبل العلنية، ومن هذا الصنف كان بوناكورسوس (Bonacursus) الذى ذهب فى اضطهاده لإخوانه السابقين أبعد شوط، فهو فى إحدى المناسبات يصرخ مستنجدا بالبابوية فيقول: «ألا تشاهدون المدن والمراكز والقلاع؟ لقد امتلأت البقاع كلها بهؤلاء الأنبياء الكاذبين، ووجب اقتلاع هذا العشب الخبيث من كنيسة المسيح وعروسه قبل أن يمتد دنسهم ليلوث طهرها».

وتروى نفس السجلات أن «الأطهار» (المانويين) يمقتون الزواج، فهنالك تلك الفتاة من طبقة «الكاملين» فى تولوز تحدث زوجة تاجر للأخشاب من صديقاتها -وكانت حاملا- فتقول لها: «إنى أطلب من الله لك أن يريحك من الشيطان الذى تحملينه بين أحشائك». كما وأن المرأة التى تموت وهى حامل، يصبح جرمها بشعا فى نظرهم - أمام السماء- ولا خلاص لها لأنها تموت وهى تحمل إبليسا صغيرا فى بطنها، والزواج عند الأطهار لا يعدو أن يكون «بغاء مقننا»، ويزعم رجال محاكم التفتيش أن «الأطهار» يمارسون حرية الجنس بدلا من الزواج، والرأى عندهم أن الزواج يقنن ارتكاب الإثم والمعصية فى كل حين وبدون خوف من عقاب.





محاكم التفتيش تقبض على النساء الأطهار والرجال لمعاقبتهم

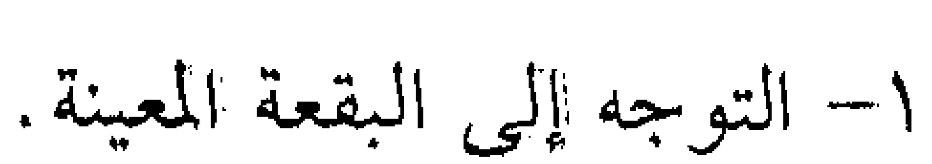


كذلك ساق المعاصرون وصفا تفصيليا «لعماد الروح» (Consolamentum) لدى «أطهار» الجنوب الفرنسى: فيضع «كامل» (Perfectus) من كبارهم يديه على العضو المتطهر وهو يقول: «أيها الأب القدوس، تقبل خادمك الذى بين يديك فى بيت عدالتك، وأنعم عليه بنعمة من روحك القدوس الطاهر»، ويرد العضو قائلا: «وإنى أهب نفسى كليَّة للرب والإنجيل، ولن أكذب ولن أحلف ولن ألمس ابنة حواء ولن أقتل حيوانا، ولسوف أعاف اللحم والبيض، وأقتات فقط على النبات والسمك، ولن أرحل على طريق دون أخ رفيق، ولئن وقعت فى شرك العدو، وفرق بينى وبين رفيقى؛ فعهد علىّ أن أمتنع عن الطعام، ولن أحنث بعهد الأخوة ولن أتنكر لمذهبى، ولن أنام إلا ملتحفا، أما الموت فحاشى لى أن أخشاه حتى فى وجه المحاكم».

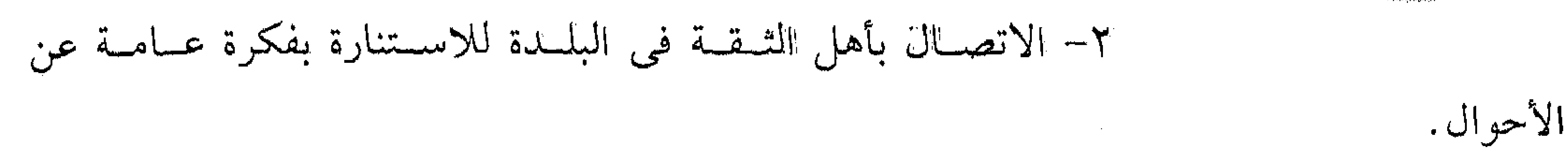
وتلح سجلات محاكم التفتيش على اتهام جماعات «الأطهار» بأنها كانت تمارس الفجور فى اجتماعاتهم علنا، والحق أنه ليس هنالك دليل قاطع يبرر عمومية هذا الاتهام، ولقد ورد على لسان واحد منهم أثناء محاكمته فى بلدة دوفينى (Dauphine) سنة ١٤٨٨ الاعتراف الآتى: «نحن قوم مؤمنون، وخدام للملك ومسيحيون حقيقيون، لسنا نريد أبدا أن نقلد هؤلاء الذين وطأوا بأقدامهم على الأناجيل، أو أولئك الذين نبذوا تراث الرسوليين. . إنما نحن ننشد حياة تقوم على الزهد والطهر كما كانت الحال فى الأيام الباكرة للإيمان القويم».

سير المحاكمة:

أما عن سير المحاكمة، فإن هذا يتضح من رسالة موجهة من البابا جريجورى التاسع إلى المفتش كونراد دى مربورج فى ١١ أكتوبر ١٢٣١، وهى تنص على الخطوات التالية:



١- التوجه إلى البقعة المعينة.



٢- الاتصال بأهل الثقة فى البلدة للاستنارة بفكرة عامة عن الأحوال.

٣- القبض على المشكوك فى أمرهم.

٤- الاستعانة بالشهود.

٥- التثبت من الإدانة.

٦- الدفاع.

٧- السجن.

٨- التعذيب .

٩- الحكم العلنى، مقرونا بالوعظ والإرشاد لأهل البلدة.

متهم أمام إحدى محاكم التفتيش

وكانت كل خطوة من هذه الخطوات تصطدم - بالضرورة - بردود فعل عنيفة من جانب المتهمين، ففى ٢٨ مايو ١٢٤٢ تم اغتيال المفتش وليم أرنولت ورفيقه الفرنسيسكانى المدعو ستيفن دى سانت تيبرى عند قلعة أڤينونيه (Avignonet) كما هلك معهما الكتبة والمسجل القانونى أيضا.

وكان من بين مهام بعثة محكمة التفتيش عندما تحل ببلدة ما، أن يبدأ المفتش العام نشاطه بإلقاء عظة عامة على مسامع أهل البلدة، يدعو فيها من تساوره أفكار مهرطقة إلى المبادرة بالاعتراف والندم طواعية أمام المحكمة، ويمهل هؤلاء شهرا على أكثر تقدير، وقد عرفت هذه المهلة باسم «مهلة الرحمة والغفران» (tempus gratiae sive indulgentiiae).

ومن يتقدم - طواعية للاعتراف، يحكم عليه بحكم مخفف من الصيام وإعلان التوبة، ويجب ملاحظة أن هذا ينطبق فقط على من يعتنقون آراء مهرطقة غير معلن عنها جهارا، أما من يتقدم إلى المحكمة ممن عرفوا بالجهر بالهرطقة، فإنه بدلا من الحكم عليهم بالموت، يخفف الحكم إلى السجن المؤبد.

على أنه يطلب من الاثنين أن يردد كل منهما قانون الإيمان الكاثوليكى أمام المفتش العام، ضمانا لعدم الارتداد.

أما المكابرون الذين لا يتقدمون للاعتراف أمام المحكمة، فإنهم يستدعون للمثول بإخطار شفاهى أو مكتوب، وذلك عن طريق رجل الدين المنوط بالمنطقة التى يقطن فيها المتهم بالهرطقة، وإذا تهرب المستدعى أو هرب، تتعقبه أجهزة المحكمة أينما وجد حتى يقبض عليه، وأحيانا كان المفتش (القاضى الكنسى) نفسه وفى معيته رتل من حراسه يقومون بتعقب الهاربين للقبض عليهم، وإن لزم الأمر فله أن يستعين بالجند والفرسان، ومن يتقاعس من السلطات المحلية فى مد يد العون للمفتش، يعرض نفسه لقرار الحرمان الكنسى.

بعد القبض على المتهم، عليه أن يواجه المحاكمة بأن يؤدى قسما على الأناجيل الأربعة بأن «ينطق بالحق عن نفسه وعن غيره من الأحياء ومن الأموات على حد سواء».

ولكل فئة مهرطقة أسئلة خاصة معدة مسبقا عند المفتش، تتناسب وطبيعة فكر هذه الفئة أو تلك بالذات، فهنالك أسئلة خاصة بالمانويين، وأخرى لأتباع والدو، وثالثة «لإخوة الروح الحرة»، وغيرها «لأشباه الرسل»، وهكذا.

وعلى المفتش أن يمكر ويراوغ مع المتهمين حتى يحصل منهم على ما يريد من اعتراف، فهو تارة يخاطبهم بأسلوب معسول ويلوح لهم بوعد من الغفران والصفح، وقد يأمر لهم بطعام فاخر وقت احتجازهم للتحقيق، ولقد نجحت أساليب محاكم التفتيش فى جر الأب لأن يشهد



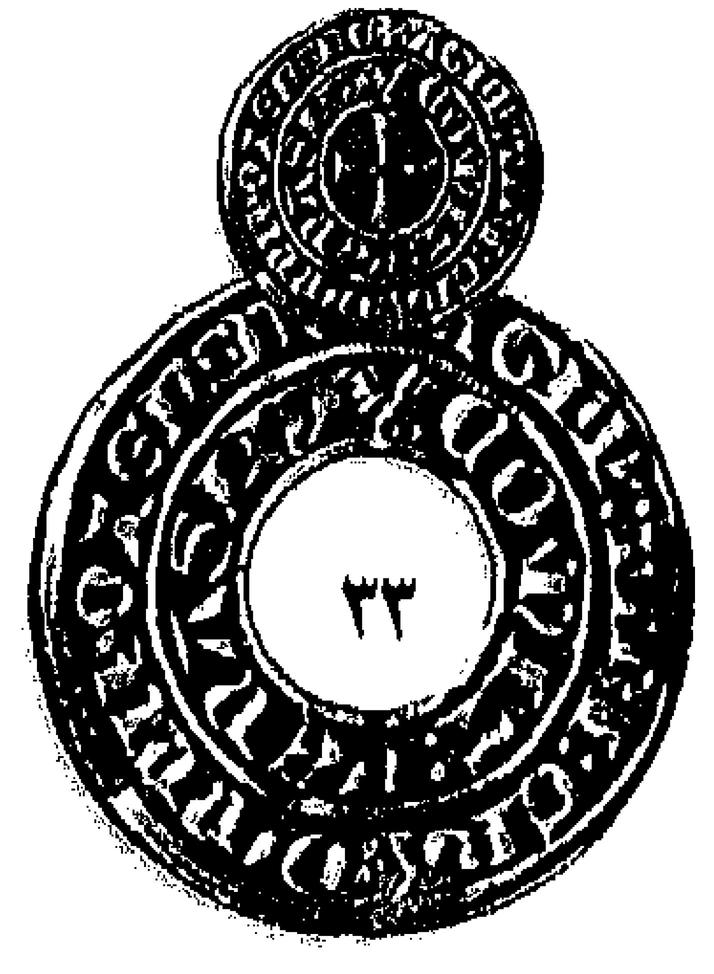
على ابنه، والابن على أبويه، والزوج ضد زوجتـه، والزوجة على رجلها، ولدينا رسالة من البابا جريجورى التاسع، يهنئ فيها المفتش العام روبرت لى بوجر فى شـمال فرنسا، عـلى نجاحه منقطع النظيـر فى إرهاب الناس حتى شهد الكثيرون ضد ذويهم من لحمهم ودمهم.

والسن المقبـولة للإدلاء بالشهادة أمـام المحكمة هى ١٤ عاما بالنسـبة للذكور، و١٢ بالنسبة للإناث، وقد شهدت محاكم التفتيش أطفالا فى سن العاشـرة يدلون بالشهادة ضـد آبائهم وأخواتهم، ويكفى للإدانة ضـد المتهم شهادة شاهدين أو ثلاثة على أكثر تقدير.

وفى أغلب الأحيان، لا يواجه المتـهم بالشهود ضده (شهود الإثبات)، حـفاظا على سلامة صاحب الشهادة.

أما عن الدفاع عن المتهم الماثل أمام محكمة التفتـيش، فإن أمره يثير الأسى: إذ كانت مهمة الدفاع تنحصـر فى التثبت من صحة الاتهـامات الموجهة ضد موكـله فحسب، وإن ذلك يعنى فى بساطة أن مهمة الدفاع لا تختلف كثيرا عن مهـمة المحكمة نفسها، وبذلك يصبح الدفاع دفاعا عن المحكمة والمفتش العام بقدر ما هو دفاع عن المتهم.

وضع الهراطقة فوق الأعمدة وقذفهم لأسفل لأخذ اعترافاتهم



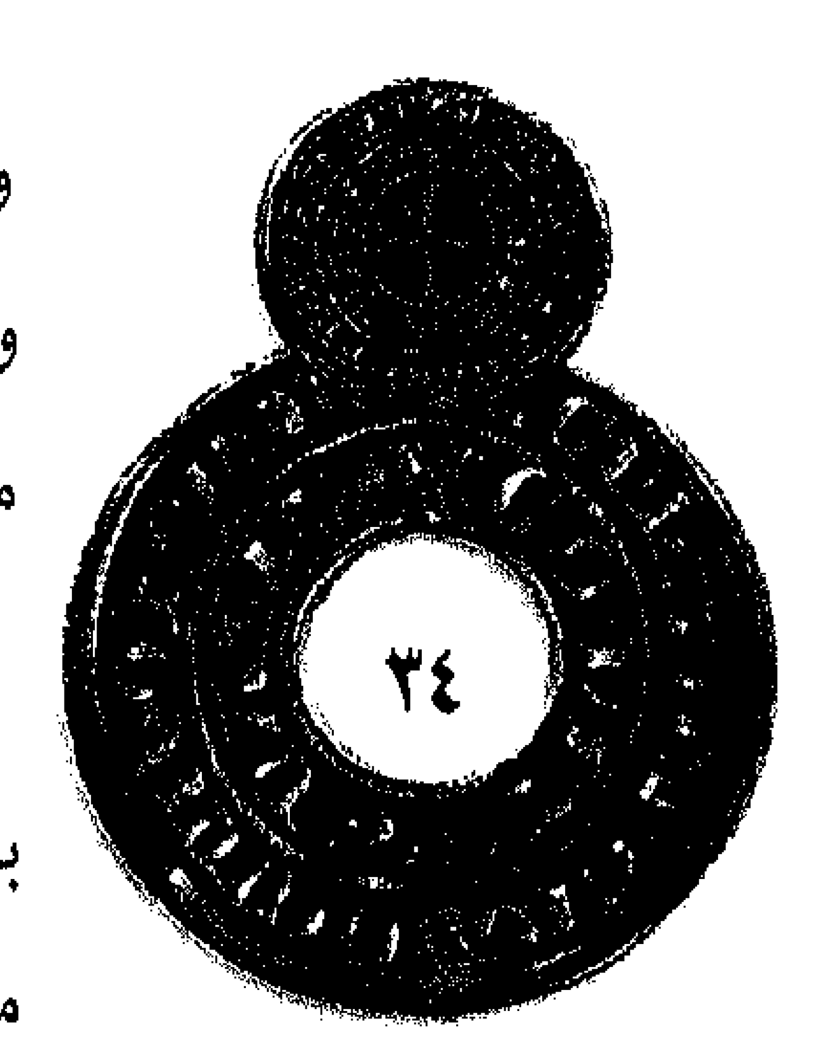
وسائل الترهيب والتعذيب

ولمحكمة التفتيش الحق كل الحق فى أن تستخدم أساليب الإرهاب والتعذيب (vexatio) لكى تحصل من المتهم على الاعتراف بإثمه: من قبيل ذلك احتجاز المتهم فى سجن خشن ضيق، حيث يقيد بالأغلال ويحرم من الطعام والشراب والنوم، فى زنزانات خانقة لا تكاد تسمح حجومها لمجرد الوقوف على القدمين، وعرفت هذه باسم «الزنزانات الخشنة» (Carcer durus).

وقد جرى المثل بين رجالات محاكم التفتيش بأن «البلاء يفتح الأفواه المغلقة للاعتراف».

وإن فشلت السبل السابقة، تلجأ المحكمة إلى درجات أشد وأقسى من صنوف التعذيب، ولقد أقر البابا إنوسنت الرابع أسلوب التعذيب فى مرسوم صدر فى ١٥ مايو ١٢٥٢، وصدق على القرار كل من البابا إسكندر الرابع (فى ٣٠ نوفمبر ١٢٥٩)، والبابا كلمنت الرابع (فى ٤ نوفمبر ١٢٦٥). وقد تعددت أساليب التعذيب: فمنها تعليق المتهم من يديه ورجليه على الحائط (Chevalet)، ومنها دفع المتهم إلى مكان عال ثم الرمى به ليهوى على الأرض (Estropade)، ومنها أيضا الكى بشعلة نار ملتهبة، وأيضا طرح المتهم على منصة فى وضع مثلث مع ربطه بحبل يلتف عقدا حول جميع أعضاء جسده، وينتهى الحبل المعقود برافعة تلم كل الشمل، فإن لمست الرافعة رضرضت أعضاء الجسد الموثق، وقد تمزقها تماما؛ وقد يوثق المتهم وساعداه مقيدان من

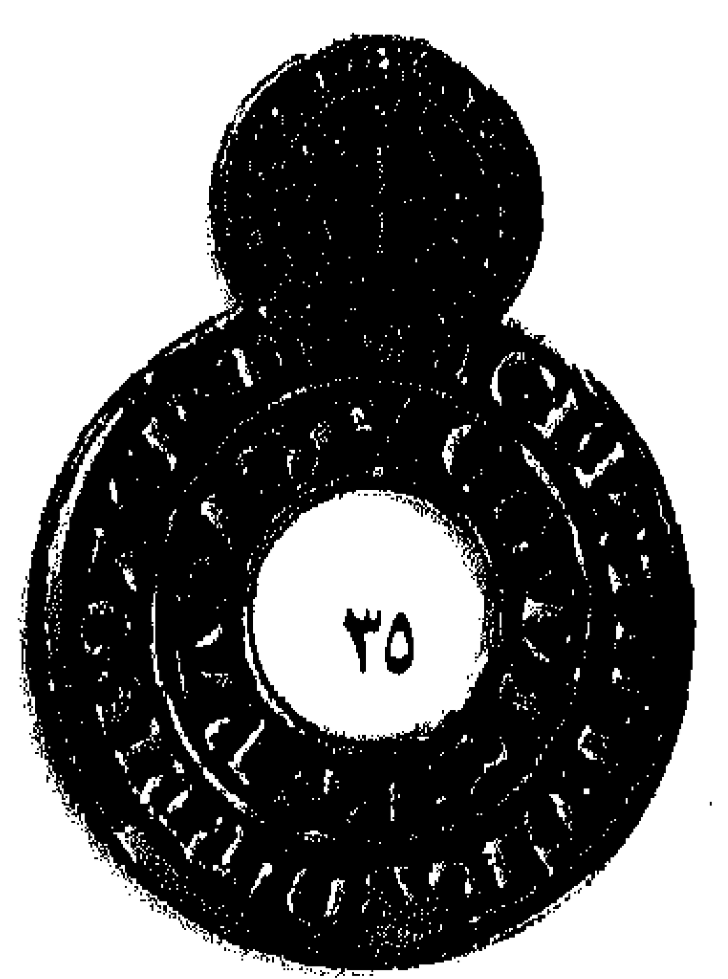
مشاهد تعذيب الهراطقة وأتباعهم فى سجون الكنيسة



وراء ظهـره ثم يرفع إلى ربوة عـالية، ومـنها يركل ليـسـقط على الأرض، وأحيـانا كانت تربط الأثقال فى قـدمى المعذب الموثوق حتى يكون سـقوطه مروعا ومرديا.

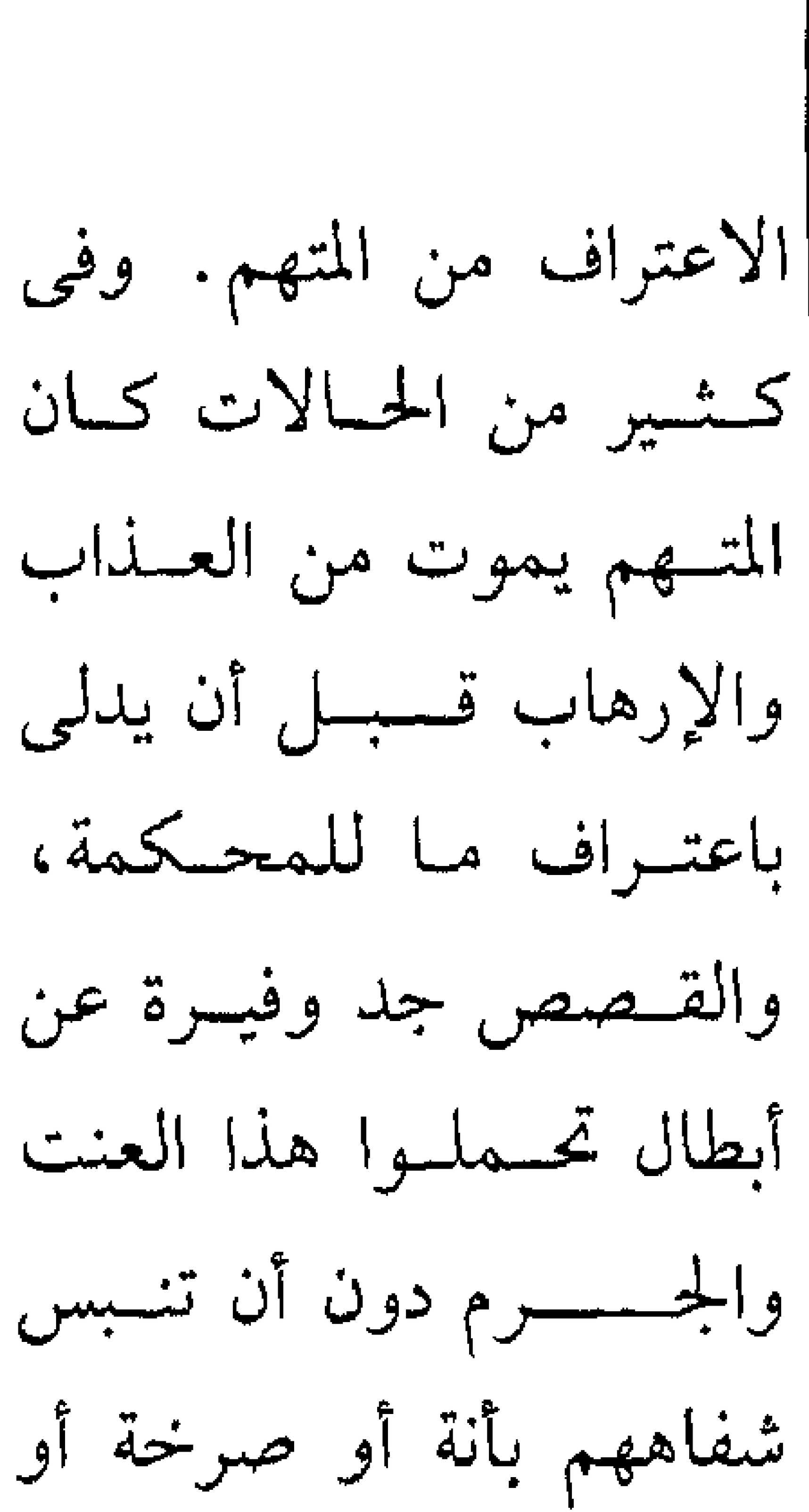
وعرف من وسائل التعذيب أيضا تعريض قدمى المتهم - بعد أن تطليا بالشحم- إلى نار ملتهبة، وبعد جـرعة من هذا المس بنار جهنم يسدل ساتر من الحـديد لحجـز اللهب عن قدمى المـعذب، وهنا يظهـر المفتش لانتـزاع

لوحة للفنان «تنتريتو» فى عصر النهضة تصور قذف الهراطقة من أعلى





تعذيب الهراطقة على العجلة لشده وحرق أقدامه بالنار لأخذ اعترافه



الاعتراف من المتهم. وفى كثير من الحالات كان المتهم يموت من العذاب والإرهاب قبل أن يدلى باعتراف ما للمحكمة، والقصص جد وفيرة عن أبطال تحملوا هذا العنت والجرم دون أن تنبس شفاههم بأنة أو صرخة أو حتى مجرد اعتراف.

والغريب فى الأمر بعد هذا كله، أن المحكمة تسجل فى سجلاتها أن «المتهم أدلى باعترافاته طواعية ودون تعذيب على الإطلاق».

بعد هذه الإجراءات تصدر المحكمة حكمها فى مكان عام من البلدة بفم المفتش، وكانت أغلب الأحكام بالموت حرقا، وأقلها كان بالسجن المؤبد، وقد عرف عن بعض الحالات أن فرض على أصحابها ارتداء زى خاص وقت النطق بالحكم، فنحن نعلم أن جان دارك (سنة ١٤٣١) كانت ترتدى غطاء على رأسها نقش عليه الآتى: هرطيقة عاصية وشيطانة مرتدة.

ويجب أن ننبه هنا إلى أن الكنيسة الرومانية كانت غاية فى الدهاء والمكر؛ ذلك لأنها بعد أن تصدر الحكم على المتهم تعهد به إلى السلطات العلمانية (الزمنية) لتقوم بتنفيذ الإعدام أو السجن، حتى توهم البسطاء بأنها قد غسلت يديها من دم الضحايا.

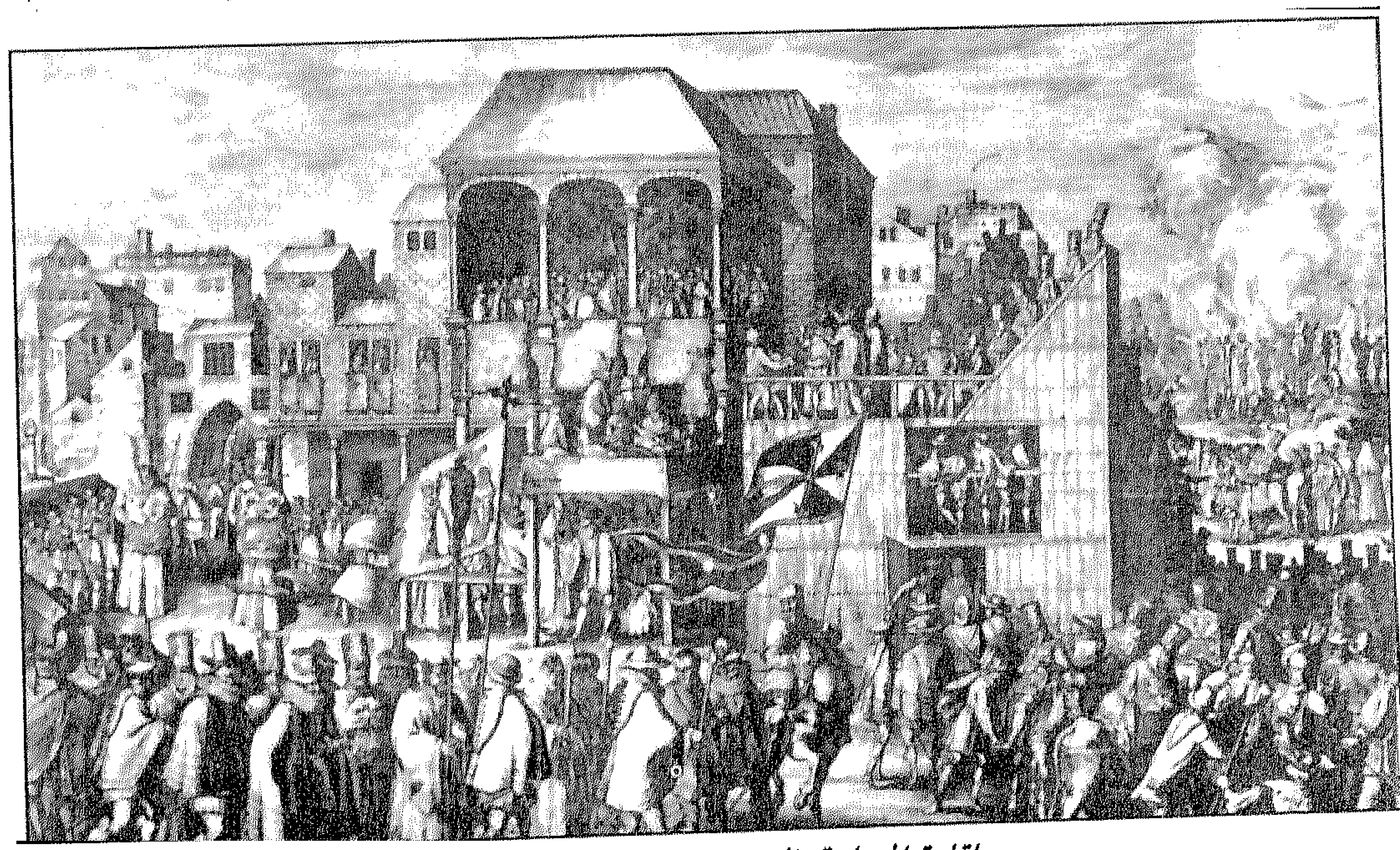
ويستند فقهاء الكنيسة على المادة الخامسة من مقننة جستنيان الخاصة بمعاملة الهراطقة وإدانتهم، والتى كانت موجهة أصلا ضد المانويين فى بلغاريا، فى إصدار الحكم بالموت ضد

«الأطهار» فى سائر أنحاء غرب أوروبا، نظرا لتشابه معتقدات الجماعتين.

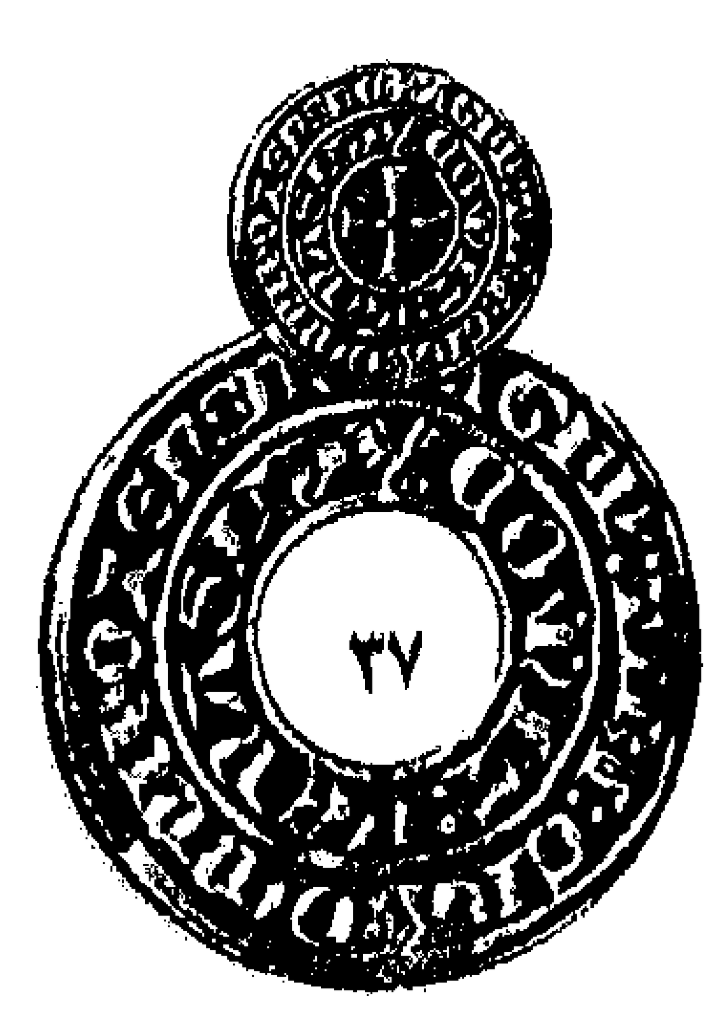
وقد أقر فقهاء القانون الكنسى مثل جراتيان، وروفينوس، ويوحنا التيوتونى عقوبة الموت للهراطقة، وسار على هدى فتواهم كبير أساقفة ريمز، وكونت فلاندرز، وفليب أغسطس ملك فرنسا، ورايموند كونت تولوز، وبطرس ملك أراغون، وذلك قبل أن يقر الإعدام رسميا فى مجمع اللاتيران المنعقد سنة ١٢١٥ على عهد البابا إنوسنت الثالث. والواقع أن إنوسنت الثالث كان واضحا ومتشددا فى موقفه، فهو يعلن الآتى: «إذا كان العيب فى الذات الملكية يستوجب القصاص بالموت، فكم بالأحرى يكون ذلك على من يتطاولون على الله من الهراطقة».

توما الأكوينى

وللقديس توما الأكوينى نظرية هامة بخصوص الهراطقة، نرى لزاما علينا أن نسوق طرفا هاما منها، لما كانت تتمتع به آراء توما الأكوينى من قبول واحترام فى سائر الدوائر الكنسية فى غرب أوربا وبنفس القدر من الاحترام فى الكيوريا والبلاط البابوى، يقول الأكوينى: «يجب النظر إلى جريمة الهرطقة من زاويتين: أولا من حيث طبيعة الجريمة فى حد ذاتها، وثانيا من حيث تهديدها لنظام الكنيسة، فى الناحية الأولى نرى أن الهرطيق يستوجب الحرمان ثم الموت أيضا؛ لأن إفساد العقيدة - وهو أمر يتصل بالروح - يمثل جرما أخطر من جريمة تزييف النقود مثلا، فإذا كان القانون يعرض مزيف المال للموت، فكم هو حرى إعدام الهراطقة، أما عن الكنيسة، فإنه



إقامة المحارق الضخمة بالمدن للهراطقة



نظرا لطبيعة رسالتـها الرحيمة وسعيها الدائب لإنقـاذ الضالين، فإنها تدعو المهرطق إلى الاعتـراف والتوبة، فإن ظل على عناده، محتقـرا نداء الغفران والرحمة، فإنها تقوم بقطعه من جسد الكنيسة العالمية (بالحرمان واللعنة) ثم تسلمه إلى السلطات العلمـانية لاستئصـال حياته من هذا العالم، فـيصبح موته حلالا».

ويستند تومـا الأكوينى فى نظريته على ما ورد فى الكتـب المقدسة: من قبيل ذلك «إن كان أحد لا يثبت فىّ، يطرح خـارجا كالغصن فيجفف ويجمعونه ويطرحونه فى النار فيحترق».

وتصر الكنيسة، وابنتها المدللة محكمة التفتيش، على فكرة «التخلى» (Relinquimus) عن من تثبت إدانته بالهرطقة، ومن ثم فهو لا يستحق الرحمة الكنسية، ويسلم إلى السلطات العلمانية ليهلك حرقا، دون أن تتحمل الكنيسة وزر موته.

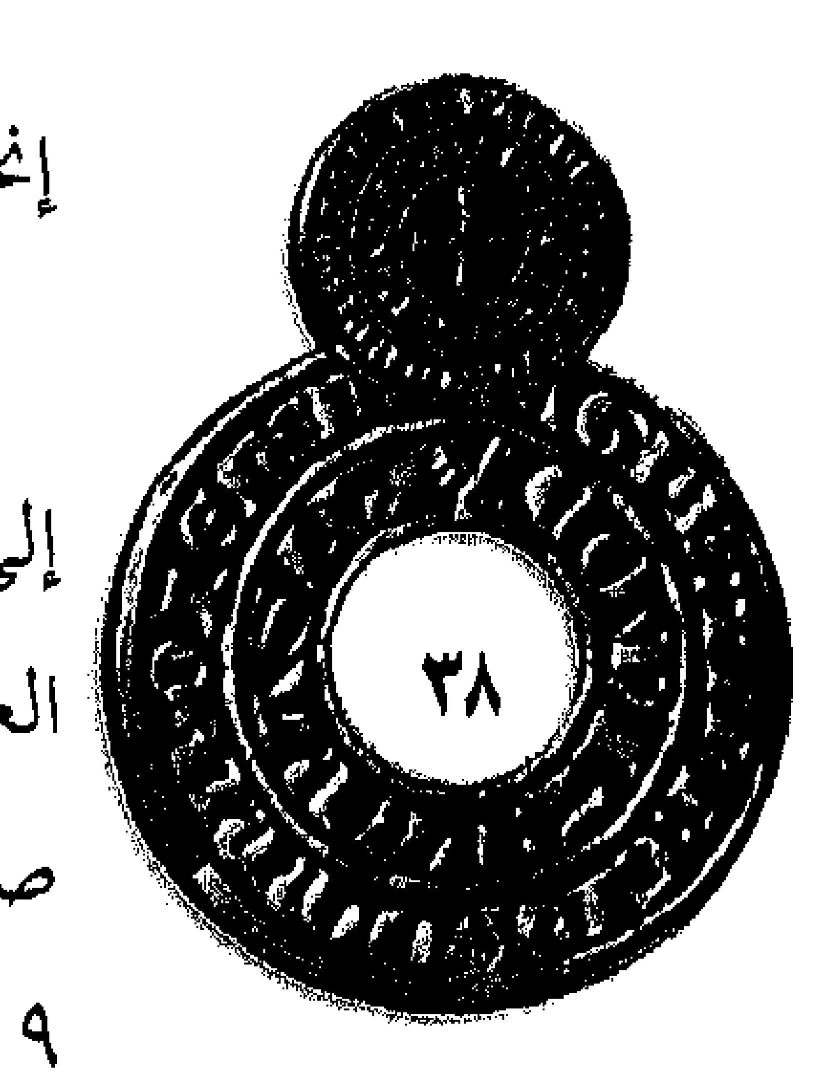
رأينا فيما سبق أن العـقوبات التى تقررها محاكم التفتيش تنحـصر فى حكمين: إما السجن المؤبد، أو الموت، أما السجن (murus) فكان لمن يعتـرف بإثمه ويعلن استعداده لـلتوبة، وعرف السجن عن ثقـات محاكم التفـتيش باسم «مهلة الرحمـة»، وهو درجتان: سجـن مشدد (durus, strictus, arctus)؛ وسجن مخفف (murus largus)، وفى حالة السجن المخفف، يمكن للأهل القيام بزيارة النزيل، ويسمح له بفسحة من الوقت فى ردهات السجن.

أما النزيل سجنا مشـددا، فيوثق بقيود فى قدميه، ويـلقى به فى زنزانة قذرة ومظلمة، وقد يرحل سرا إلى زنزانة خاصة فى أحد الأديرة، وهنالك يلقى له «بخـبز الأحزان وماء التعاسة» من خلال طاقة صغيرة، ويكتب على بوابة الزنزانة «دار الآمنين» (in pace)، وتبين إحصاءات تولوز لعامى ١٢٤٤/ ١٢٤٦ عن عدد ٥٢ حالة منها ٢٧ حالة بالسجن مدى الحياة.

وقد بلغ عدد من أدينوا على يد المفـتش العام برنارد جى فى تولوز فى المدة من ١٣٠٨ إلى ١٣٢٣ قرابة ٩٠٣ حـالة؛ أودع السجن منهم ٣٠٧ حالة، وفى بعض الأحـيان - كمـا حدث فى بلدة پاميه (Pamiers) - سمح لبعض السـجناء بالتطوع فى حملات صليبيـة بدلا من البقاء فى زنزاناتهم، وقد يسمح لبعـض المساجين بإجازة تتطلبها ظروف مرضـية شديدة، أو حالات الوضع بالنسبة للسيدات.

ويميز الهرطيق أثناء سجنه بعلامة للصليب مستديرة، وأحيانا بعلامتين على الصدر أو على جانـبيه، وقـد ينقش الحكم على السـجين على صـدر ملابسـه، ثم يساق إلـى الأسواق العـامة والطرقات وفى أيام العطلات والأعياد والآحاد، ليسخر الغوغاء منهم.

أما فكرة القيام بزيارة الحج ككفارة عن الهرطقة فـقد ظهرت متأخرة بعض الوقت؛ وكانت مزارات الحج إما إلى الأراضى المقـدسة فى فلسطين، أو فى بلدان أوربا نفسهـا: مثل كنتربرى فى



إنجلترا، أو سان جاك دى كومپستيلا فى إسبانيا وغيرهما من الأماكن.

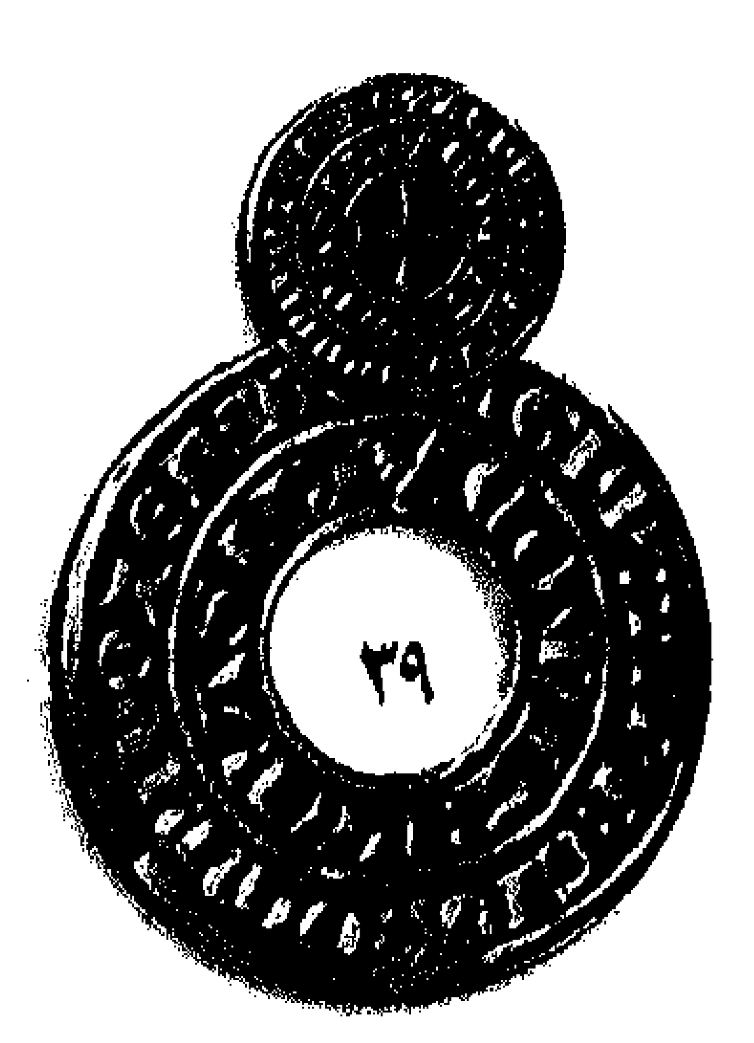
ويطلب من الشخصى أن يبعث برسالة من مقام الحج لإثبات وصوله إلى المقام المحدد، وإلى جانب الحج إلى الأماكن المقدسة، ظهرت فكرة العقاب بالجلد فى مكان عام، وقد خضع لهذا العقاب الكونت ريموند صاحب تولوز نفسه، وذلك فى كنيسة صان جيل (St. Gilles) سنة ١٢٠٩، لكى يبرهن على ندمه وتوبته.

وكان على النادم أن يقصد إلى كنيسة معينة، حافى القدمين مرتديا قميصا وقماطا (in camisia et braccis)، حاملا فى إحدى يديه شمعة وفى الأخرى القضيب الذى يجلد به، ثم يحضر صلاة القداس من ركن يراه فيه جميع المصلين، وبعد انتهاء الصلوات، يتقدم نحو المذبح، ويسلم الشمعة والقضيب للمسئول، ثم يركع على ركبتيه ليتلقى الجلد راضيا نادما.

وبعد الجلد، يعلن الشخص فى صوت عال أنه قد تلقى جزاءه على ما قدمت يداه من إثم.

وفى بعض الحالات صار فى الإمكان دفع غرامة مالية بدلا من التعرض للعقاب البدنى، وقد أقر هذا البابا إنوسنت الرابع سنة ١٢٥١.

سجن وحرق الهراطقة



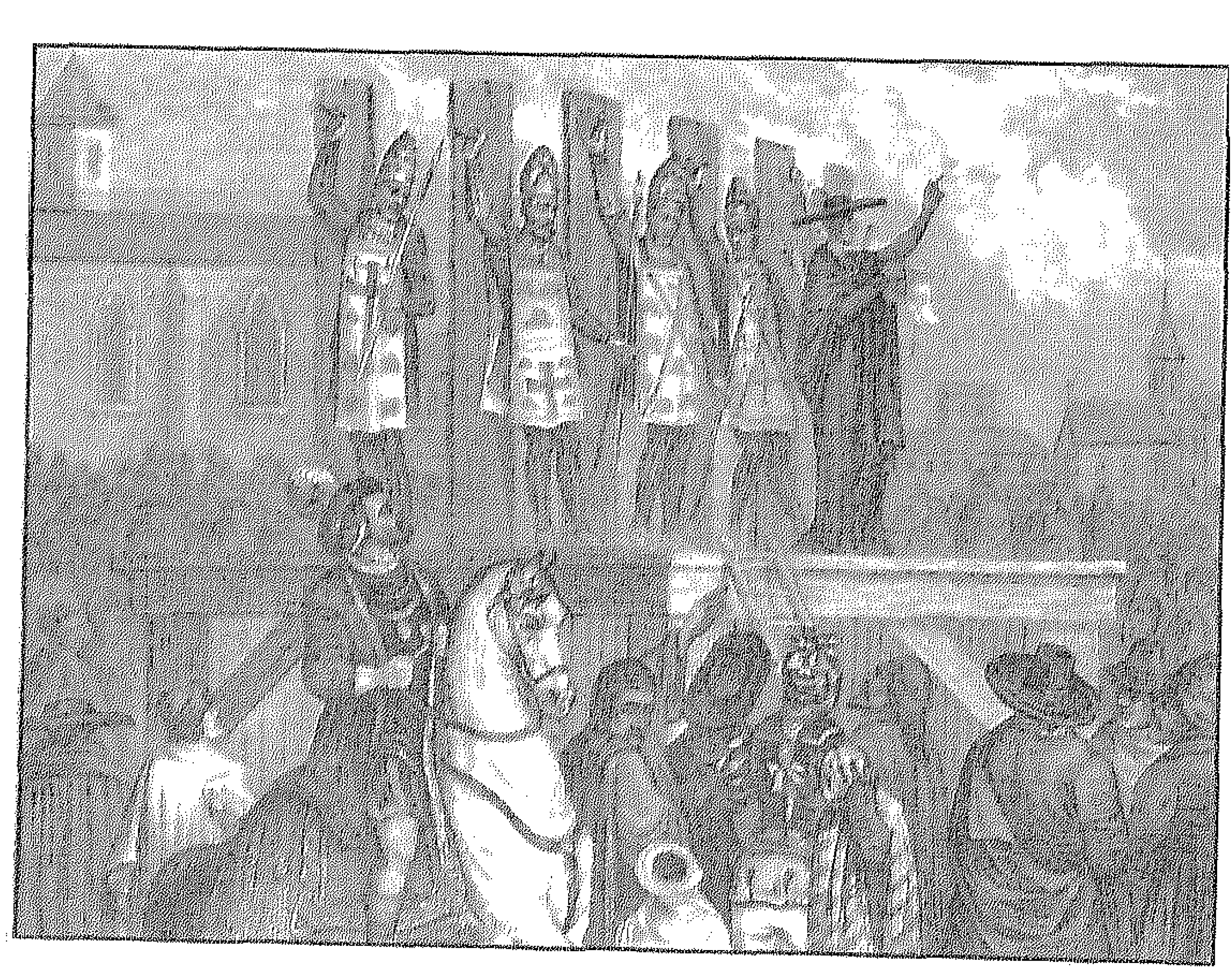
كـذلك عمـدت محـاكم التفـتيش إلى مـصادرة أمـلاك الهراطقـة وأموالهم، فلقد قرر الفقيه جـراتيان (بند ٧ من الفقرة ٢٣) - اعتمادا على حجة القديس أغسطينوس- بأن مصـادرة أملاك الهراطقة تتوافق مع القانون الرومانى، وقد أقـر هذا المبدأ مجمع ريمز سـنة ١١٥٧، ومجمع تور سنة ١١٦٣، ومجـمع فـيرونا سنة ١١٦٤، ثم صـدر به مرسوم فـى المجمع اللاتيرانى المنعقد فى ظل البابا إنوسنت الثالث سنة ١٢١٥، وسار البابوات بعد ذلك على هداه.

والغريب فى هذا الأمـر أنه حتى وإن كان للهرطيق أبناء لا غـبار ولا شبهـة على إيمانهم، فإنهم لا يرثون شيئا من أملاك والدهم.

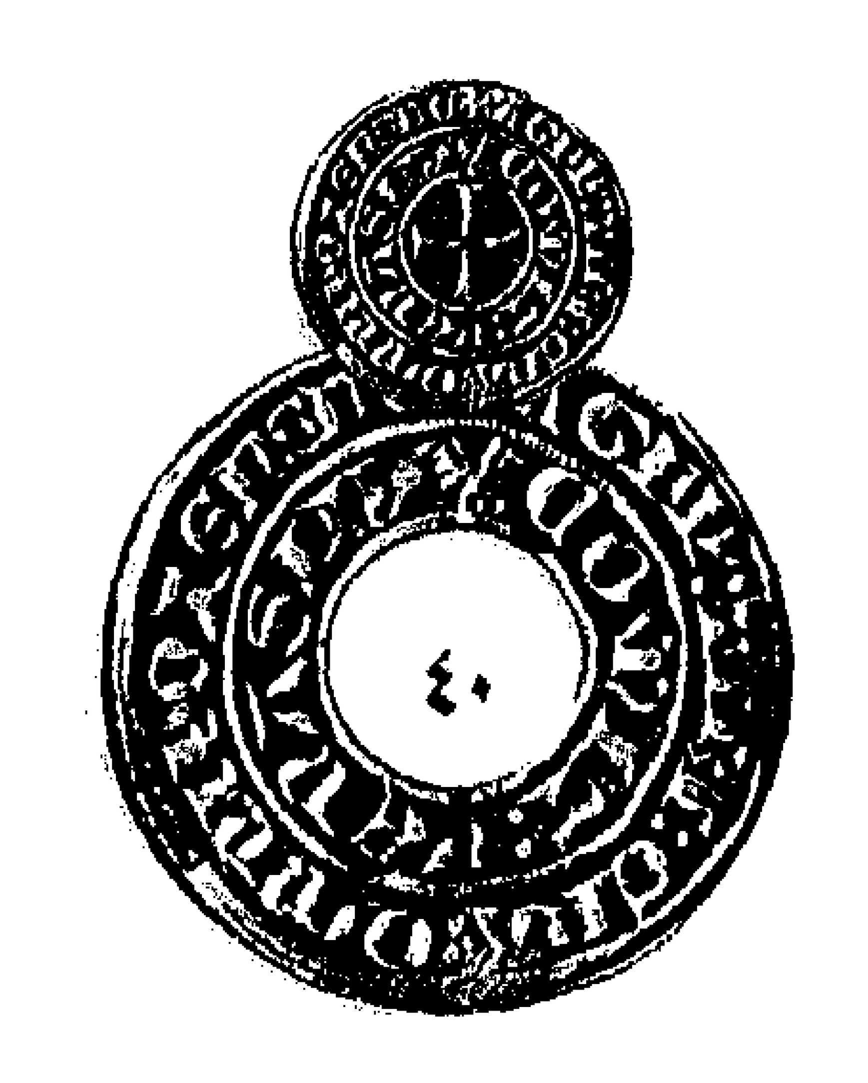
وهذا الموقف المتعنت يجـافى ما ورد فى القانون الرومانـى؛ الذى يعطى الأبناء الذين تثبت براءتهم من إدانة آبائهم، حق الميراث، كذلك لجأت البـابوية إلى هدم منازل الهراطقة، فلقد كتب البابا إنوسنت الثالث فى ٢٣ سـبتمبر ١٢٠٧ يأمر بـأن تهدم جميع الدور التى استخـدمت كملجأ للهرطقة أو كندوة لنشر آراء المهرطقين، على أن تدك من سقفها حتى أساسها.

ولما أن جـاء البابا إنوسنت الرابع رأى فى ١٥ مـايو سنة ١٢٥٢ ضرورة هدم المنـازل المجاورة لمنزل الهرطيق، خـشية أن تكون قـد تلوثت بوباء الهرطقة، إلا أن البـابا إسكندر الرابع رأى فى هذا القرار تطرفا زائدا، فألغاه فى ٦ مارس سنة ١٢٥٧؛ والسبب فى ذلك الإلغاء يرجع إلى أن تنفيذ هذا القرار سوف يؤدى حتما إلى إزالة قرى ومدن بأكـملها، وقد حسم المفتش العام إيمريك (Eymeric) هذا الأمر بأن قرر إزالة البيوت التى تم فيها بالفعل إقامة شعائر مهرطقة.

وأخيرا، فـقد لجأت محاكم التفتيش إلى إحراق جـــثث المـوتى مـن المهـرطقـين، خـشيـة أن يصـاب المكـان الذى يضم رفـات الهـرطيق بالدنس، ومن ثم تـقـرر أن يكون الهــرطيق وقــودا للنار، ونحن نعلم أن قبـورا عدة قد نبشت، وأن جثثا كثيرة قـد أهينت حـرمتهـا فى الطرقـــات، وسط قـرع الطبول ولهيب المحرقة!!



تسمير أيدى الهراطقة واستتابتهم من الهرطقة



الفصل الثالث
صور من قمع محاكم التفتيش والحملات الصليبية ضد الفكر المخالف

إن أهم سمة تميز جماعات المخالفين فى غرب أوربا فى القرن الثانى عشر هى سمة الزهد، والدعوة إلى البساطة الأولى، وقد انتعشت هذه الآراء فى وقت كانت الكنيسة فيه قد تردت فى وحل السيمونية (بيع المناصب الدينية بالمال) والنيقولاوية (زواج رجال الدين)، فافتضح أمر البابوية وكبار الأساقفة والأساقفة جميعا، وطرحت قضية الإكليروس على بساط الشك من أساسها. وكان أشد المتحمسين لآراء «الأطهار» من أتباع والدو طبقة النبلاء فى الجنوب الفرنسى الذين كانوا يمقتون ذاك الثراء الفاحش الذى بات على جنباته رجال الدين فى فرنسا، وكان النبلاء يتطلعون إلى الفرصة السانحة لينقضوا على أملاك رجال الدين الشاسعة ليأخذوا منها نصيبا، ولكن البابوية كانت تفرض الحماية والحصانة على تلك الكنائس والأملاك.

ولقد كانت البابوية تنظر فى قلق زائد إلى نشاط أتباع والدو - أو الألبجنزيين- غير أن صراعها ضد الإمبراطور الألمانى قد شغلها بعض الوقت عن المبادرة بقمع هذه الجماعة، ولما أن اعتلى البابا إنوسنت الثالث العرش البابوى، بدأ نشاطه بمحاولة كسب الكونت رايموند السادس صاحب تولوز إلى جانبه ضد الألبجنزيين، إلا أن الكونت رايموند كانت لديه من الدوافع ما يجعله يتعاطف مع الألبجنزيين، نكاية فى نفوذ كبار رجال الدين المتزايد فى أراضيه. أما بطرس



المجتمع الكنسى فى عصر النهضة الأوروبية مع النبلاء والفرسان

الثانى ملك أراغـون، فقـد كان بدوره حليفـا لرايموند السـادس، أما عن الملك الفرنسى فيليب أغسطس فقد كان منهمكا فى صراعه المرير ضد ملوك إنجلترا حول دوقية نورمانديا.

الحملة ضد الألبجنزيين:

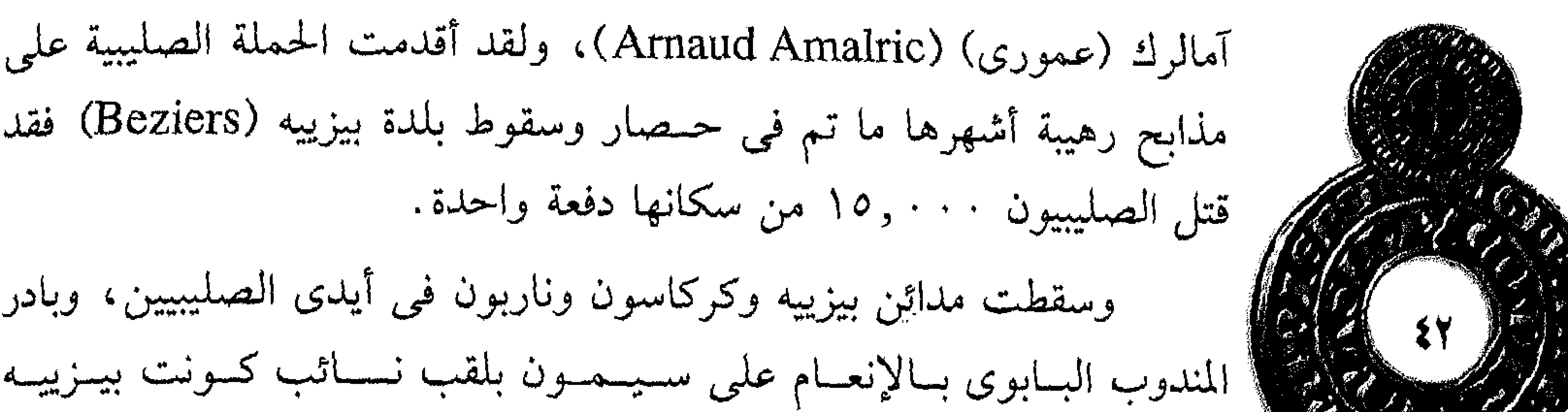
وفى سنة ١٢٠٧ طلـب البـابا إنوسنت الـثـالث من الملك فـيليب أغسطس التدخل على رأس حملة «صليبية»، لقمع الألبجنزيين فى الجنوب الفرنسى، إلا أن فيليب أغـسطس كان يخشى أن ينتهز الملك الإنجليزى يوحنا الفـرصة للانقضاض على الشمال الفـرنسى، إن أقدم فيليب ورجاله على شن حملـة فى الجنوب الفرنسى، يضاف إلى هذا أن يوحنا كان صهرا لرايموند السادس صاحب تولوز.

وأخيرا بعد أن نفذ صبر إنوسنت الثالث، أعلن فى ١٥ يناير ١٢٠٨ قيام حملة صليبية ضد الألبجنزيين ووعد من يشارك فى هـذه الحملة بالغنائم من الأراضى التى تقع فى أيديهم من أملاك الهراطقـة وبادر فيليب أغسطس فـأرسل رسالة إلى البابا إنوسنت الثـالث يقول الآتى: «.. فيـما يتصل بأمر اسـتيلاء الصليبيـين على أراضى كونت تولوز بالحرب، فلتعلموا أننا بعـد مشاورة أهل العلم والمشـورة وجدنا أنه ليس من حـقكم القيام بهـذا العمل إلا بعـد أن تصدروا إدانة صـريحة بالهرطقة ضـد الكونت (رايموند السادس)، وعندما تتـم هذه الإدانة من جانبكم، يمكنكم عندها مخاطبـتنا بقصد الموافقة على مـصادرة أملاك الكونت؛ لأن هذه الأملاك هى أراض خـاصة بتابع (فصل) إقطاعى من أفصالنا، وحتى الآن لم يصلنا منكم ما يفيد بأن الكونت قد أدين بالهرطقة».

والواقع أن البابا إنوسنت الثالث كان قد أوفد قاصدا رسوليا هو بيار (بطرس) دى كاستللينو لتهدئة الموقف فى الجنوب الفرنسى، ولكن الـكونت رايموند السادس صاحب تولوز لـم يرض عن نشاط القاصد الرسولى، فقام بيار بإصدار قرار بالحرمان ضد رايموند وبالقطع ضد أراضيه.

وجن جنون رايموند وهاج رجاله، وتسلل واحد من أتبـاع رايموند واغتال المندوب البابوى على مـقربة من بلدة صـان جيل، وعليـه فقد دعى إنـوسنت الثالث إلى حـملته الصليـبيـة ضد الألبجنزيين.

سارع الآلاف من الفـرسان المفلسين فى الشـمال الفرنسـى يلتفون حـول اللواء البابوى فى الصليبية ضد الألبجنزيين، أملا فى ثروات الجنوب الفرنسى وغنائمه. وأسقط رايموند السادس فى يده، ومع أنه قد أعلن التوبة والندم، بل حـمل الصليب ضد الألبجنزيين ليرد كيد الصـليبيين عن بلاده وجشع الفرسـان المفلسين الطامعين عن أراضيه، إلا أن صـرخاته ذهبت أدراج الرياح، فلقد وصلت الحملة إلى أرض اللانج دوك لتأتى على الحرث والنسل، وكـان على رأس الحملة الصليبية نبيل من رجالات باريس هو سيمون دى مـونت فورت، إلى جانب المندوب البابوى الجديد أرنولد



آمالرك (عمورى) (Arnaud Amalric)، ولقد أقدمت الحملة الصليبية على مذابح رهيبة أشهرها ما تم فى حصار وسقوط بلدة بيزييه (Beziers) فقد قتل الصليبيون ١٥,٠٠٠ من سكانها دفعة واحدة.

وسقطت مدائن بيزييه وكركاسون وناربون فى أيدى الصليبيين، وبادر المندوب البابوى بالإنعام على سيمون بلقب نائب كونت بيزييه وكركاسون مكافأة له على جهوده الصليبية، ومع أن البابا إنوسنت الثالث لم يكن راضيا تماما عن سيمون دى مونت فورت، إلا أن تقاعس الملك فيليب أغسطس قد قرر الموقف فى صالح سيمون، والجدير بالذكر أن المندوب البابوى أرنولد قد كافأ نفسه بمنصب كبير أساقفة ناربون، وهى أغنى أسقفيات البلاد. فى هذه اللحظات الحرجة زحف الملك بطرس الثانى من أراغون لنجدة قريبه رايموند السادس، إلا أن سيمون نجح فى إلحاق الهزيمة بالملك الأرغونى وقتله فى معركة موريه (Muret) سنة ١٢١٣.

مجمع اللاتيران ١٢١٥م:

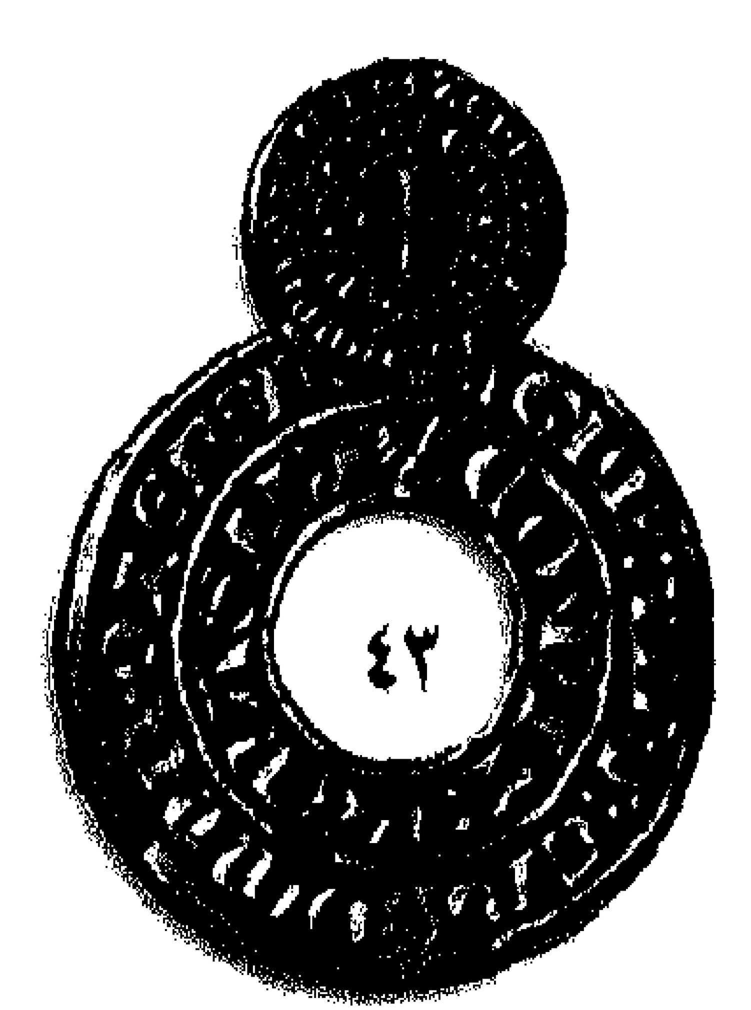
ولما أن انعقد مجمع اللاتيران سنة ١٢١٥ برئاسة البابا إنوسنت الثالث، قرر المجتمعون إدانة رايموند السادس كونت تولوز بالهرطقة «الألبجنزية»، وصادروا أملاكه، هذا على الرغم من أن رايموند - لما ضاق به الحال ورأى شعبه وأرضه نهبا للصليبيين- كان قد أعلن التوبة والندم وأعلن عن عزمه فى حمل الصليب ضد الهراطقة!! ولكن الكنيسة الرومانية لم تكن على استعداد لأن تعيره التفاتة، وذهب المجمع اللاتيرانى إلى حد بعيد، إذ قرر توزيع الأراضى التى استولى عليها الصليبيون على المشاركين فى الحملة كغنائم، وهكذا لم يبق لرايموند السابع - الوريث - إلا بضع أراض فى بوكير (Beaucaire) ونيم (Nimes).

أمام هذا الموقف المعقد، وجد الملك الفرنسى فيليب أغسطس نفسه مضطرا إلى الاعتراف بالأمر الواقع، واتفق مع المندوب البابوى على أن يقبل الملك رئيس الحملة سيمون دى مونت فورت فصلا إقطاعيا من أفصاله على أن يقطعه كلا من بيزيه وتولوز وكركاسون (ميلون ١٢١٦).

بعد أن أصيب رايموند السادس باليأس والإحباط ترك الأمور إلى ابنه ووريثه رايموند السابع، وقد كان هذا الكونت الشاب جسورا، فجمع رجاله وهجم على تولوز، وعند أسوار المدينة تم اغتيال سيمون دى مونت فورت.

وارتبكت الأمور فى الجنوب الفرنسى، وخاصة أن عمورى ابن سيمون القتيل لم يكن ندا للموقف.

فى هذه اللحظات الحرجة رأى فيليب أغسطس أن الوضع فى الجنوب الفرنسى يحتاج إلى تدخله المباشر، رغم ما كان يحيط باريس من مشكلات مع التاج الإنجليزى؛ ولذلك فإنه عهد إلى بنه لويس الثامن بقيادة حملة إلى الجنوب الفرنسى لتصفية المواقف.



زحف لويس الثامن على رأس جيشه صوب الجنوب الفرنسى، محوطا بأساقفة سنليس (Senlis) ونويون (Noyon) وتورناى (Tournai)، ثم ضرب معسكرا عند بلدة لاجنيه (I, Agenais)، التى كان رايموند السابع قد استردها من الصليبيين، ثم هجم لويس على بلدة مارماند (Marmande) ودمرها، وتمت فيها مذبحة رهيبة، إلا أن تولوز ظلت القلعة الصامدة فى الجنوب، ولم يقْوَ فرسان الشمال عليها لمناعتها واستبسال فرسانها فى الذود عن أنفسهم، وشعر لويس وأفصاله بالملل والقنوط فقرر العودة إلى باريس، أما عن عمورى ابن سيمون دى مونت فورت فإنه قد بادر بالانسحاب من ميدان القتال أيضا. وهنا خرج «الألبجنزيون الأطهار» من مخابئهم فى الجبال، والتفوا حول رايموند السابع، وفتحت بوابات المدارس الألبجنزية من جديد.

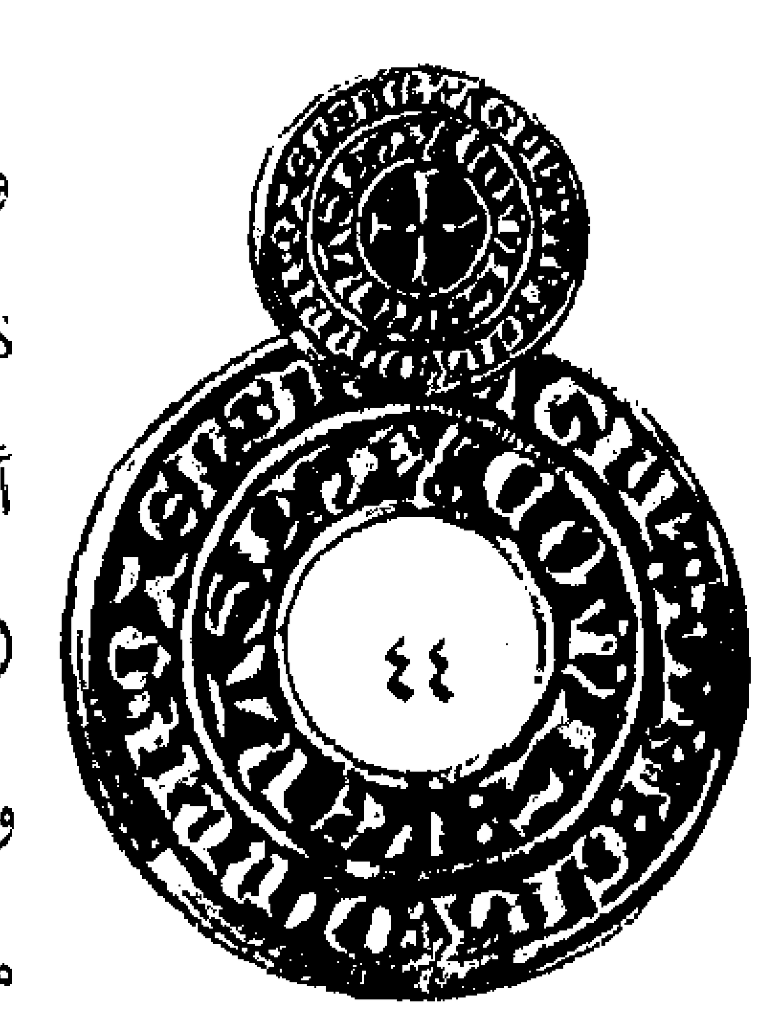
بعد وفاة فيليب أغسطس خلفه على عرش باريس ابنه لويس الثامن الذى كان يتحلى بالكثير من الشجاعة، إلا أن العرش البابوى قد شغل فى عهده بأحد البابوات الضعاف هو هونوريوس الثالث.

ولكن المندوب البابوى فى فرنسا وهو الكردينال دى سانت أنج (Cardinal de Saint Ange) كان شخصية قوية فقد عقد مجلسا فى نوفمبر ١٢٢٥، أعلن فيه رفضه لما كان قد أبداه رايموند السابع من خضوع وتطلع للمصالحة، وفى ٢٨ يناير ١٢٢٦، عقد المندوب البابوى مجلسا آخر فى باريس أنزل فيه قرارا بالحرمان ضد رايموند السابع، إلى جانب مصادرة أملاكه ونقلها إلى حوزة لويس الثامن. وهنا قرر عمورى ابن سيمون دى مونت فورت وضع جميع الأراضى التى دانت لوالده وله فى الجنوب الفرنسى تحت تصرف التاج الفرنسى.

وفى مقابل هذه المكافأة السخية أخذ لويس الثامن على عاتقه مهمة البابوية فى تثبيت دعائم محاكم التفتيش فى الجنوب الفرنسى لقمع الألبجنزيين، ولكى يبالغ فى إرضاء روما وسيدها قرر إقامة محاكم للتفتيش أيضا فى الشمال الفرنسى، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يصدق فيها القانون الفرنسى على عقاب الهراطقة بالحديد والنار.

بعد هذا أمر لويس الثامن جيوشه بالاستيلاء على مدينة أفنيون، بسبب رفضها للصليبيين العبور على أرضها نحو الجنوب، فدمرت أسوارها وانتقم من أهلها، ثم عين لويس الثامن مندوبين عنه برتبة «سنكال Senechal» للإشراف على الأراضى المصادرة فى الجنوب الفرنسى، وقام فرسان الشمال بنهب خيرات الجنوب الفرنسى تحت شعار الصليب ومحاكم التفتيش.

ظل رايموند السابع يكافح ضد التاج الفرنسى إلى أن أبرمت بين جميع الأطراف معاهدة باريس سنة ١٢٢٩ فى عهد الملك لويس التاسع ووالدته بلانش القشتالية الوصية على العرش،



وبمؤدى هذه المعاهدة أقطع رايموند السابع كونتية تولوز، ولاجنيه (L’ Age-nais) ولى رويرج (Le Rouergue)، وكيرسى (Quercy)، وشمال منطقة ألبجوا (Albigeois)، أما البابوية فقد حصلت على ماركيزية بروڤانس (Provence) فى برغنديا، كما حصل التاج الفرنسى على المناطق بين الرون والبحر المتوسط، كما نصت المعاهدة على زواج ابنة ووريثة رايموند السابع من الأمير الفرنسى شقيق لويس التاسع، الذى يصبح له الحق فى وراثة الكونتية كلها من خلال هذا الزواج، كما تعهد رايموند السابع بمحاربة الألبجنزيين وتطهير البلاد منهم، وبالفعل فى سنة ١٢٣٣ نشر الكونت رايموند السابع قرارات تدين الألبجنزيين وتسمح لمحاكم التفتيش بممارسة نشاطها فى قلب أراضيه، حقيقة أن رايموند السابع كان يضمر بخلاف ما يظهر، والدليل على ذلك أنه سعى إلى حلف مع الملك الإنجليزى هنرى الثالث ضد لويس التاسع الفرنسى، ولكن لويس التاسع انتصر على الإنجليز فى موقعة سانت (Saintes)، فتبخرت آمال رايموند السابع واضطر إلى السعى للصلح من جديد مع التاج الفرنسى سنة ١٢٤٢.

وفى هذا الصلح الجديد تعهد رايموند بأن يساهم بطريقة إيجابية فى قمع الهرطقة فى بلاده، وبالفعل نحن نعلم أن رايموند السابع - فى عام وفاته (١٢٤٩) أمر بإحراق ثمانين من الألبجنزيين بتهمة الهرطقة عند بلدة آجين (Agen)، وبعد وفاة رايموند السابع آل أمر كونتية تولوز إلى الأمير الفرنسى ألفونسو دى بواتييه شقيق الملك الفرنسى وزوج ابنة رايموند السابع.

إن آداب هذه الحقبة من تاريخ العصور الوسطى تعكس سخطا شديدا بين الأقوام على الكنيسة ومحاكم التفتيش، ونسوق هنا مثالا واحد يعكس عمق هذا الغضب:

«هنا بعض يرفضون العماد

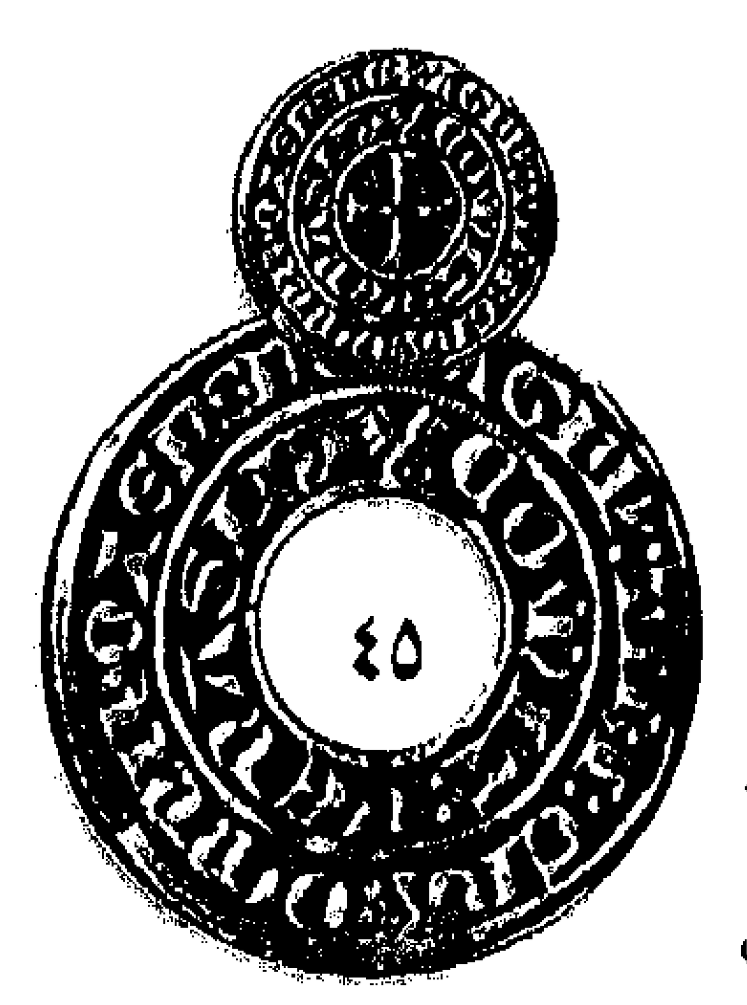
وهنالك نفر أغضبوا رب العباد

وهذا «فلوار» يحيلهم إلى رماد

وتلك النار باتت تحرق الأجساد

وكم من رأس قطعت قبل ميعاد» !

كان لويس التاسع أسوأ حاكم علمانى شجع على تثبيت أقدام محاكم التفتيش فى فرنسا لكى يرضى معاصريه من البابوات جريجورى التاسع وإنوسنت الرابع، وقد وكل مهمة التفتيش والمحاكمة إلى رهبان الدومنيكان، الذين أرهبوا صغار القسيسين وبسطاء الناس بجبروتهم وبالتكشير عن أنيابهم، وأرسلوا إلى المحرقة أعدادا لا تحصى بتهمة الهرطقة.



ويحدد المؤرخون سنة ١٢٣٣ على وجه التحديد كبداية لإرساء محاكم التفتيش فى فرنسا جميعا، وقد شمل لويس التاسع ووالدته بلانش القشتالية مفتشى تلك المحاكم بالعطف والحماية، وقد خول الملك الفرنسى رجلا يدعى روبرت لى بتى (Robert le Petit) صلاحيات طائلة كمفتش عام، والغريب فى الأمر أن روبرت هذا كان فى الأصل عضوا فى جماعة الألبجنزيين ثم انقلب عليهم فيما بعد؛ ولهذا فقد أطلق عليه المعاصرون كنية «لى بوجر» (le Bougre) أى «البلغارى» بمعنى «المانوى» أو «الألبجنزى»، وقد أرهب هذا «البلغارى» أصقاع فرنسا ما بين عامى ١٢٣٣ - ١٢٣٩، والثابت عليه أنه قد شنق ١٨٣ نفسا دفعة واحدة فى مقاطعة شامبانى.

الملك فيليب الرابع «الجميل»:

وفى عهد الملك الفرنسى فيليب الرابع «الجميل» (١٢٨٥-١٣١٤)، قام صراع مرير بين التاج الفرنسى والبابوية على عهد بونيفاس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣).

ويرجع ذلك إلى إصرار فيليب على جباية الضرائب من رجال الدين لمساعدته فى حروبه الكثيرة ضد إسبانيا وإنجلترا، ولكن بونيفاس تصدى له فى حزم بالغ ورفض الموافقة على هذا «الابتزاز»، والحق أن بونيفاس كان ينحدر من عائلة جايتانى (Gaetani) الرومانية النبيلة، ولم يكن الرجل يدخر وسعا فى تأكيد نبالة عرقه، واتبع فى ذلك مسلكا متعجرفا، ويقال أن بونيفاس قد وصل إلى العرش البابوى بطريقة دنيئة، فقد كان سلفه سلستين الخامس راهبا زاهدا فى متاع الدنيا، ولكنه أجلس على كرسى البابوية رغم أنفه، ورفض سلستين أن يستقر فى روما، وبقى فى مدينة نابلى، ولم يكن سلستين الزاهد راضيا عن مسلك وأطماع كرادلته فى مجلس الكيوريا، ففكر جديا فى التنحى عن منصب البابوية ومتاعها، ويروى أنه سمع هاتفا سماويا ينصحه بالتخلى عن منصب البابا والعودة إلى حياة النسك والتوحد، وحقيقة الأمر أن هذا الصوت السماوى لم يكن سوى صوت الكاردينال بندكت جيتانى منبثا من خلال أنبوبة خفية، وفى ١٣ ديسمبر ١٢٩٤ انصاع سلستين «للوحى الإلهى» واعتزل العرش، وبعد ذلك بعشرة أيام تسلق الكاردينال جيتانى إلى عرش البابوية باسم بونيفاس الثامن.

باباوات آفنيون

البابا بونيفاس الثامن:

أصدر بونيفاس الثامن مرسوما بابويا سنة ١٢٩٦ بعنوان (Clericis Laicos) يحرم فيه على الهيئات الدينية فى بلدان غرب أوربا دفع أية أموال للأمراء العلمانيين، وقد كان أول من غضب

من هذا القرار الملك الفرنسى فيليب الرابع، فقام بطرد التجار الإيطاليين من فرنسا، الأمر الذى أدى إلى ارتباك الأحوال الاقتصادية فى إيطاليا.

وشفع هذا القرار بقرار أهم وهو إيقاف تصدير الذهب والفضة إلى إيطاليا وبذلك حرم بونيفاس الثامن من موارد مالية هائلة كان فى مسيس الحاجة إليها لمتابعة مغامراته العسكرية فى جزيرة صقلية.

واضطر البابا إلى التراجع فى موقفه من الملك فيليب، وسمح له بحق جباية الضرائب من الهيئات الدينية فى فرنسا، بل إنه سعيا وراء مداهنة التاج الفرنسى خلع لفظ «القديس» على لويس التاسع الملك الأسبق.

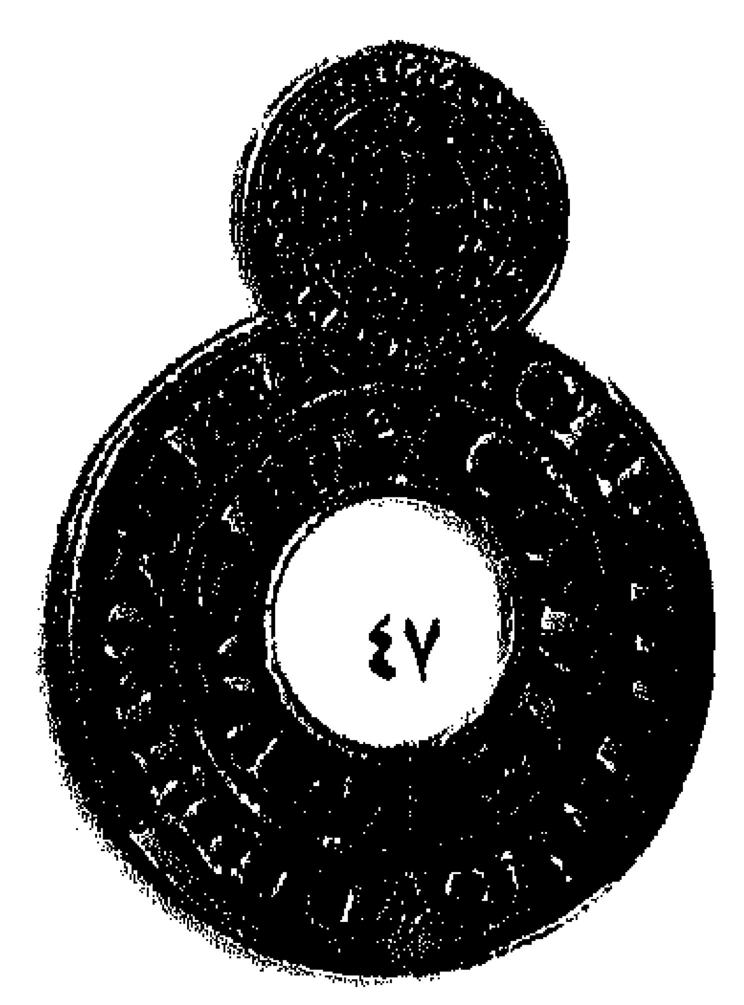
ولعل تراجع بونيفاس وخضوعه لسياسة فيليب يرجع إلى خلاف شديد كان بين البابا وبين الكرادلة من بيت كولونا (Colonna).

ويرجع تمرد آل كولونا إلى مسلك بونيفاس المحابى لأقربائه وأيضا بسبب تورطه فى السيمونية، فتصدى له الكاردينالان بترو وجياسبو من آل كولونا واتهماه بالفساد والطغيان والتآمر على البابا الأسبق سلستين.

وهنا لجأ بونيفاس الثامن إلى التقليد الذى ابتدعه من قبل إنوسنت الثالث، فدعى إلى حملة «صليبية» ضد بيت كولونا، وهجم الجيش البابوى الصليبى على قلاع كولونا ودمروها، حتى سويت كبرى القلاع فى پالسترينا (Palestrina) بالأرض (سنة ١٢٩٨)، ووقع أبناء كولونا أذلاء عند قدمى البابا المنتصر، وبعد قليل هربوا من وجهه يطوفون ببلدان فرنسا، حيث أذاعوا عن بونيفاس فضائح مخجلة.



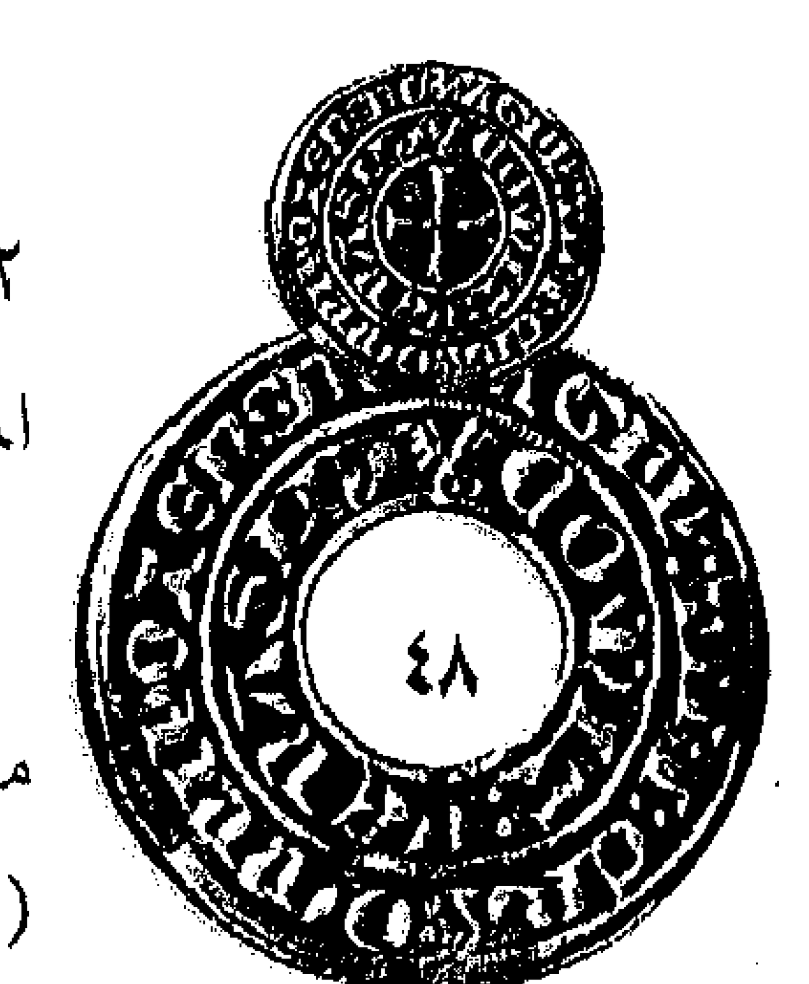
الملك فيليب الجميل بين حاشيته



فى أثناء ذلك نشب صراع بين حزب السود وحزب البيض فى مدينة فلورنسا، وكـان السود أشياعـا للبابا، فى حين أن البيض كـانوا يناصرون الإمبراطور الألمانى ضده. وانتهز البابـا وصول حملة الأمير الفرنسى شارل دى ڤالوا سنة ١٣٠١ إلى شمال إيـطاليا فى طريقة للحرب ضـد صقلية، فطلب منه البـابا تقـليم أظافـر البـيض فى فلورنسـا، وهجم شـارل على فلورنسا، وانقض السود على البيض ونهبـوا أموالهم وأملاكهم، وكان من بين الضحايا الشاعر دانتى الذى أرسل إلى المنفى سنة ١٣٠٢.

إلا أن تطور الأمور بعـد ذلك قارب من الصدام بين التاج الفـرنسى والبابا بونيفـاس: فقد رأى فيليب الرابع أن يتخلص من أسقف باميـه المدعو برنارد سيسيه (Saisset)، فكتب إلى البابا يستـأذنه فى خلع هذا الأسقف وتجـريده من رتبتـه الكهنوتية حـتى ينتقم منه بعـد تجريده، ولكن بونيفاس رفض الانصيـاع لنزوات فيليب، وقرر أن يلقى القفاز فى وجه خـصمه؛ ولذلك فإنه فى سنة ١٣٠١ أصدر مـرسوما بابويا بعنوان «سلامـة العالم» (Salvator mundi) يلغى فيـه جميع الامتيازات التى كان قد منحها من قـبل للتاج الفرنسى، وأتبع هذا بقرار آخر بعنوان «طاعة الابن» (Ausculta filii) يبين فيه أخطاء فيليب فى مملكته، متهما إياه بالتمرد على رأس الكنيسة العالمية، ومنذرا بأنه قد يضطر إلى وضـعه فى عداد «المارقين»، تم وجـه بونيفاس الدعوة إلى كـبار رجال الدين فى فرنسا للحضور إلى روما «لتدبير شئون فرنسا بما يليق».

أڤنيون – القلعة والكنيسة التى تم بها الأسر البابلى



وردّ فيليب الرابع على ذلك بأن عقد مجلسا في باريس (سنة ١٣٠٢) من النبلاء والأساقفة، وأعلن فيه رجال الدين الفرنسيون استقلال الملك عن كل وصاية بابوية، كما ندد المؤتمرون بأطماع بونيفاس وجشعه.

وفي ١٨ نوفمبر ١٣٠٢ عقد البابا مجمعا ثانيا حضره بعض الأساقفة من الجنوب الفرنسي، وأصدر قرارا بعنوان (الواحدة الوحيدة المقدسة) (Unam Sanctam)، أكد فيه حق البابا في «السيفين»: سيف السلطان الروحي وسيف السلطة الزمنية، على أن يعهد البابا بالسيف الزمني - كأمانة تحت وصايته - إلى أمراء الدنيا، وأنه لا خلاص للملوك والأمراء إلا بهذه التبعية الروحية.

وقد علق الفرنسيون على هذا القرار بعبارة حفظها لهم التاريخ وهي تقول: «إن سيف صاحب الجلالة من الصلب، وأما سيف البابا فهو من الكلام فحسب»، ويبدو أن هذا القول قد ترجم إلى واقع: فقد بعث فيليب بنفر من رجاله بقيادة وزيره وليم دي نوجارت (de Nogaret) إلى موطن البابا في أنجني (Anegni) واقتحموا عليه مقامه بعد أن فتح لهم كبير الحراس البوابة، ووجدوا بونيفاس على فراشه يعد في قرار للحرمان ضد الملك فيليب.

ولما أن رأى أعداءه صاح: «ها هو عنقي، وتلك هي يداي، أنا لست أخافكم»، وسرعان ما ضجت البلدة بالهرج والفزع، ففر الجناة تاركين البابا، وفرض آل أورسيني (Osini) حمايتهم على البابا، واصطحبوه معهم إلى روما ولكن بونيفاس الثامن توفي في الطريق في ١١ أكتوبر سنة ١٣٠٣.

وبعد وفاته روج عنه الفرنسيون أقبح الصفات والرذائل واتهموه بجنون العظمة.

البابا كلمنت الخامس:

كان البابا الجديد بندكت التاسع شخصية ضعيفة من أبناء الدومنيكان، فبادر بالعفو عن الملك الفرنسي فيليب الرابع، ولم يعش طويلا، فلم يلبث أن توفي فجأة في ٧ يوليو ١٣٠٤.

وبعد وفاة بندكت التاسع انقسم الكرادلة إلى حزبين: حزب يشايع الملك الفرنسي، وآخر تمسك بسياسة بونيفاس الثامن، وفي النهاية انتصر الحزب الموالي للتاج الفرنسي، فرفعوا إلى العرش البابوي كبير أساقفة بوردو - برتراند دي جوت- باسم البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤).

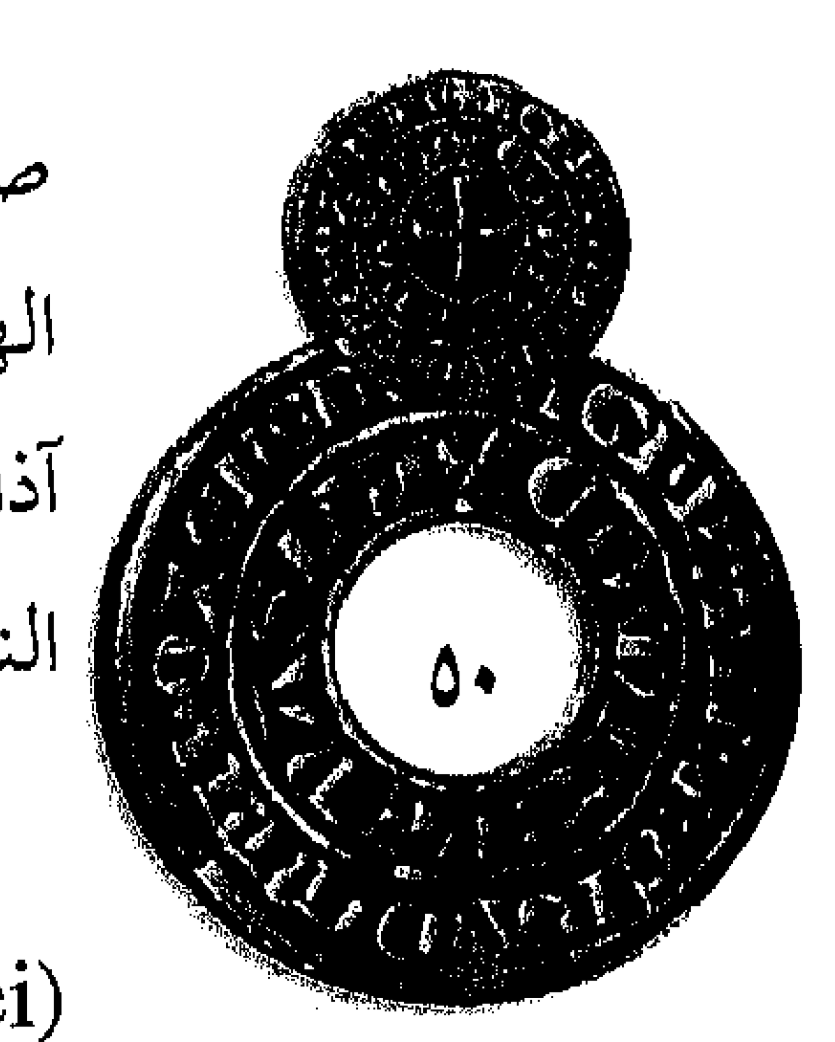
وكان البابا الجديد فرنسيا لحما ودما، وقرر أمرا خطيرا: ألا وهو هجران روما والإقامة الدائمة في فرنسا، وبالفعل وصل البابا كلمنت الخامس وبلاطه في سنة ١٣٠٩ إلى بلدة أفنيون (Avignon) في الجنوب الفرنسي على ضفاف الرون، وابتدأ بذلك الفترة الحرجة في تاريخ العصور الوسطى المعروفة باسم «الأسر البابلي».

وكان جل كرادلة أڤنيون من الفرنسيين بطبيعة الحال، وكانوا وسيدهم البابا تحت وصاية فيليب الجميل.

كان بندكت أداة طيعة فى يد الملك الفرنسى ووزيره الداهية نوجارت، حتى بدت بابوية أڤنيون مجرد دمية فى أيدى الوزير، ولعل أخطر ما أقدم عليه فيليب فى تلك الآونة هو إصراره على القضاء على جماعة الداوية (Templiers) من رهبان المعبد الذين لعبوا دورا خطيرا فى الحركة الصليبية فى الأراضى المقدسة بفلسطين. كان الداوية قد عادوا إلى موطنهم فرنسا، بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١ فى أيدى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وكانوا فى الحقيقة قد جمعوا أموالا طائلة من مغامراتهم الصليبية حتى صاروا من أغنى الجماعات الدينية فى فرنسا ويقال أنهم قد استثمروا أموالهم أيضا فى عمليات الربا، وسال لعاب فيليب الجميل على أموال الداوية، وخاصة أن الجماعة كانت تضم ألفين من خيرة الفرسان لا يخضعون للتاج الفرنسى. لجأ فيليب الرابع إلى أخس الأساليب فكلف وزيره نوجارت بتلفيق الاتهامات ضد جماعة الداوية كى يستصدر قرارا من البابا للقضاء عليهم تماما ومصادرة أموالهم وأملاكهم،وفى سنة ١٣٠٧ كان الوزير نوجارت قد أعد قائمة بالاتهامات والأدلة الملفقة ضد جماعة الداوية، وبعث الملك بتلك القائمة إلى البابا كلمنت الخامس فى بلدة پواتييه، مع طلب بإصدار مرسوم بابوى بإدانة هذه الجماعة وإحلال مصادرة أملاكها.

ولما أن رقى نوجارت إلى وظيفة حامل أختام الملك، صدرت إليه الأوامر بالقبض على كل أفراد الداوية وإيداعهم السجن (مايو ١٣٠٧)، ثم أذاع نوجارت الاتهامات الموجهة ضد الداوية، فاتهموهم بالهرطقة وعبادة الشيطان والانحلال الخلقى والفجور، وتعرض الرهبان لصنوف من التعذيب داخل زنزاناتهم - تماما كما كان يحدث فى زنزانات محاكم التفتيش - إلى حد أن واحدا من أبناء الداوية عندما بلغ به العذاب مداه صاح قائلا: «إننى على استعداد لأن أعترف لكم بأننى قد خالفت الله، شريطة أن تكفوا عن تعذيبى وترحمونى من الإحراق بالنار».

أما عن البابا كلمنت الخامس فقد رضخ لأهواء الملك فيليب ووزيره، وأصدرت البابوية قرارا بمصادرة أملاك جماعة الداوية فى كل أنحاء العالم المسيحى، أما الداوية فقد أنكروا ما وجه إليهم من اتهامات أمام مندوبى البابا من المفتشين، وسحبوا كل اعترافاتهم السابقة لأنها تمت من موقف الإرهاب والتعذيب، وكاد البابا أن يصدق مظالم الداوية، إلا أن الملك الفرنسى قام بزيارة مفاجئة إلى پواتييه حيث كان البابا يقيم، واضطر كلمنت الخامس إلى الذهاب مع التاج الفرنسى ضد الداوية إلى أبعد شوط، فأصدرت البابوية مرسوما بإقامة محكمة تفتيش خاصة للتحقيق مع الداوية ولإدانتهم، وذلك فى مجمع عقد ببلدة ڤين (Vienne) سنة ١٣١٠، وفى نفس العام



صدر حكم من محكمة التفتيش بإحراق ٦٣ راهبا من الداوية بتهمة الهرطقة، وضاعت صرخات الداوية وتأوهاتهم أدراج الرياح، فقد صمت آذان البابا عن الرحمة وصوت العدالة، وفى سنة ١٣١٢ صدر قرار بحل النظام وإلغائه كلية.

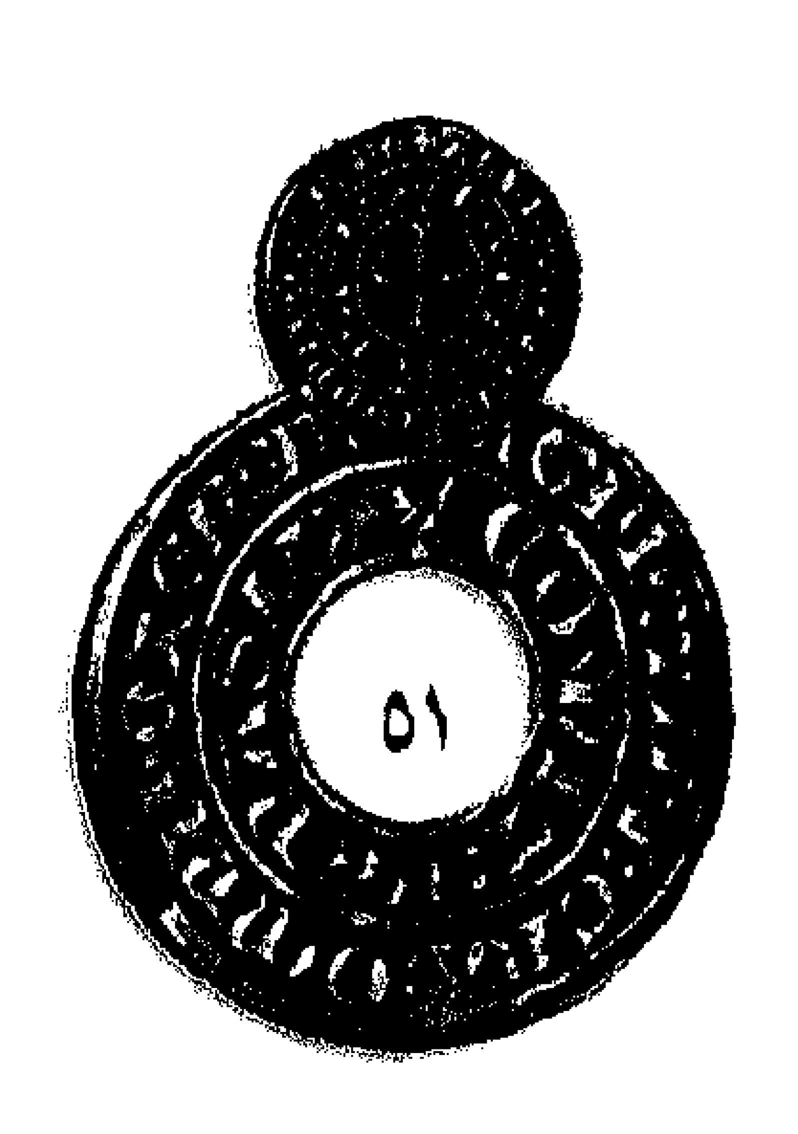
ولكى تكتمل المأساة تماما، اقتيد رئيس الداوية جاك دى موليه (Jacques de Molei) وبعض رفاقه للمحاكمة سنة ١٣١٤، وتقرر إحراقهم جميعا بالتهم الملفقة!

لقد كان «الأسر البابلى» فرصة لنشاط محاكم التفتيش فى غرب أوربا، فمارس المفتشون تحت لواء «أقنيون» أفانين الإرهاب والقمع، وكان حلف التاج الفرنسى مع الكاهن الأكبر وعمالة أمثال نوجارت أسود صفحة فى صفحات العصور الوسطى ضد حرية الفكر وإبداء الرأى فى أبسط الأمور، ومنذ ذلك التاريخ الأشأم صار تلفيق الاتهامات ونشر الفضائح الكاذبة والإرهاب سمة من أخص سمات الملكية الفرنسية حتى قيام الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩.

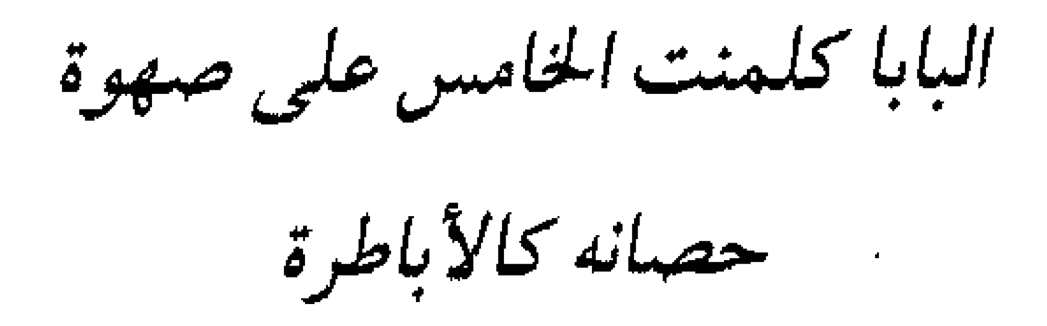
وحتى جماعة الفرنسيسكان - وهم من أدوات البابوية أصلا - لم تنج من بطش محاكم التفتيش، فلقد نادى فريق منهم بضرورة الرجوع بالعقيدة إلى حياة البساطة الأولى، ولكن البابا يوحنا الثانى والعشرين (١٣١٦- ١٣٣٤) قرر تقديم هذه الفئة إلى محاكم التفتيش سنة ١٣١٨، وسار على منواله البابا بندكت الثانى عشر، وأشهر تلك الجماعات فريق فراتيشيللى (Fratcelli) فى نابلى، الذى بشروا بقرب حلول عهد الروح القدس حيث يعيش الكل فى محبة وبساطة، فى احتقار لمتاع هذا العالم، ولكن البابا يوحنا الثانى والعشرين أدان هذه الأفكار ودمغها بالهرطقة.



عملة ذهبية سكت باسم وصورة البابا كلمنت الخامس
وهذا يعكس مدى سيطرة الباباوات على السلطتين الزمنية والدينية






البابا كلمنت الخامس على صهوة حصانه كالأباطرة

وتابع البابوات من أڤنيون إرهابهم للفكر بواسطة محاكم التفتيش، والواقع أن آراء الأطهار من أتباع والدو لم تنته تماما من الجنوب الفرنسى رغم المذابح الرهيبة التى لحقت بهم، كما انتشرت آراؤهم إلى بوهيميا وجنوب شرقى ألمانيا.

أما فى البلقان، فقد ظلت أفكار «الأطهار» فى البوسنة حتى وقت الغزو العثمانى، وعندها دخل الأهلون الإسلام هروبا من اضطهاد الكنيسة لهم.

ولم يحل القمع الرهيب بين وصول آراء الأطهار وتمركزها فى بوهيميا، حيث مهدت الطريق لحركة جون هس فى القرن الخامس عشر.

محاكم التفتيش فى ألمانيا

أما عن نشاط محاكم التفتيش فى ألمانيا، فإن البابا إنوسنت الثالث قد أصدر أمرا سنة ١١٩٨ إلى أتباع والدو فى بلدة متز (Metz) بتسليم كتبهم باللغات المحلية إلى السلطات الكنسية لإحراقها، وفشلت هذه الخطوة، فأوفد البابا ثلاثة من رجاله نجحوا فى الحصول على بعض الكتب وقاموا بإحراقها، بعد ذلك ببضع سنين نشط الأسقف برتراند من متز فى حملة ترشيدية ضد آراء «الأطهار» من أتباع والدو، ولكنه لم يجد آذانا صاغية، وفى سنة ١٢١٣ اتهمت السلطات الكنسية جماعة الأطهار بالشيوعية فى العيش وفى ممارسة الجنس، وقامت بشنق نفر منه، وفى سنة ١٢٢٩ اتخذت إجراءات قمع أخرى ضد أفراد هذه الطائفة فى بلدة ستراسبورج.



ثم عين البابا جريجورى التاسع مفتشا كنسيا عاما على ألمانيا هو كونراد من ماربورج (Marbourg)، وزوده بالصلاحيات اللازمة لشن حملة صليبية ضد الهراطقة الألمان، وفى رسالة من البابا جريجورى التاسع إلى كونراد هذا يعلن البابا أنه قد يئس من الحال التى تدنى إليها رجال الدين فى ألمانيا من فساد وفضائح ولذات حسية شهوية. إلا أن المفتش العام كونراد لم يتعقب غير الهراطقة فراح يقتلهم، بينما لم يبد حراكا ضد رجال الدين الفاسدين، والحق أن كونراد كان رجلا جبارا، جرّ الآلاف من الأبرياء إلى المشنقة أو المحرقة، وكان يكفى عنده أن يشى جار بجاره بتهمة الهرطقة، فيجر أهل البيت جميعا إلى المشانق، وقد ضج الناس من سياسة القمع التى اتبعها كونراد، حتى أن بعض الأساقفة المعتدلين فى تريت وكولون نصحوا إليه بالاعتدال، ولكن رجلا من طراز كونراد لم يكن يعرف إلى الاعتدال أو التوسط سبيلا فذهب إلى نهاية الشوط.

وقد بلغ به الشطط أن اتهم بعض كبار رجال الدولة والنبلاء بالهرطقة على غير أساس، ومن بين هؤلاء كان كونت ارنزبرج، وكونت لوز (Looz) وكونت ساين (Sayn) فى أراضى تريف، إلا أن النبلاء المتهمين طلبوا من كبير أساقفة مينز أن يعقد مجلسا لفحص القضية معهم، وتدخل الملك الألمانى هنرى فى الأمر، وقد فشل المفتش كونراد فى أن يبرز أدلة قاطعة تدين هؤلاء النبلاء المتهمين، بل إن بعض شهود الإثبات ضدهم أعلنوا للمجلس أنهم قد أجبروا خوفا من بطش كونراد على تلفيق الاتهامات ضد هؤلاء النبلاء.

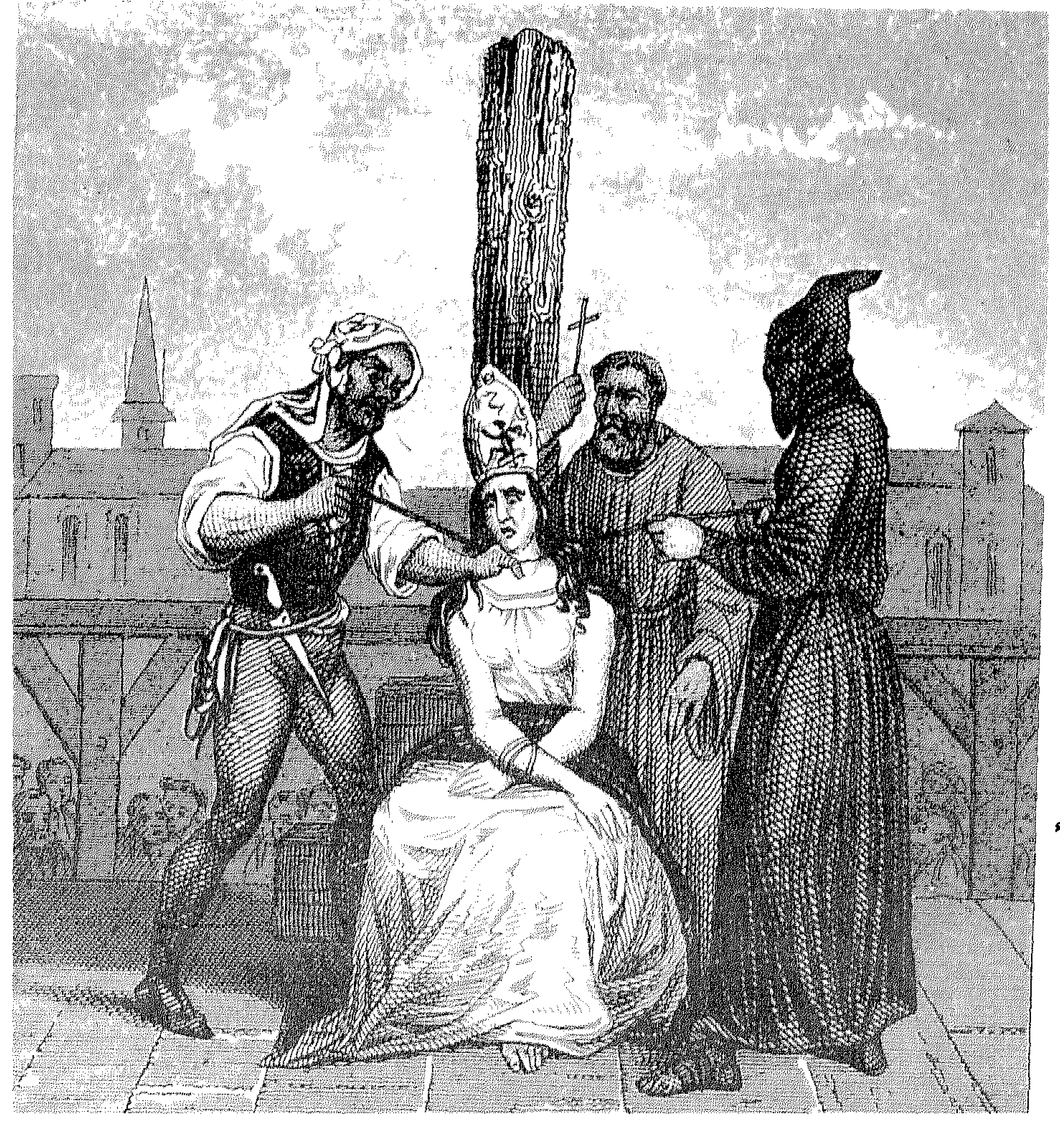
وهاج المجمع، وطالب بعض الأعضاء محاكمة كونراد المفتش نفسه، وقاطع كونراد المجمع، وراح يبشر بحملة صليبية ضد «الهراطقة»، فى شوارع مينز، ولما أن أصيب بالفشل قفل راجعا هو وزبانيته إلى مربورج، وعند أطراف البلدة هاجمه بعض النبلاء وأوقعوا به فى كمين نصبوه له (٣٠ يوليو ١٢٣٣)، وتنفس الألمان الصعداء.

وفى سنة ١٢٤٨ نسمع عن نشاط «والدانى» (أتباع والدو) فى مرتفعات سوابيا وپساو (Passau)، وقد بلغ عدد المدارس المجمعة لأبناء الوالدانيين فى پساو ٤١ مدرسة، وكلهم من العمال والفلاحين. وقد بلغ عدد الوالدانيين فى النمسا سنة ١٣١٥ قرابة ٨٠,٠٠٠.

وفى سنة ١٣١٨ قام «الأطهار» باغتيال المفتش الدومنيكانى المدعو أرنولد عند بلدة كرمز (Krems)، غير أنه فى سنة ١٣٩٢ تم إحراق ٣٦ والدانيا فى بلدة بنجن (Bingen)، وفى سنة ١٣٩٧ قبض على ألف من الوالدنيين وأودعوا السجن فى بلدة ستاير (Steyer)، ثم تم شنق مائة منهم.

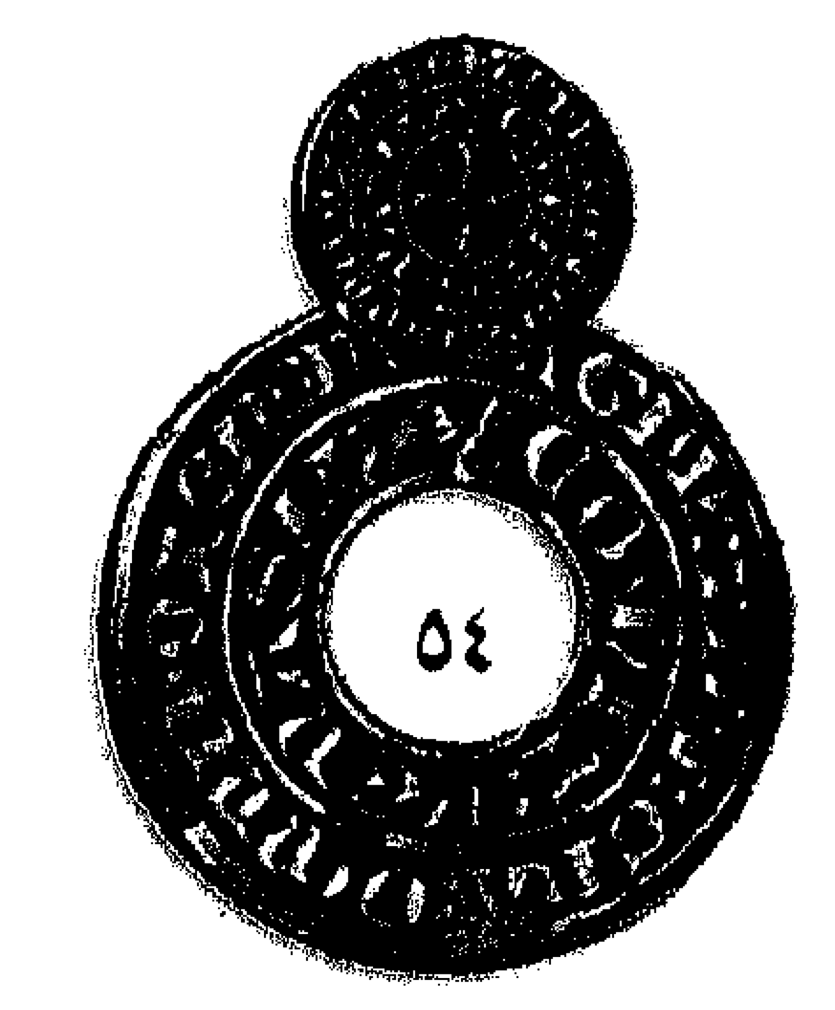
وقد عجزت محاكم التفتيش - رغم إرهابها ومذابحها - أمام الأطهار، إلى حد أنها استنجدت بالفيلسوف دون سكوتوس (Don Scotus) ليجادل كبارهم فى ألمانيا.

كذلك نشطت محاكم التفتيش فى ألمانيا ضد جماعتى «النسوة الطاهرات» (Beguins) و«الرجال الأطهار» (Beghardians) فى ألمانيا، وفى نفس الوقت تعرض رفاقهم فى باريس لأشنع أنواع الاضطهاد، فقد قبض على مارجريت بوريت (Porete) من هينولت وأحرقت حية، وتشردت جماعة «النسوة الطاهرات» فى باريس، وألقى بالفتيات القانتات إلى قارعة الطريق من دور طهرهن. وقيل: إن عددا من هؤلاء الفتيات قد اضطررن إلى احتراف البغاء لسد رمقهن.



لم تسلم النساء من محاكم التفتيش





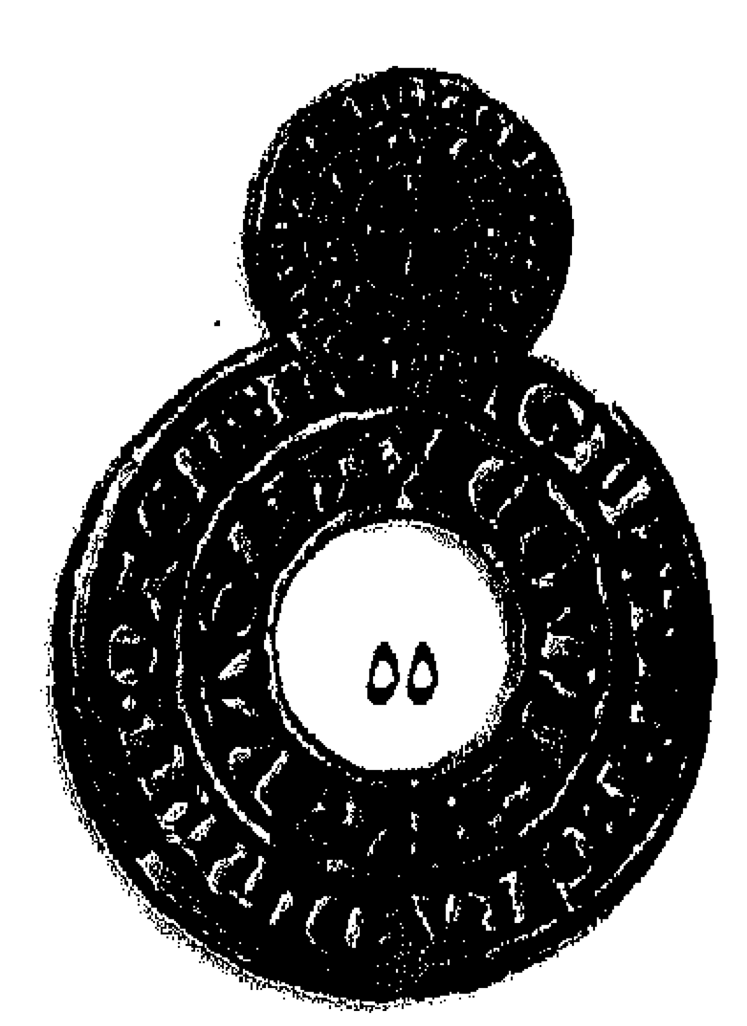
لا ينكر أحد أن تعاليم والدو والأطهار والجماعات الأخرى التى سبق الحديث عنها قد مهدت الطريق نحو الإصلاح (Reformation) الدينى فى غرب أوربا. وقد بدأت حركة الإصلاح - دون جدال - بالأطهار وتقوت بروادهم جون ويكلف (Wyclif) الإنجليزى، وجون هس (Huss) التشيكى، وساڤونا رولا فى إيطاليا. ثم اكتملت الحركة بظهور مارتن لوثر فى ألمانيا، وجون كالڤن (Calvin) فى فرنسا:

جون ويكلف:

اتخذ جون ويكلف اسمه من بلدة وكلف (Wiclif) فى يوركشير، وهى جزء من رتشموند التى كانت تحت سيطرة بيت لانكستر. حصل ويكلف على درجة الدكتوراه فى اللاهوت سنة ١٣٧٢ من كلية باليول بجامعة أكسفورد. وفى سنة ١٣٧٤ منحه التاج الإنجليزى قطعة أرض فى لتروزر (Lutterworth) كهبة من الملك إدوارد الثالث، بعد أن سمع بشهرة ويكلف كرجل لاهوت متبحر. ثم أوفده إدوارد الثالث ضمن بعثة إلى بلدة بروج (Bruges) لمقابلة المندوبين البابويين لتسوية بعض الأمور المختلف عليها بين التاج الإنجليزى والبابوية. والواقع أن الملك الإنجليزى رفض أن يدفع الضريبة التى اعتادت إنجلترا على دفعها للخزانة البابوية منذ عهد الملك جون سنة ١٢١٥، وقد فشلت البعثة فى مهمتها، وعاد ويكلف إلى أكسفورد.

وفى رحاب أكسفورد عكف ويكلف على بحث قضية العصر ألا وهى العلاقة التى ينبغى أن تكون بين صاحب الجلالة والكاهن الأكبر.

ولعل أهم فكرة طرقها ويكلف هى مسألة الملكية (dominion): والرأى عنده أن السيادة والملكية أصلا هى حق الخالق سبحانه وتعالى وحده. أما البشر - أمراء كانوا أم بابوات - فإنهم عندما يتصرفون فى هذه الملكية (الأرض) فإنهم يقومون بهذا بتكليف من السماء، على أن تكون العدالة هى رائدهم فى ذلك. ويرى ويكلف أن جميع الأفراد فى أى مجتمع هم أصحاب حق طبيعى فى نصيب من هذا «الكرم السماوى»، متمثلا فيما تغله أرض المسكونة من خيرات. ولقد كانت الأرض - كما يؤكد هذا المعلم – ملكا مشاعا بين كافة الناس قبل السقطة الكبرى لآدم، إلا أن الخطيئة هى التى جلبت على العالم رذيلة الملكية الخاصة وتكالب بنى آدم على الأرض. ولا ينكر ويكلف على الكنيسة حقها فى أن تملك بعضا من هذه الأرض، على أن يتم هذا بموافقة الأمير أو الملك.



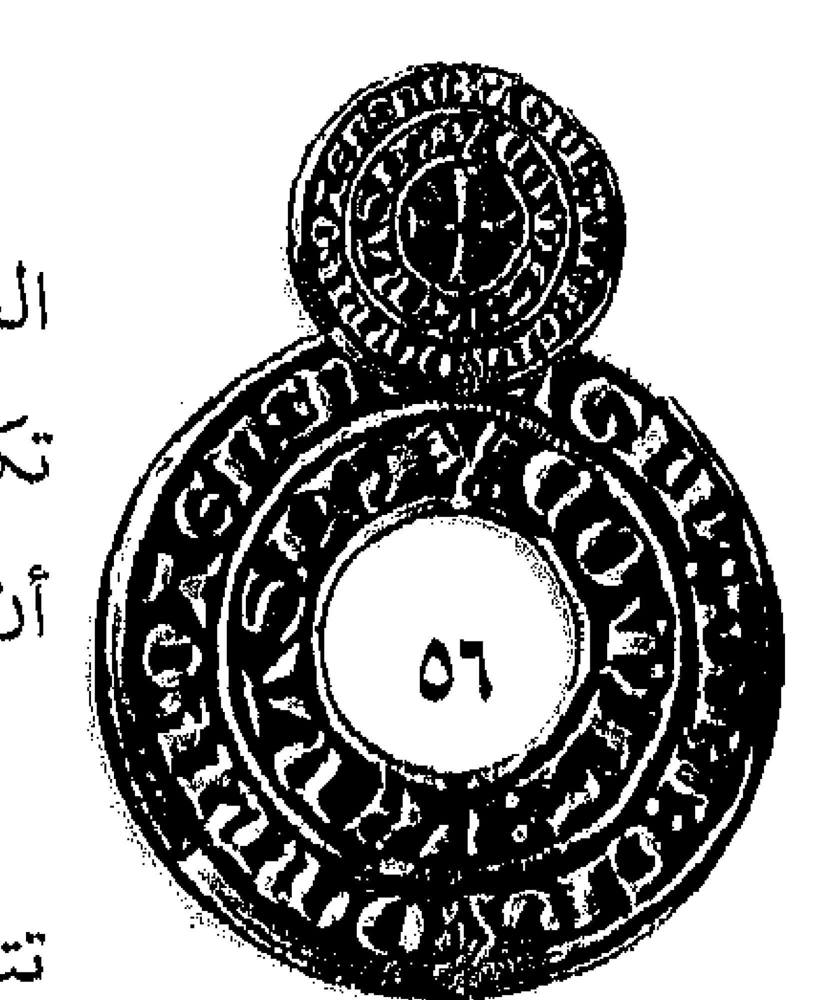
ولقد رحب نبلاء إنجلترا بآراء ويكلف؛ لأنهم فى حقيقة الأمر كانوا يتنمرون لابتلاع بعض الأراضى التابعة للكنيسة فى إنجلترا، وخاصة أن هذه الكنيسة كانت على درجة وافرة من الثراء.

وفى سنة ١٣٧٦، طلب من ويكلف الحضور إلى لندن لكى يشرح نظريته أمام المسئولين وبعض كبار رجال الدين الإنجليز. وهلل الوزراء والنبلاء لجرأة هذا اللاهوتى الحر، إلا أن الأسقف وليم كورتيناى انزعج من ذلك، وطلب من ويكلف المثول أمامه لكى يناقشه.

وذهب ويكلف لملاقاة الأسقف، وأصر دوق لانكستر - جون من غنت - أن يذهب مع ويكلف لحضور المقابلة، وكان أن انتهت المقابلة بمعركة صاخبة بين الأسقف من ناحية وبين ويكلف ودوق لانكستر من ناحية أخرى.

ثم بادر كبار رجال الدين فى إنجلترا بإرسال أخبار عن نظرية ونشاط ويكلف إلى البلاط البابوى فى روما. وكان البابا جريجورى الحادى عشر ما فتئ أن عاد بعد أن تحرر من «الأسر البابلى» فى أفنيون إلى مدينة روما العتيدة، فأرسل إلى إنجلترا يطلب القبض على ويكلف ومحاكمته بسبب آرائه المتطرفة.

اضطهاد الكاثوليك للهراطقة فى إنجلترا



وعندما وصلت رسالة البابا كان الملك إدوارد الثالث قد توفى، وآل العرش إلى الطفل ريتشارد الثانى تحت وصاية والدته أميرة ويلز. وقد تكفلت الملكة الأم ببسط الحماية على ويكلف، ولكن الأساقفة أصروا على أن يمتنع ويكلف عن الوعظ ونشر آرائه.

بعد هذه المرحلة، أضاف ويكلف إلى نظريته أبعادا أخرى خطيرة تتصل بجوهر العقيدة، فقد قال بأن الخبز والخمر على مائدة القربان الكنسى لا يتحولان بحال إلى جسد ودم المسيح. وإن كان للمسيح حلول فى سر التناول، فإنما هو حلول روحانى وليس بالحلول المادى. ونظرا لخطورة هذا الرأى، انزعج الكثيرون فى إنجلترا، وتراجع نفر من اتباع ويكلف نفسه. أما دوق لانكستر ـ وهو المدافع الأكبر عن ويكلف ـ فقد انزعج بدوره، وراح يتنصل من صديقه اللاهوتى «المتهور». ولما أن انفض القوم من حول ويكلف، صار من السهل على الأسقف وليم كورتيناى أن يحصل على إدانة لآراء ويكلف، وتم طرده من جامعة أكسفورد هو وأتباعه.

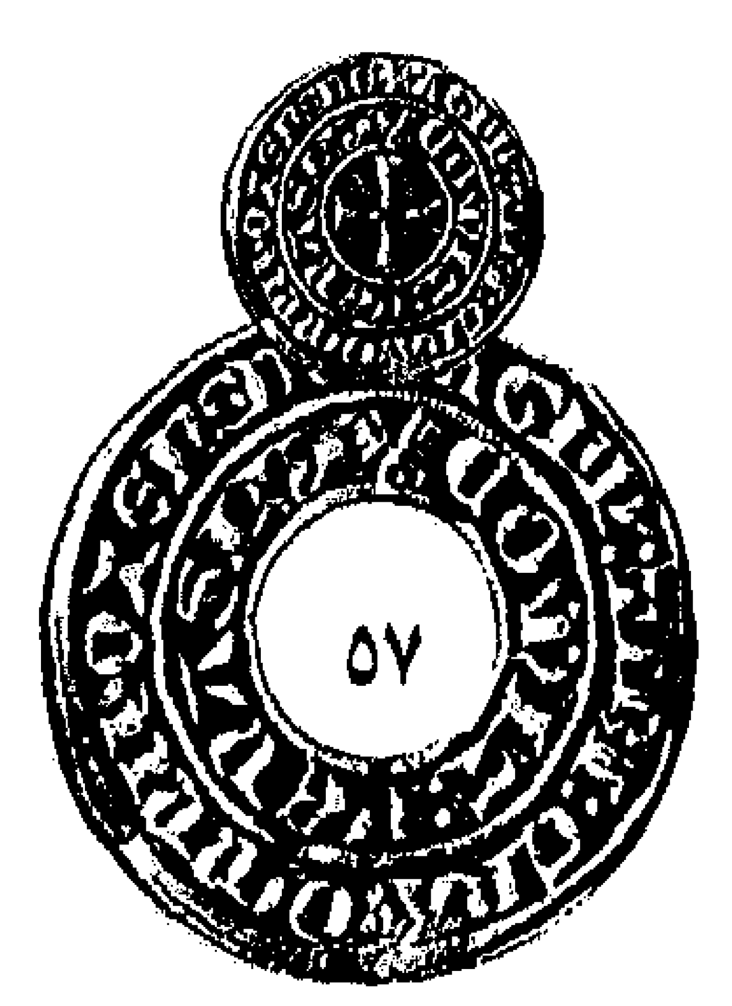
وتوارى ويكلف فى أرضه عند لترورز، وتوفى فيها بعد سنوات قلائل.

وقد نادى ويكلف بعدة آراء أخرى، من بينها إيمانه الشديد بالقدرية، فالبعض قدر لهم الخلاص، والبعض الآخر كتبت عليهم التهلكة، وأن البابا ـ فى أغلب الظن ـ على رأس الفريق الثانى. والكنيسة ورجالها ـ عند ويكلف ـ مؤسسة منافقة لا يوجد ما يبرر وجودها، لأن الصلة بين العبد وخالقه يمكن أن تتحدد بالاسترشاد بما ورد فى الكتب المقدسة، دون الحاجة إلى تجار الدين والكهانة والأوصياء؛ ولذلك فإن ويكلف وتلاميذه قد عمدوا إلى إخراج ترجمات باللغة الإنجليزية للأناجيل، حتى يتحرر الإنجليز من أغلال اللاتينية، وحتى تصبح الكتب المقدسة فى متناول البسطاء من القوم بلغتهم التى يفهمونها.

وجدت آراء ويكلف صدى شعبيا كبيرا فى إنجلترا، وراح فريق ممن آمنوا بآرائه يطوفون أرجاء البلاد وينشرون هذه التعاليم.

وقد أطلق عليهم المعاصرون لقب «لولارد» (Lollards)، إشارة إلى تشابه آرائهم مع آراء اللاورديين فى القارة ـ كما سبق وأشرنا إليهم. وتطورت اللولاردية فى إنجلترا، فصارت مذهب الكادحين والعمال والثوار على ظلم العصور الوسطى؛ ولذلك فإن الملك ريتشارد الثانى أمر بالقبض عليهم وإيداعهم السجون.

وفى عهد هنرى الرابع، صدر قرار ملكى يحرم اللولاردية بالقانون، وقدم نفرا منهم للمحاكمة وأحرقوا بالنار. وسارت الأمور على هذا المنوال من القمع والإرهاب فى عهد الملك هنرى الخامس، وفى سنة ١٤١٧ قبض على زعيمهم جون أولدكاست (Oldcaste) وأعدم!

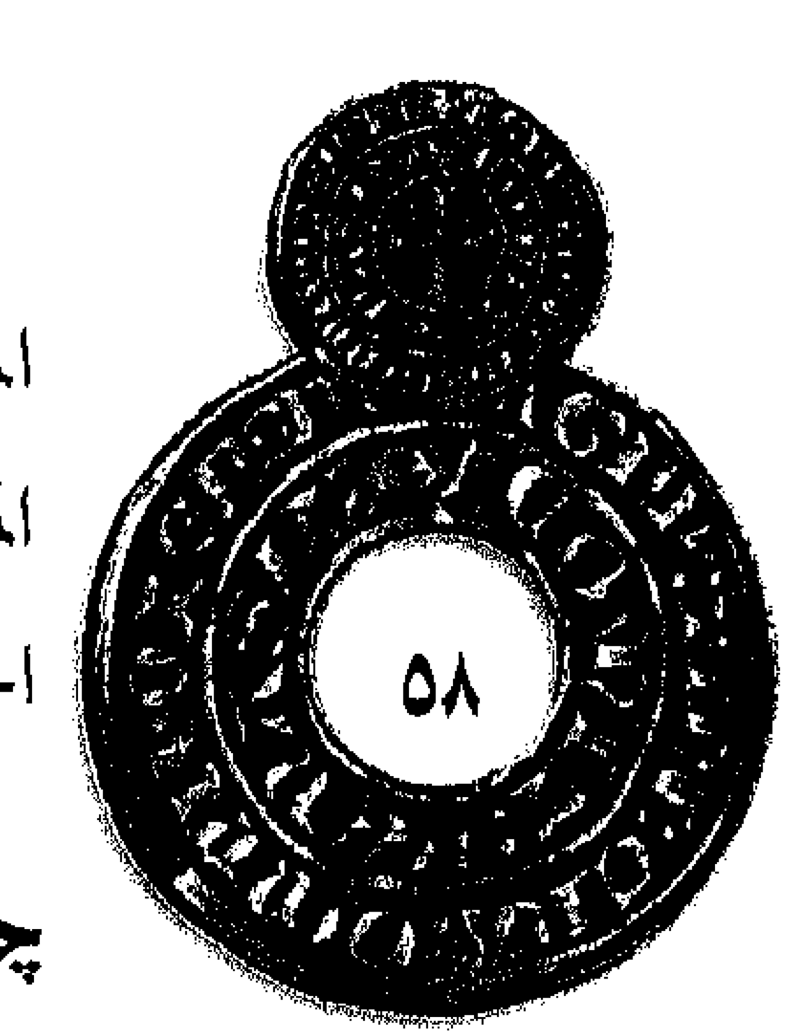


انتقلت آراء ويكلف من إنجلترا إلى القارة الأوربية فى نهاية القرن الرابع عشر. وتفصيل ذلك أن الأمير ونسزلار (Wenceslas) أكبر أبناء الإمبراطور شارلس الرابع الذى توج ملكا على بوهيميا (١٣٧٨ - ١٤١٩)، كان قد زوج أخته آن (Anne) من الملك الإنجليزى ريتشارد الثانى. وقد انتقل مع الأميرة آن عدد وافر من الدارسين للالتحاق بجامعات إنجلترا وعلى رأسها جامعة أكسفورد.

هنالك تعرف أبناء بوهيميا على آراء جون ويكلف. وفى سنة ١٤٠١ نقل جيروم من براغ تعاليم ويكلف برمتها إلى بوهيميا.

والواقع أن الإمبراطور شارلس الرابع كان قد أولى مملكة بوهيميا اهتماما خاصا، فأسس فيها سنة ١٣٤٧ جامعة براغ، وسرعان ما غدت هذه الجامعة الفتية مركزا علميا مرموقا فى أوربا، فغصت بالدارسين من مختلف البلدان: من بولندة وبڤاريا وسكسونيا وبوهيميا، وقد أبدى أبناء تشيكوسلوڤاكيا على وجه الخصوص تفوقا واضحا فى دراساتهم.

جيش هنرى الرابع يقبض على الهراطقة (لاحظ الملك يطل من النافذة)



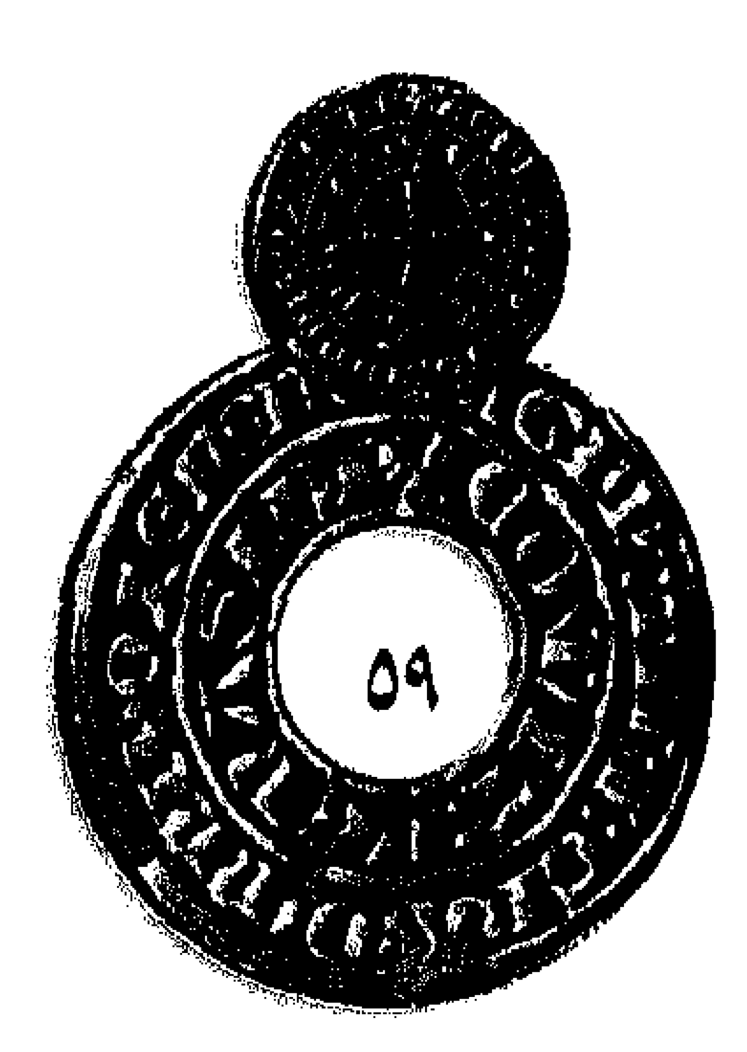
ولما أن راجت آراء جون ويكلف فى أورقة جامعة براغ انزعج المسئولون، فقدموا توصية إلى مجلس الجامعة بضرورة إدانتها، وأدان المجلس هذه الآراء، ولكن فريقا من الدارسين ضرب برأى الجامعة عرض الحائط، وكان على رأسهم المصلح جون هس.

چون هس

ولد هس سنة ١٣٧٠ فى قرية هوزنك (Husinec)، وحصل على درجتى الليسانس والماچستير فى ١٣٩٣و ١٣٩٦ تباعا. وكان هس شابا متحمسا لقضايا الإصلاح الكنسى، كما كان واعظا مفوها، ومؤلفا مجيدا للترانيم الدينية. وكانت جماعة من المتحمسين فى تشيكوسلوڤاكيا قد أسست كنيسة فى براغ عرفت باسم «كنيسة بيت لحم»، وكان الاهتمام فيها ينصب على التبشير بحياة البساطة المسيحية الأولى، وفى سنة ١٤٠٢ عين هس واعظا لهذه الكنيسة.

نادى هس ـ كما نادى ويكلف من قبل ـ بأن قربان وخمر التناول لا يتحولان إلى جسد ودم السيد المسيح، كما أنه شدد على أن الكاهن الآثم لا حق له فى أن يقود الصلاة أو يؤدى مراسيم

كاتدرائية مدينة «براج» التى شهدت أحداث ثورة «هس»



التناول. وقد لاقت تعاليم هس حماسا زائدا، والواقع أن هذه المشاعر تعكس إحساسات الشعوب السلافية فى مقاومتها للعنصر الجرمانى الغالب عليها والمتحكم فى أمور سياساتها.

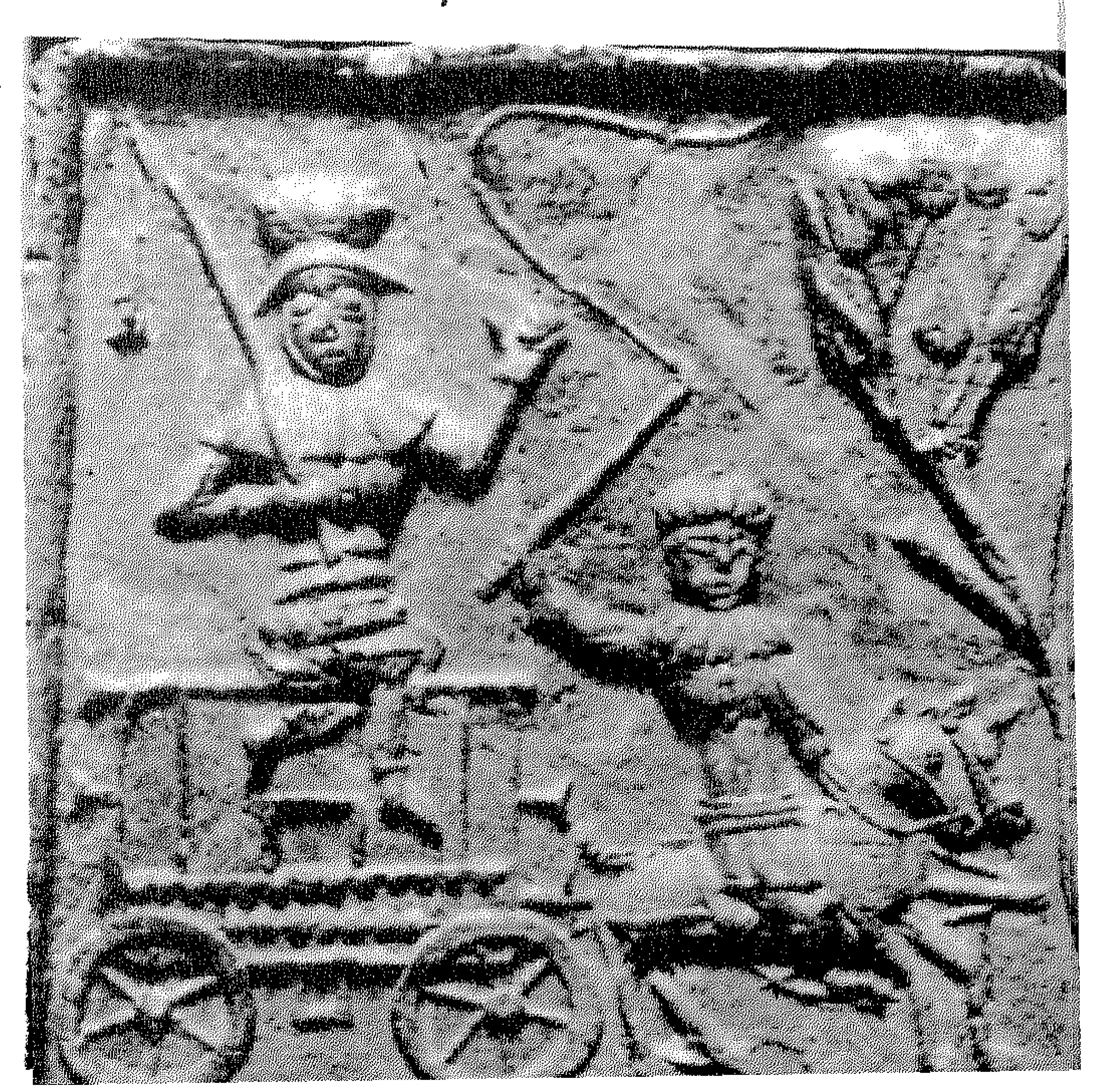
وقد جرت التقاليد فى جامعة براغ ـ عند الاقتراع على القرارات أن تدلى كل طائفة من الطوائف الأربع من ممثلى جنسيات الطلاب بصوتها لاتخاذ القرار أو إبطاله.

وكانت الغلبة دائما للسكسون والبڤاريين والألمان ضد أبناء وممثلى بوهيميا. وفى حين تعصب الألمان للكنيسة الرومانية، تبنى البوهيميون قضية ويكلف وهس.

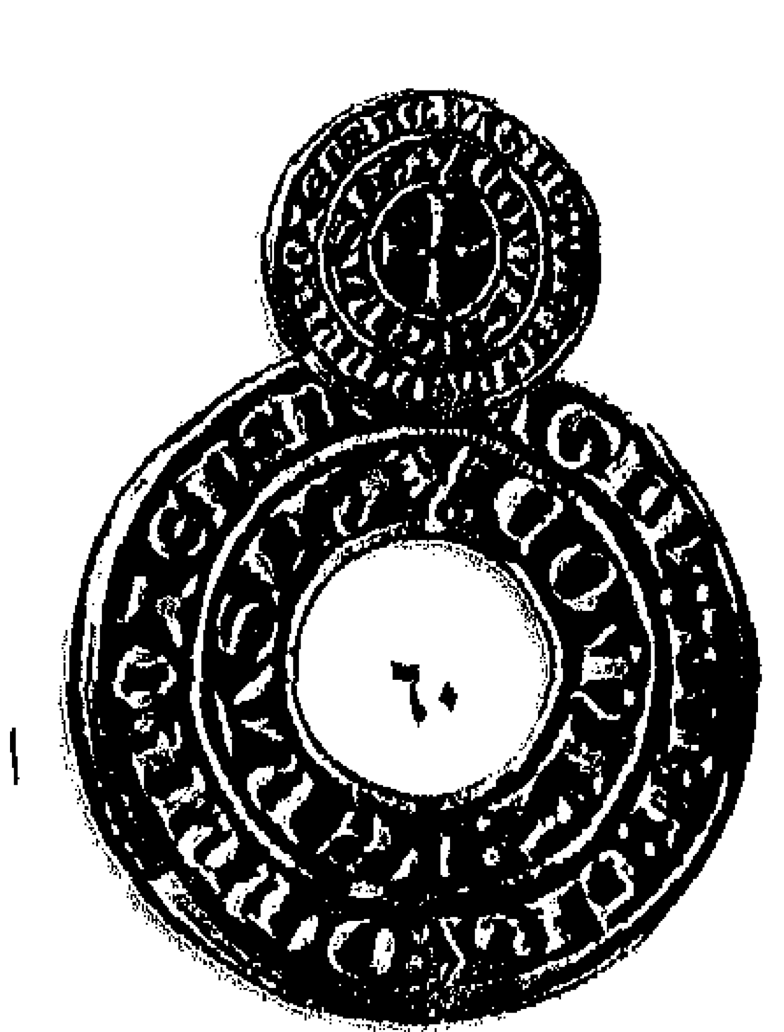
وكافح البوهيميون لتعديل لائحة الجامعة، حتى تقرر لهم ثلاثة أصوات، بينما بقى لجميع الطلاب الأجانب عن البلاد صوت واحد، عند الاقتراع. وعند هذا التغير فى الأحوال، أخذ الطلاب الألمان يهجرون جامعة براغ (سنة ١٤٠٩) وأسسوا لأنفسهم جامعة فى ليبزج. وارتاح أهالى بوهيميا من شغب الطلاب الألمان، وأيضا من جشع التجار الألمان الذين كانوا فى معية الطلاب من بنى جلدتهم.

ولما أن انتشرت آراء ويكلف وهس، انزعجت البابوية، فأرسل البابا إسكندر الخامس أمره إلى كبير أساقفة براغ يأمره بإحراق كتب ويكلف، وبإرهاب أتباع جون هس. وقد قام كبير الأساقفة واسمه زبنيك (Zbynek) بتنفيذ أوامر البابا فى يوليو ١٤١٠.

وقد ظهرت ردود الفعل ضد كبير الأساقفة فى كثير من أشعار الثوار، من بينها قصيدة فى هجاء كبير الأساقفة زبنيك، كتبت باللغة المحلية وتقول:



نحت بارز يصور هس يركب عربته. وُجد فى براغ



«إن نيران كبير الأساقفة زبنيك

هى جمر الشرف لأبناء التشيك»

وانعكست كراهية رجل الشارع للبابوية ورجلها فى براغ كبير الأساقفة فى أغنية شعبية تقول:

«زبنيك أسقف يعرف القراءة

ولكنه مصر على إحراق الكتابة

لجهله بما تحويه من معان خلابة».

وفى سنة ١٤١٢ وقع البابا يوحنا الثالث والعشرون فى صدام مع لادزلاس ملك نابلى، وقررت البابوية شن حرب «صليبية» ضد مملكة نابلى. ولكن البابوية كانت تحتاج إلى مال وفير لتمويل هذه الحملة الصليبية، ومن ثم فإنها أقدمت على بدعة خطيرة فى تاريخ الكنيسة، ألا وهى بيع «صكوك الغفران» لمسح كل الخطايا والآثام بالمال، واكتملت المهزلة البابوية بهذا القرار!!

كان جون هس أول من ندد ببيع صكوك الغفران للآثمين؛ لأن فراديس النعيم لا تورث بالرشوة والربح الحرام. وقال هذا المصلح: «إن دل هذا على شىء فهو إنما يشير إلى إفلاس البابوية ماديا بعد أن أفلست معنويا». وعندما التفت الجموع حول هذا المبشر الثائر، أمسك بقرار البابا عن الغفران وأحرقه بالنار.

والواقع أن البابا يوحنا الثالث والعشرين كان واحدا من ثلاثة بابوات يتكالبون للجلوس على عرش البابوية، وقد رأى الناس فى مسلك الكهنة الثلاثة وفى نزاعهم وتكالبهم على المنصب وما يدره على جيوبهم من فضة وذهب صورة قميئة للكرسى الرسولى فى روما.

وأثناء ذلك كان مجمع كنسى كبير ينعقد فى مدينة كونستانس لتدارس أمور الكنيسة الرومانية ولحسم النزاع بين البابوات الثلاثة المتناحرين. وقد وجه المؤتمرون أمرا إلى جون هس بالمثول أمام المجمع (نوفمبر ١٤١٤). وكان الداعى إلى هذا المجمع أصلا الملك سجسموند، وريث الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكان حريصا على إتمام الصلح بين البابوية وبين جون هس. وقد حث الملك سجسموند جون هس على الظهور أمام المؤتمر، بعد أن أكد له الحفاظ على حياته وسلامته.

وقصد جون هس إلى المجمع فى كونستانس، ويشبه الكتاب هذا اللقاء بين جون هس وكرادلة روما وسيدهم يوحنا بمواجهة بين عالمين: العالم الوسيط وعالم الفجر الجديد.

حكم الكرادلة فى المجتمع بإدانة هس وبسجنه بسبب آرائه المهرطقة، وألقى بالرجل فعلا فى السجن. ولكن الملك سجسموند بعد أن توج إمبراطورا فى آخن، هرع إلى كونستانس وأمر بإطلاق سراح هس من السجن، إلا أن الكرادلة ونفرا من أتباع سجسموند نصحوا له بالتخلى عن جون هس؛ حفاظا على سلامة المجتمع ووحدة العقيدة تحت لواء سيد الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وحذروه بأنه ليس من الحكمة أن يحطم كل شىء فى سبيل الحفاظ على حياة «هرطيق». وانصاع سجسموند للناصحين، وبقى جون هس فى السجن.

ولكن سجسموند بقى فى كونستانس يرقب أعمال المجمع عن كثب، وخاصة عندما طرحت قضية البابوات الثلاثة المتنازعين على كرسى روما. وهنا شعر البابا يوحنا الثالث والعشرون بأن أمره قد ينكشف، ففكر فى حيلة ينسحب بها سرا من كونستانس حتى لا يواجه سجسموند ولا أعضاء المجمع من خصومه، فدبر يوحنا ـ بمعونة حليفه فردريك صاحب التيرول (Tyrol) حفل مبارزة فى كونستانس، ولما أن تجمع الأهلون حول هذه المبارزة للمشاهدة والهرج، تنكر البابا يوحنا فى زى حارس للخيل وهرب إلى حصن شافهاوزن (Schaffhausen) التابع لبيت هابسبورج من أصدقائه.

وفى اليوم التالى اكتشف المجمع هروب يوحنا، فساد الهرج فى ردهاته وأروقته، وما لبثت شوارع المدينة أن اكتظت بالغوغائية ومظاهرات الساخطين، إلا أن الملك سجسموند بادر فقمع الفتنة بالسيف، وأرسل جيشا قبض على البابا يوحنا الثالث والعشرين وحليفه فردريك، واقتيد البابا ذليلا إلى مجمع كونستانس، حيث استؤنفت الجلسات، ثم قرر المجتمعون خلع يوحنا الثالث والعشرين (٢٩ مايو ١٤١٥).

ثم استدعى جون هس من جديد لإعادة النظر فى قضيته. وكان الكرادلة فى



حرق «چون هس» أمام أتباعه – رسم قديم



المجمع قد دبروا له شركا شيطانيا: فسألوه ـ أمام الإمبراطور سجسموند ـ عن رأيه فيمن يرتكب معصية من رجال الدين؛ فرد هس بأن هذا العاصى يستوجب العزل من منصبه الدينى، ثم سأله الكرادلة عن رأيه فيمن يرتكب نفس المعصية من الأمراء والملوك، فرد الرجل بأن الملك العاصى أيضا يستوجب الخلع عن العرش. وهنا شعر الملك سجسموند بحرج شديد أمام أعضاء المجمع، وفتر حماسه لقضية جون هس، وقرر أن يركله نهائيا.

وفى اليوم الثالث من المحاكمة، أخذت الأصوات، وكان الملك سجسموند أول من وافق على الحكم على جون هس بالإعدام!

واقتيد الرجل إلى بقعة عند أسوار المدينة وتم إحراقه فى ٦ يوليو ١٤١٥.

على أن إحراق هس لم يحرق أفكاره الثورية، فقد ظلت تعاليمه متأججة فى وجدان السلاف فى بوهيميا، كما أن مشاعر القوم كانت تغلى بالغضب ضد الألمان وملكهم الغادر سجسموند. وتألف حزب من أتباع جون هس، بزعامة واحد من أبناء موطن هس الأصلى اسمه نيقولا من هوزنيك وجون زسكا (John Ziska) الجندى المرموق. ثم ظهرت جماعة أخرى تدين بآراء هس وعرفت باسم «أبناء براغ» (سنة ١٤٢٠) وطالبوا بعدة إصلاحات كنسية أهمها:

١- عدم قصر الوعظ على الكهنة.

٢- التناول حق لجميع الناس.

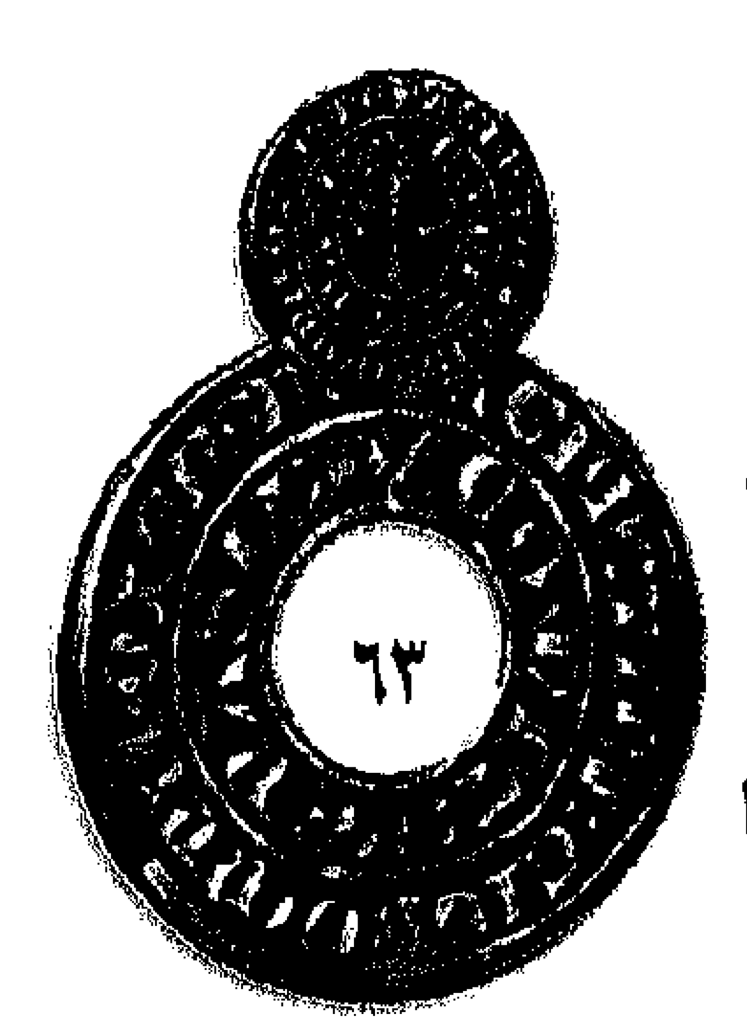
٣- طرد رجال الدين من الوظائف العلمانية.

٤- تجريد رجال الدين من الملكية الخاصة.

٥- خضوع رجال الدين للقانون العام.

ثم ظهرت فرقة أخرى أضافت إلى ما سبق من تعاليم ضرورة إزالة النظام الملكى واستبداله بحكم جمهورى.

ولم ينس أهل بوهيميا الموقف الخسيس الذى وقفه الملك سجسموند ضد زعيمهم جون هس فى مجمع كونستانس؛ ولذلك فإنه عندما توفى ملك بوهيميا ونزل (Wenzel) سنة ١٤١٩، عين سجسموند شقيقه ملكا على بوهيميا، ولكن شعب بوهيميا أعلن الثورة ووقفوا ضد سجسموند وشقيقه، وهنا ضرب سجسموند حلفا مع البابا مارتن الخامس (سنة ١٤٢٠)، وبشر البابا بحملة صليبية ضد أتباع هس فى بوهيميا، وتألفت الحملات الصليبية لقمع أهالى بوهيميا، وكان قوامها من الفرسان الألمان.



ودارت الحرب بين الصليبيين الألمان وبين أهالى بوهيميا، وأثبت القائد زسكا أنه جندى من الطراز الأول، فقد زود عربات الأمتعة للمحاربين البوهيميين بالمدافع، فحدثت المعجزة وطوق أتباع هس الحملات الصليبية مرات ثلاث وطردوهم من بلادهم (١٤٢٠، ١٤٢١، ١٤٢٢).

وتوالت الحملات الصليبية على بوهيميا سنة ١٤٢٧ ولكنها جميعا منيت بالفشل.

وأخيرا فى مجمع بازل المنعقد سنة ١٤٣٢، سوى الموقف بين أتباع جون هس وبين سجسموند والكنيسة الرومانية. وقد عرف هذا الاتفاق باسم Compactata: وبمؤداه سمح للعلمانيين بالقيام بالوعظ والتبشير، ولكن سيام الكهنة بقى من حق السلطات الكنسية فقط، كما احتفظ للأساقفة بمكانتهم القديمة فى الولاء والطاعة، إلا أن المجمع أقر محاكمة رجال الدين المذنبين، على أن يكون هذا وفقا للقانون الكنسى، كذلك أبقى للكنيسة على حق الملكية الخاصة.

وغضب نفر من أتباع جون هس المخلصين على هذا الاتفاق، فانقسم الحزب على نفسه، ودارت بين الطرفين حرب أهلية مريرة، انتصر فيها فريق من مجمع بازل وأذل أتباع جون هس الراديكاليون فى سنة ١٤٣٤ فى موقعة ليبان Lepan.

ولكن أثر جون هس بقى ليفجر بعد ذلك مزامير الانتقام اللوثرية!

بعد أن التهمت نيران الكنيسة الرومانية جسد جون هس المصلح، كانت نار أخرى تضرم فى شمال إيطاليا لابتلاع رائد آخر من رواد الإصلاح ألا وهو ساڤونا رولا.

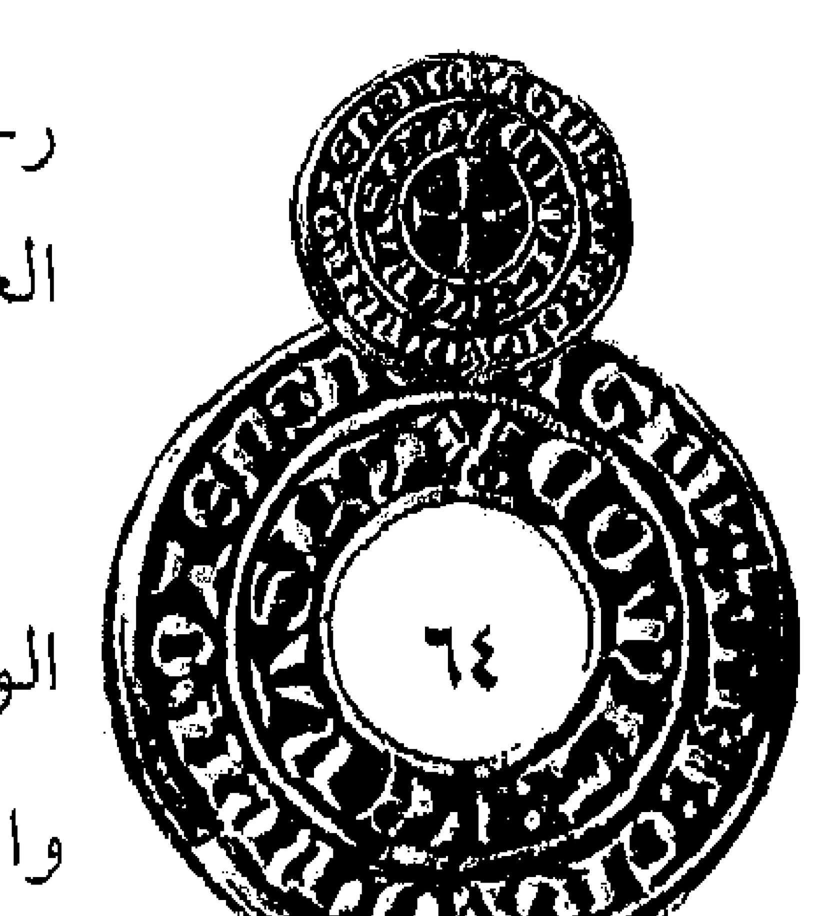
ساڤونا رولا:

والحق أن إيطاليا كانت أسبق الدول الأوربية سعيا إلى الانعتاق من ظلام العصور الوسطى وطغيان البابوية والتطلع إلى عصر فجر جديد.

ولقد ساهم فى ذلك السعى إلى التحرر تلك التقاليد الجمهورية للمدن الإيطالية الشمالية وحرصها على استقلالها ودساتيرها، إلى جانب نقابات العمال والحرفيين التى نشأت بعد كفاح مرير، وأخيرا بفضل انتعاش الأحوال الاقتصادية فى هذه المدن التجارية العريقة، وقد دأب أمراء تلك المدن على تشجيع الآداب والفنون والفلسفة، كما وأنهم



«ساڤونا رولا» - نحت بارز



رحبوا بعلماء بيزنطة الفارين من وجه الغزو العثمانى لبلادهم، فنشر هؤلاء العلماء علومهم وأخذوا فى بعث الكلاسيكيات من الأكفان.

على أن إيطاليا ما أن أخذت بأساليب التحرر من عقلية العصور الوسطى لكى تأخذ بيد بلدان أوربا جميعا فى غسل أدران التبربر والقنية والإقطاع والصليبيات ومحاكم التفتيش وإيجاد المصالحة بين حرية الفرد وحق المجتمع، وحث الشباب على دراسة القانون والفلسفة وتذوق القيم الجمالية والاعتراف بقيمة الإنسان الفرد من حيث هو، حتى قدر لها أن تنال جزاء سنمار، فتمسى فريسة لضربات أولئك السادة الذين كانت تهم لقيادتهم - بالفكر - من دياجير الظلمة إلى نور النهضة!.

كانت جمهوريات المدن الإيطالية تخضع لأسر نبيلة متعددة:

فكان آل مدتشى يحكمون فلورنسا، وآل سفورزا فى جنوة، وبيت بنتيڤوجليو فى بولونا، وكذلك كانت الحال فى سيينا ولوكا وبقية المدائن. وكان يخفف من سطوة هؤلاء الحكام تلك النسمة الحرة فى تشجيعهم للفنون والآداب والعلوم وإحياء التراث القديم.

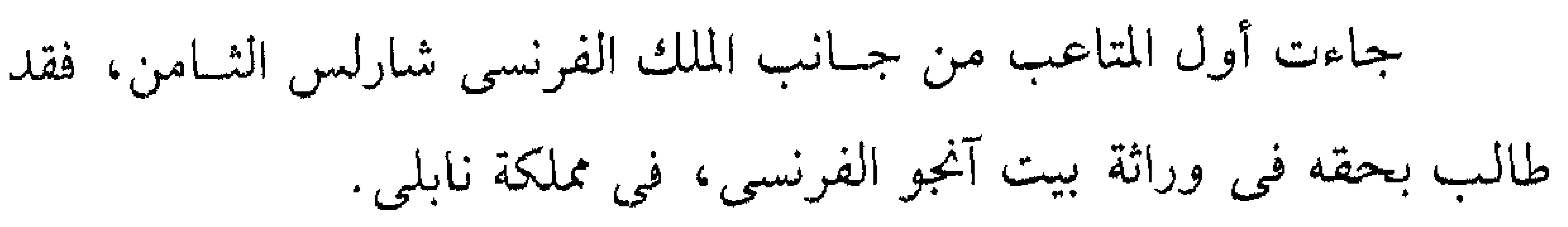
على أن أهم ما كان يقلق بال الإيطاليين جميعا أنهم وجدوا أنفسهم محاطين فى نهاية القرن الخامس عشر بعدة قوى شرسة تتربص بهم شرا:

ففى فرنسا، بعد أن نجح شارلس السابع فى طرد الإنجليز من بلاده، ورث ابنه شارلس الثامن مملكة قوية آمنة غنية، تملك جيشا قويا، وخزانة مكتنزة بالمال. وكان شارل الثامن يحلم بتحقيق انتصارات للتاج على حساب الإيطاليين.

وفى إسبانيا، بعد أن توحدت البلاد بزواج فردناند صاحب أراغون من إيزابيلا صاحبة قشتالة، وبعد أن ضم الملكان إليهما أرض غرناطة، أخذ التاج الإسبانى يتطلع إلى المغامرة فى القارة الأوربية، أيضا على حساب إيطاليا.

أما الإمبراطور مكسيميليان، فإنه بعد أن وحد الأراضى الواطئة مع كونتية برغنديا - التى ورثها عن زوجته - إلى جانب النمسا، راح يفصح عن أمله فى السيطرة على كل ألمانيا وإيطاليا، ليبعث مجد شرلمان من جديد.

وفى نفس الوقت، زحف النفوذ العثمانى على طول شواطئ الأدرياتيك، وباتت البندقية ونابلى فى خطر داهم.



جاءت أول المتاعب من جـانب الملك الفرنسى شارلس الثـامن، فقد طالب بحقه فى وراثة بيت آنجو الفرنسى، فى مملكة نابلى.

وقد كان شـارلس الثامن ملكا طموحـا حالما، فقد توهم أنه خلـيفة شرلمان، وباعـث مجد الفـرنجة، فـخطط مشـروعا يهدف إلى غـزو مملكة نابلى، ثم الزحف لتحرير القـسطنطينية من أيدى العثمانيين، وأخـيرا قيادة حملة صليبية إلى بيت المقدس!!

هجم شـارلس الثـامن عـلى إيطاليـا فى أغـسطس ١٤٩٤ علـى رأس ٣٦٠٠ فـارس، و٢٠٠٠٠ من المشاة، إلى جـانب عدد وافر من رجال المدفـعية، وفزع أهل المدن الإيطالـية أمام هذا الجيش العرمرم، ففتحـوا للفاتح الفرنسى بواباتهم دون مقاومة، ودانت سافوى ومونت فرات وميلان وجنوة، أما البندقية وفرارا ومانتوا فقد آثرت الحياد.

أما المدن التـوسكانية ودويلات الكنيسة الـرومانية فى الوسط ومدن الجنوب الإيطالى، فـقد ألفت عصبـة لمقاومة الغزو الفـرنسى. كذلك قرر بيترو مـدتشى ـ سيد فلورنسا ـ التـصدى للغزو الفرنسى، نظرا لما كـان يربطه من محالفة مع مملـكة نابلى، وقد وقف إلى جانب فلورنسا مـدينتا سينا ولوكا.

كان سيـد روما فى ذلك الوقت البابا إسكندر السـادس (بورجيا) سيئ السـيرة، والذى كان على صلة نسب مع الفونسو ملك نابلى، فقرر بدوره التصدى للغزو الفرنسى.

واستعد أمراء نابلى للقتـال، فعين الفونسو الثانى شقيقه فـردريك قائدا للأسطول، وشقيقه فرديناند قائدا للجيش البرى.

وأثناء ذلك، كان شـارلس الثامن يزحف قـبالة نابلى عبـر جبال أبنين مـن طريق بارما إلى يونت ريمولى، وهى منطقة جـبلية مقفرة. وما أن وصل الجيش الفـرنسى إلى بلدة سارزانا، حتى قرر بيترو مدتشى الفلورنسى الخروج لملاقاة العدو.

وفى أول اشتباك بين الطرفين، هلك ثلاثمائة من رجال فلورنسا، وأسقط الأمير الفلورنسى فى يده، ولما أن اقتـيد إلى مقام الملك الفـرنسى انهارت أعصابه، فـوافق على تسليم قلاع كل من سارانزا، وسـارزنللو، ولبرافـراتا، وبيزا، والجهـورن إلى العاهل الفرنسـى، وبذلك توطدت أقدام الفرنسيين فى الأراضى التوسكانية.

إلا أن أهل فلورنسا شعروا بأن سيدهم المستبد قد ورطهم فى مأزق لم يكونوا ندا له، ثم ها هو يعود إليهم منهزما وذليلا، وفى اليوم التالى لعودته الذليلة، قصد بيترو مدتشى إلى دار الرئاسة، ولكن الحراس لم يسمحوا له بالدخول إلى الدار، فعاد إلى قصره محتميا بصهره باولو أورسينى.

وبمساعدة آل أورسينى، طاف بيترو وشقيقه فى شوارع المدينة يصرخون صيحة الحرب الخاصة بالمدتشى لاستنفار أتباعهم للقتال. ودوت صرخة «باللى باللى» (Palle! Palle) فى الميادين، ولكن أحدا من الأهلين لم يتحرك.

وأثناء ذلك كان حزب الأحرار (piagnoni) فى فلورنسا بزعامة الراهب الفرانسيسكانى سافونا رولا ينظم المظاهرات، منادية بسقوط آل مدتشى المستبدين. وخشى آل مدتشى على أرواحهم إن هم واجهوا الشعب الغاضب، ففروا من بوابة سان جاللو ثم عبروا الأبنين إلى بولونا، ومنها لاذوا بالبندقية. وبهذا الهروب الذليل ضاع على آل مدتشى سلطانهم على فلورنسا، بعد حكم أبد دام ستين عاما كاملة (١٩نوفمبر ١٤٩٤).

نجح شارلس الثامن فى الدخول إلى مملكة نابلى ظافرا، وقام بإجراء عدة مذابح رهيبة لإدخال الرعب فى قلوب أشياع الفونسو الثانى.

ولكن سيطرة الفرنسيين على معظم أراضى إيطاليا بهذا اليسر، حفز دوق البندقية سفورزا والبابوية ثم ملك إسبانيا والإمبراطور مكسميليان لمناهضة الفرنسيين. وتألف جيش كبير من هذه العناصر ووكلت القيادة إلى ماركيز بلدة مانتوا.

وكان شارلس الثامن - بعد غزوه لمملكة نابلى - قد قرر تعيين جلبرت دى مونبنسيه (de Montpensier) نائبا عنه فى نابلى على رأس نصف الجيش، بينما تحرك الملك عائدا بالنصف الآخر. وفى طريق عودة الفرنسيين تصدى له الإيطاليون عند بلدة فورنوفو وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة. واضطر شارلس الثامن إلى الهروب عبر جبال الألب منكسرا.

وهنا تشجع أهالى نابلى، فهجموا على النائب الملكى الفرنسى جلبرت وأوقعوا به ورجاله هزيمة عند بلدة أتيللا (Atella) (٢٣ يوليو ١٤٩٦).

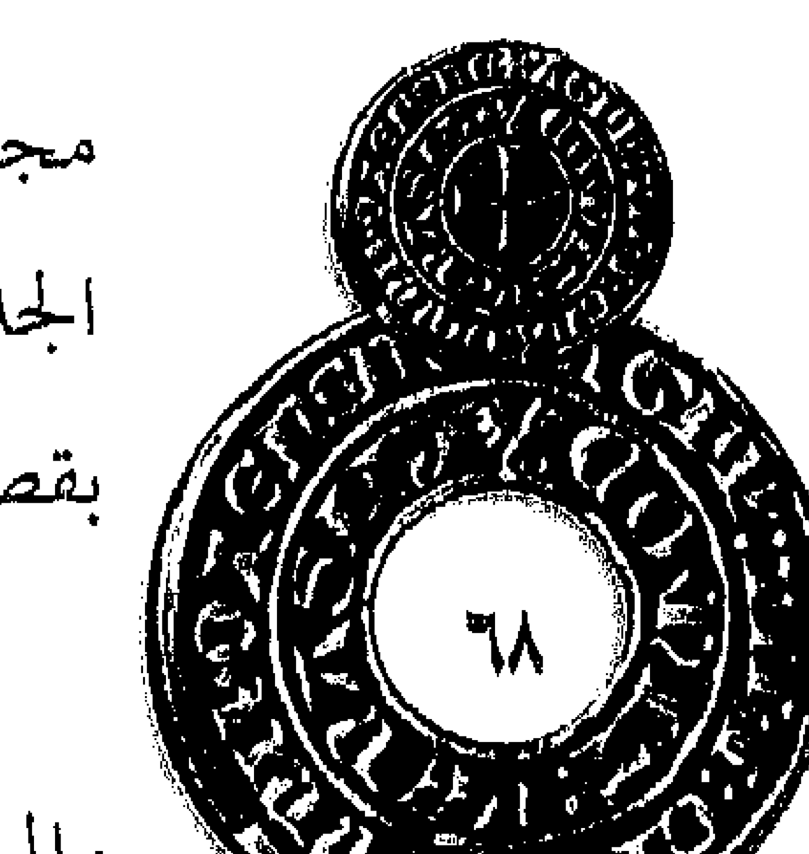
وفى أثناء هذه الأحداث شهدت فلورنسا تطورات خطيرة، فقد كان فى فلورنسا ثلاثة أحزاب: الأول كان يدعو إلى إصلاح الكنيسة وإقامة مجتمع يقوم على مبادئ الحرية والمحبة والمساواة، وعرف هذا الحزب باسم «بيانونى» (Piagnoni)، وكان على رأسه الراهب الثائر جيرولامو ساڤونا رولا (Girolamo Savonarola).

أما الحزب الثانى فقد عرف باسم «آرابيانتى»Arrabbiati، وهم الذين كانوا فى الأصل شركاء لآل مدتشى فى الحكم ثم انقلبوا عليهم. وكان الحزب الثالث يعرف باسم «بيجى» (Bigi)، وهو من أتباع آل مدتشى.

وقد نادى ساڤونا رولا بضرورة أن يتسع برلمان فلورنسا (Balia) لكى يمثل الشعب الفلورنسى جميعا تمثيلا حقيقيا، بدلا من أن يقتصر الرأى على الأحزاب الثلاثة المتناطحة.

وقد استجاب الفلورنسيون لنصيحة ساڤونا، وانتخبوا أول

كاتدرائية سان مارك



مجلس يمثل جميع فئات الشعب فى يوليو ١٤٩٥، وصار من حق المجلس الجديد انتخاب قضاة الشعب، كما أعلن عفوا عاما عن ضغائن الماضى بقصد المؤاخاة بين الفلورنسيين.

والواقع أن الراهب ساڤونا رولا كان يبشر بضرورة السلام الاجتماعى والمحبة واحترام حرية الفرد وفكره، وهو بعد هذا واحد من أهم دعاة الإصلاح الدينى الذين جاءوا من قبل مارتن لوثر (قبله بعشرين عاما فقط)، فقد أكد برنامجه الإصلاحى إرساء كوادر أخلاقية لرجال الدين، وحث على ضرورة اتباع تعاليم الكتاب المقدس. وكان ساڤونا شديد الإيمان برسالته، إلى حد أنه اعتبر نفسه مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ روح الإصلاح، وهلل له أتباعه من حزب بيانونى.

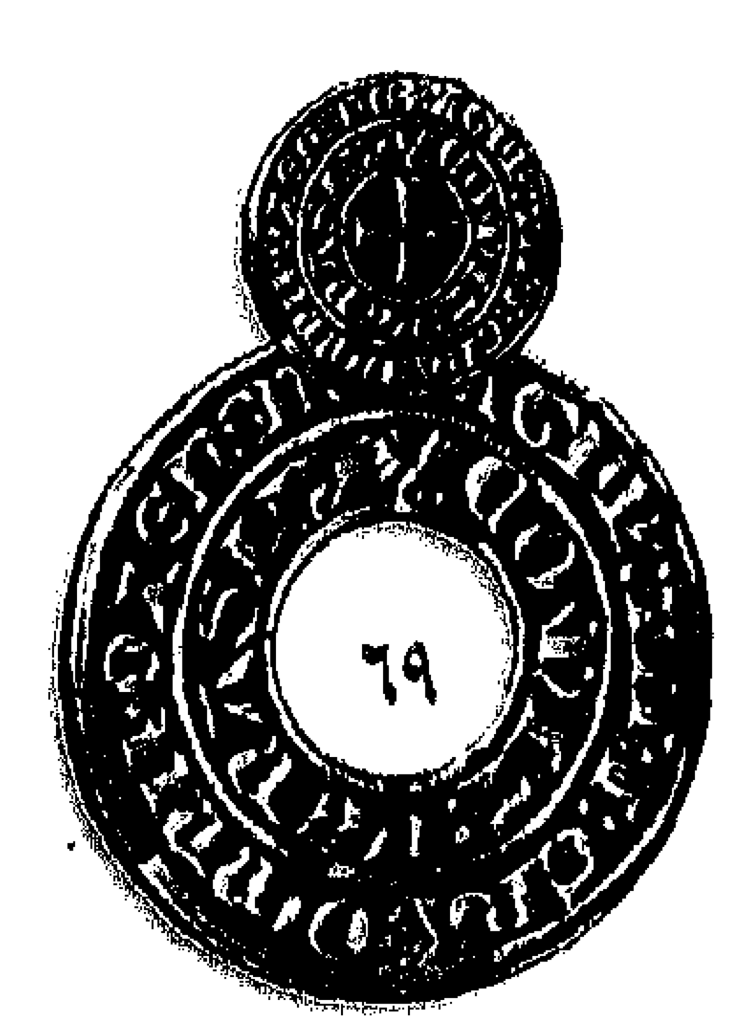
إلا أن ساڤونا كان متعاطفا هو ورجال حزبه مع الملك الفرنسى شارلس الثامن، وذلك نكاية فى البابا الفاسد إسكندر السادس بورجيا وأصهاره فى مملكة نابلى، الذين كانوا بؤر فساد فى جسم الكيان الإيطالى المتطلع إلى ظهور فجر جديد.

والحق أن البابا إسكندر كان يتحين الفرص للقضاء على ساڤونا وحزبه بسبب هجومهم على مفاسده التى فاحت رائحتها فى كل جنبات أوربا، فراح يتهم ساڤونا وحزبه بالخيانة ضد الوطن وبالتطاول على الكنيسة الأم، ثم أرسل البابا أوامره إلى فلورنسا بأن يمنع ساڤونا من الوعظ بسبب آرائه «المهرطقة» وامتثل ساڤونا للأمر، لعل العاصفة تمر بسلام، وأناب عنه تلميذه بونوفتشينو من برسكيا لأداء هذه المهمة.

على أنه فى عيد ميلاد سنة ١٤٩٧ اعتلى ساڤونا رولا المنبر فى كاتدرائية سان مارك، وصاح بأن السماء قد طلبت إليه ألا ينصاع لأمر أرضى وألا يرضخ لحكم كاهن فاسد، ثم شارك فى سر التناول لعيد الميلاد وأخذ الموعظة على عاتقه وحمل ساڤونا فى هذه الموعظة على البابوية ومفاسدها وألقى الأضواء على مخازى إسكندر السادس واتهمه بالانحلال والغدر والطغيان.

ولكن إسكندر السادس حرض راهبا من زبانيته يدعى مويانودى جينا تزانو (Muiano di Ghinzzano) للتصدى لساڤونا رولا ومحاربته بنفس أسلحته. ثم أقام البابا راهبا آخر اسمه فرانسيس من أبوليا ليشهر بساڤونا فى كنيسة كروتشى (Santu Croce).

والحق أن فرانسيس هذا كان متحدثا مفوها ومجادلا قديرا، ففى أول كلمة ألقاها على جمهور كنيسته هاجم ساڤونا رولا معلنا الآتى: «أما عن نفسى فإننى واحد من خطاة هذا العالم،



ولست أدعى كمـا يدعى غيرى الإتيـان بالمعجزات. عـلى أننى رغم ضعف بشريتى أدعوكم لأن تقيموا تحكيما بالنار أجتازه أنا وسافونا رولا معا، وإنى على ثقة من أننى سوف أهلك بلهيب هذه النار، ولكن ضميرى يدفعنى إلى هذا الكأس كى يهلك مـعى سـاڤونا. وأنا أعرف طريقى، ولكن سـاڤـونا طريقه إلى جـهنم بسبب هرطقته؛ ولأن أبرياء كـثيرين قد سبـقوه إلى النار بسبب تعاليمه الضالة».

ولكن ساڤونا رولا رفض قبول التحكيم بالنار فى بداية الأمر. وبعد إلحاح تلاميذه وأتباعه رضخ للأمر وقبل التحدى البابوى. وتحمس رهبان الفرنسيسكان والدومينكان لحدث الموسم، وتقدم الآلاف من أهالى فلورنسا، والأطفال والنسـاء يطلبون السماح لهم بمشاهدة هذا المشهد الخـطير. ثم أعلن البابا إسكندر السادس مـوافقته على إجـراء هذا التحكيم بالنار، ثم أصدرت دار السيادة الفلورنسية موافقتها على إقامة التحكيم، وحدد له تاريخ ١٧ أبريل ١٤٩٨.

وفى اليوم الموعود نصبت مشنقة مخيفة المنظر فى الميدان العام بالمدينة، ثم أقيمت كومتان من كتل الخشب مخـتلطة بأعواد من الحطب وسعف النخيل لكى تزيد النار ضراما، وامـتدت الكومتان على مسافة بلغ طولها ٨٠ قدما، وسمك أخشابها ٤٠ قدما، وعلوها خمسة أقدام، وكانت المسافة التى تفصل بين خطى النار الملتهبين لا تزيد على قـدمين اثنين، كـان على الراهبين المحتكمين إلى النار أن يمـرا من خلالها والنار مشتعلة كالأتون من حـولهما طوال الثمانين قدما، ومن يخرج فى نهاية الطريق سليما فهو على صواب فى آرائه، أما من تؤذيه النار فهو هرطيق آثم!.

واكتظت البلدة بالمتفـرجين، وفتحت جميع النوافذ لمشـاهدة هذا المنظر الرهيب، وحضرت جماعة الدومنيكان وهـم ينشدون الترانيم الدينية، وسـرعان ما وصل الفرنسيسكان من أتباع ساڤونا رولا للشد من أزره.

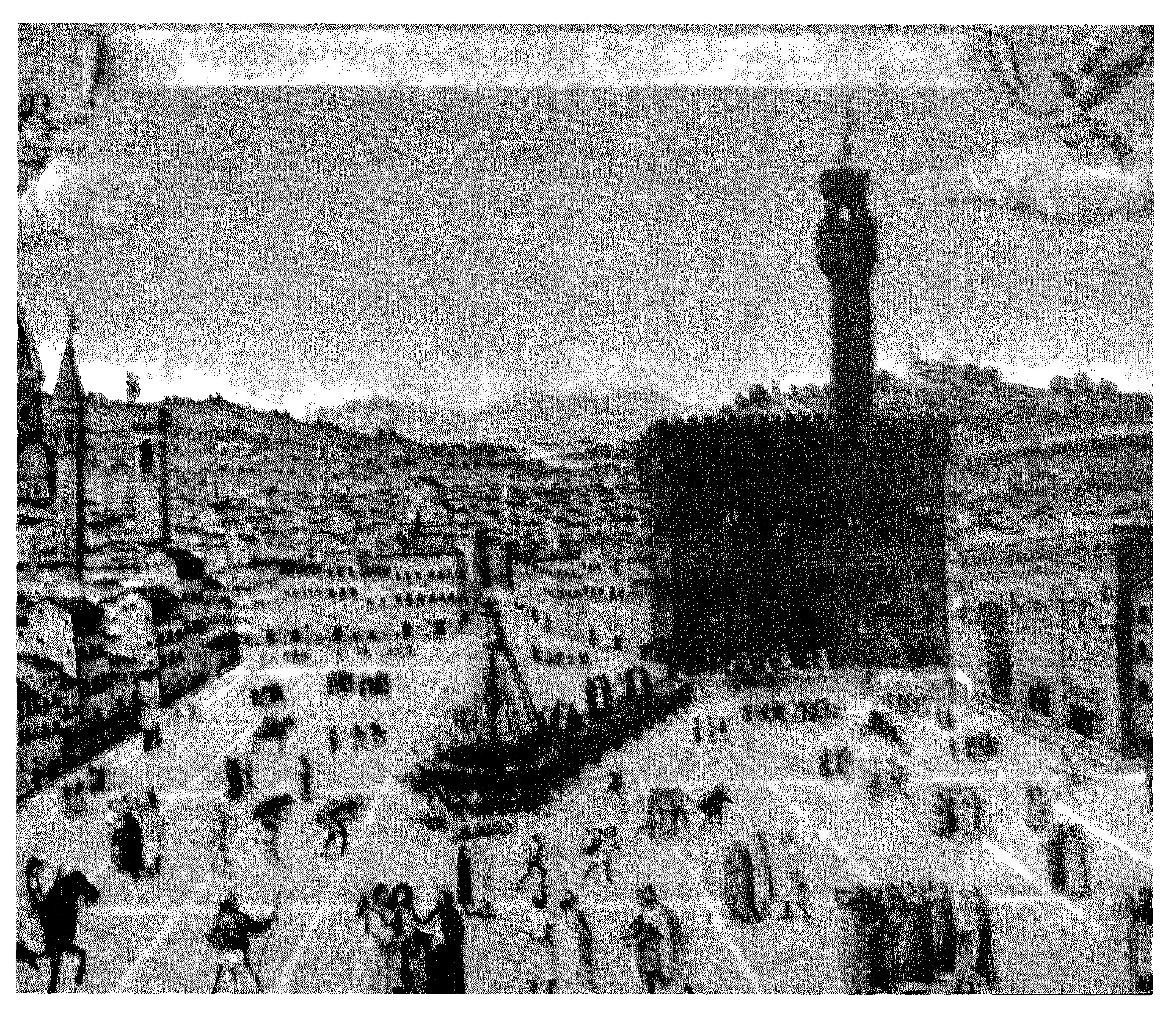
إلا أن خلافـا وقع بين رهبان الجمـاعتين، فـبينما أصـر الدومنيكان على أن يتناول بطلهم - فرانسـيس من أيوليا - من القـربان المقدس قبل اجـتياز التـحكيم بالنار، رفض الفرنسـيسكان ذلك المطلب، ومر الوقت دون أن يصل الطرفان إلى اتفاق حول هذه النقطة. وضاق الجمهور والمتفرجون ذرعا بهذا الخلاف، ومرت الساعات فاشتد بالناس العطش والجوع. وبعد أن نفد صبرهم أخذوا فى الانصراف عن ساحة التحكيم، وبعد قليل هطل مطر غزير فأفسد أكوام الخشب المعدة للنار.

وأصيب الفلورنسيون بخيبة أمل مريرة؛ لأن المعجزة التى كان ساڤونا رولا قد وعدهم بها لم تتم، بل ظنوا أنها كانت مجرد خدعة بلهاء للاستخفاف بعقولهم. وسرعان ما فقد ساڤونا شعبيته، وبات الفلورنسيون المتقلبون يتهمونه بالكذب والاحتيال، وأن لا سبيل عنده على إتيان المعجزات.

لقد نجحت خطة البابا إسكندر السادس فى الوقيعة بين ساڤونا رولا وجمهوره، وبالفعل هجم نفر من حزب أرابياتا على الدير الذى كان يتوارى فيه ساڤونا وقبضوا عليه مع اثنين من أتباعه المخلصين، وهما دومنيكو بونيوتشينو (Dominco Buonuicino) وسلڤسترو ماروفى (Silvestro Mauruffi)، وأودع الثلاثة السجن.

ثم هب الرعاع يقتلون كل من تقع عليه أيديهم من حزب ساڤونا رولا، وبادر البابا إسكندر السادس بإرسال أوامره لتقديم الرهبان الثلاثة للمحاكمة أمام محكمة التفتيش المؤلفة خصيصا لهذا الغرض، وقد زود البابا المفتشين الموفدين بضرورة إعدام ساڤونا

حرق ساڤونا رولا



ورفيـقيه، وفى المحاكـمة تعرض الرهبـان الثلاثة لإهانات بالغة ولتـعذيب يفوق الوصف، وحكم على ثلاثتهم بالإعدام حرقا . وفى ٢٣ مايو ١٤٩٨ أحرق ساڤونا رولا ورفيقاه فى نفس البقعـة التى كانت قد أعدت منذ ستة أسابيع لإظهـار معـجزاته الخارقـة. وهكذا كتبت البـابوية فصـلا آخر من فصول المأساة الكبرى ضد مصلح عظيم وحر.

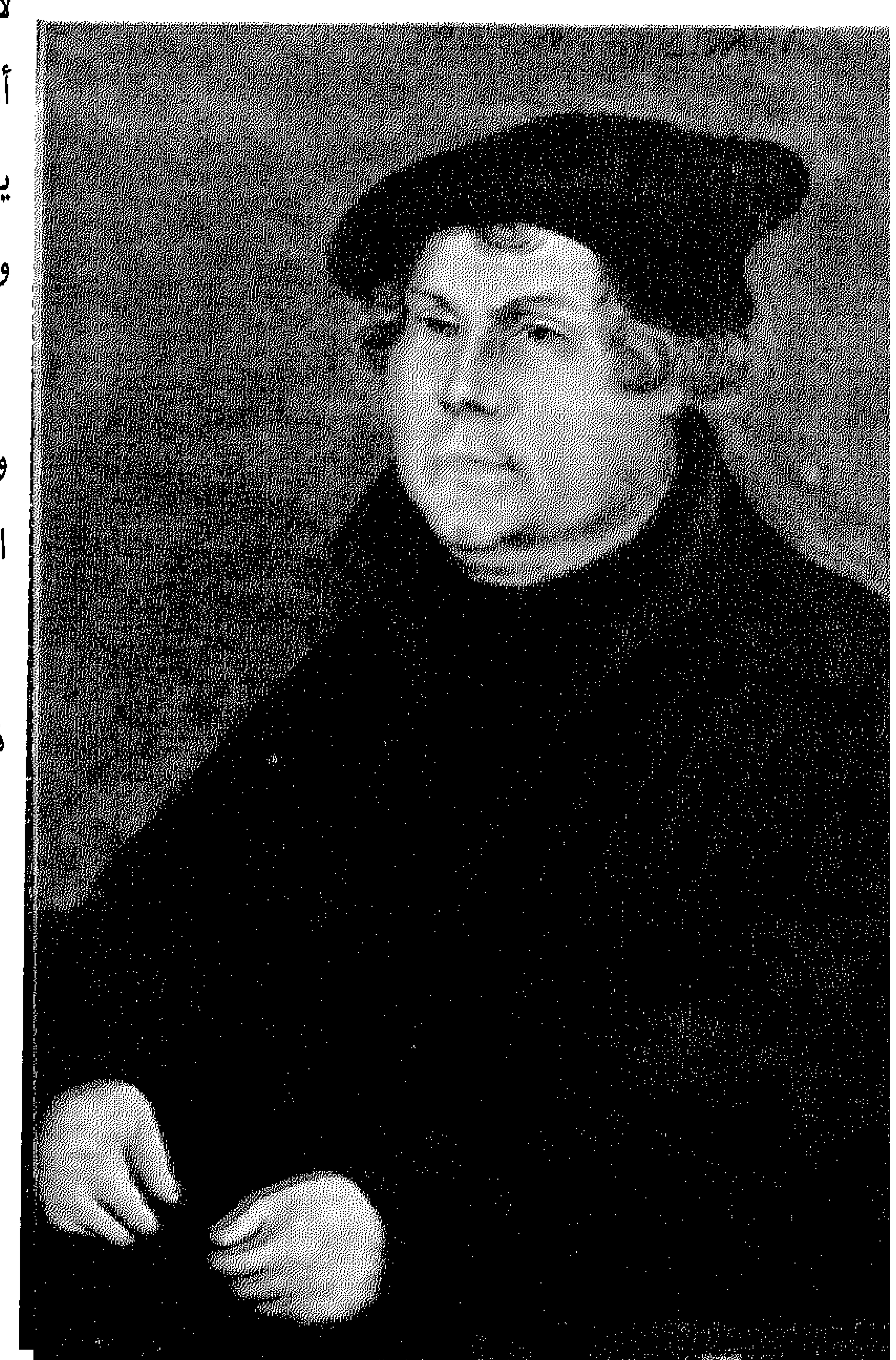
لم تكن المشنقة ولا كانت النار التى أحـرقت الأطهار والثوار لتوقف تيار التاريخ، لقد تلقت البابوية صدمات عنيفة فاهتز عرشها، ولكنها كانت جبارة فى إرهابها، ظنا منها بأن الإرهاب والقـمع قد يقضيـان على الرأى الحر والمذهب المخالف. والغـريب فى الأمر أن الضربة الكبرى التى قدر لها أن تصيب البـابوية والكنيسة الرومانية لم تأت من يد علماء باريس أو أكسفـورد من ذوى السمعة العلميـة العريضة والمبادئ الحرة، وإنما جـاءت من ابن لفلاح بسيط فى ثورنجيا، ذلكم هو مارتن لوثر سيد البروتستانت (١٤٨٣- ١٥٤٦).

مارتن لوثر

وككل شخصية عملاقة فى التاريخ، اختلف المفكرون فى تقييم لوثر: فالشاعر الألمانى جوته يرى أن لوثر قد تغـافل عن جوهر الفكر الإنسانى، واسـتمد ثورته من مـشاعر الغوغـاء فى أمور لاهوتية كـان ينبغى أن تترك للمفكرين. ويرى مـاتيو أرنولد فيه دجـالا غوغائيا، أما الكردينال نيـومان فإنه يرى فى اللوثريـة حركـة مكابرة ومـخـادعـة جـملة وتفصيلا.

أما غالبية المؤرخين فيـرون فيه أخطر زعيم غير وجـه التـاريخ ونقل أوربا من العـصـور الوسطى إلى العصر الحديث.

دخل مارتن لوثر راهبا فى جماعة الأغسطينيين فى بلدة إرفورت فى الثانية والعشرين من عمره وذلك فى سنة ١٥٠٥، وكان الشاب قد أصيب بشعور مرير من الذنب ـ لا ندرى سببه ـ ففـرض على نفسه نظاما صارما من الصيام والزهد لإذلال جسده، غير أن هذه المذلة لم تنجح فـى شفـاء روحـه أو إزاحة هـمومـه



مارتن لوثر

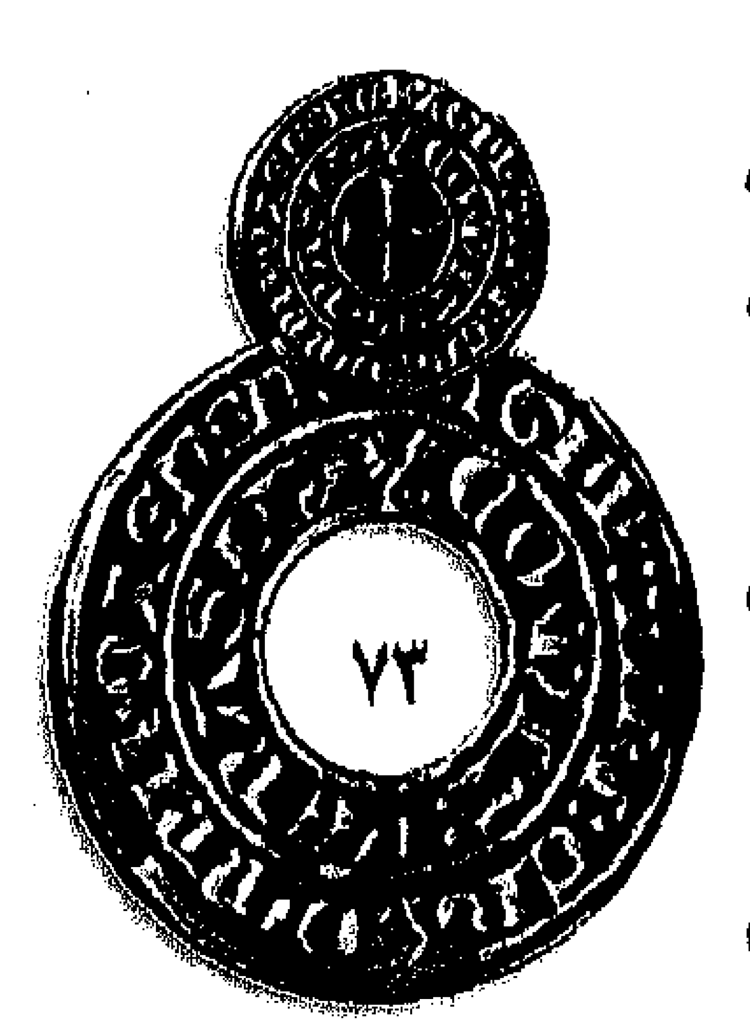
الثقيلة، وقد وصف لوثر هذه المرحلة من حياته فيما بعد بقوله: «لو أن راهبا قدر له أن يدخل النعيم بسبب تحقير جسده، لكنت أنا أول الداخلين». وفى فترة (الآلام» هذه تكشف للوثر أن السماء لو أنها رضيت عن هذا العذاب وعفت عنه، لكانت كالشخص المستبد الذى يتلذذ بآلام الآخرين ويطلب من البشر ضروبا من المستحيل، ولما أن رآه رئيس ديره ـ ستاوبتز (Staupitz) ـ على تلك الحال من اليأس والقنوط والاكتئاب، نصح له بإعادة قراءة الكتاب المقدس، وخص بالاهتمام رسائل القديس بولس، وكتاب «مدينة الله» للقديس أغسطينوس.

وانكب لوثر على القراءة بنفس شهية، ووجد فيما قرأه ما يريح نفسه المؤرقة، وبدأ دفء الإيمان يدب فى وجدانه، فهتف بأن الإيمان هو درب السعادة، وأن الرحمة الإلهية هى شفاء الخاطئين. وأيقن لوثر من تجربته الروحية أن التوبة لا تتأتى بإيقاع العقاب على الآثم، وإنما هى تتم عندما يتحرك شغاف القلب من الداخل لنسمة الرحمة السماوية. والغفران ـ على هذا ـ لا يمكن أن يشترى أو يباع؛ لأنه منة السماء لأهل الأرض «من أبينا الذى فى السموات».

ومن خلال بحوثه فى تلك المرحلة اكتشف لوثر أن كلمة «التوبة» (Penitentia) اللاتينية تعنى أصلا فى اللسان اليونانى شيئا آخر، فهى «Metania» التى تعنى تغيرا فى نبض القلب بفعل حرارة الندم المخلص والتشوق إلى الخلاص الربانى. ومن ثم فإن ما تروجه الكنيسة الرومانية من عقاب بدنى وروحى ومن طقوس، كلها أمور غريبة عن روح الدين السليم. واقتنع لوثر من هذا المنطلق بأن الشخص الخاطئ يمكن له ـ إن هو أراد ـ «أن يتبرأ ويتبرر من خطيئته بالإيمان ـ وبالإيمان وحده يخلص البشر».

وفى سنة ١٥٠٨ طلب رئيس الدير من لوثر أن يضطلع بالتدريس فى جامعة وتنبرج، التى كان الأمير السكسونى فردريك الحكيم قد أسسها منذ فترة قليلة. وأقبل الطلاب على لوثر فى حماس زائد، وذاعت شهرة الرجل.

وفى سنة ١٥١٠ قام لوثر بزيارة لروما، وفى المدينة البابوية ازداد اقتناعه بعبث الطقوس الكنسية، واشتد غضبه على الجالس على عرش بطرس، «ممسكا فى يد «بالحرمان» وفى الأخرى «باللعنة». فتش لوثر فى الفاتيكان عن خيط الإيمان فلم يجد له أثرا يذكر، وقفل عائدا إلى بلاده وهو يتمتم بأن «لا خلاص إلا من الداخل».



ولما عاد لوثر إلى جامعة وتنبرج فوجئ بوجود مندوب بابوى من جماعة الدومنيكان اسمه تتزال (Tetzal) يبيع صكوك الغفران (indulgence) لمن يتبرع بالمال لبناء كنيسة القديس بطرس فى روما. واشتد غضب الرجل ضد هذا الاتجار بالدين، واستاء من ابتزاز أموال البسطاء بهذه الطريقة التى لا ترضى السماء.

كتب لوثر مقالة من ٩٥ نقطة هاجم فيها «صكوك الغفران» وتحدى من يجادله فى الأمر فى حوار علنى (١٧أكتور ١٥١٧).

والحق أن لوثر لم يكن أول من هاجم صكوك الغفران، فقد سبقه إلى ذلك كثيرون من أمثال الكردينال اكزمنيس (Ximenes). وفى هذه المرحلة بالذات لم يفكر لوثر فى التمرد ضد الكنيسة الرومانية.

وبادرت السلطات الكنسية فدعت إلى عقد مجلس الدياط فى أوجزبرج سنة ١٥١٨ لطرح قضية لوثر، واحتدم النزاع بين المندوبين البابويين تتزل وكوجتين من ناحية وبين المتحمسين لتعاليم لوثر من ناحية أخرى. وفى النهاية قرر الدياط أن يسحب لوثر كلامه عن صكوك الغفران، وأن يلزم الصمت فى هذا الموضوع.

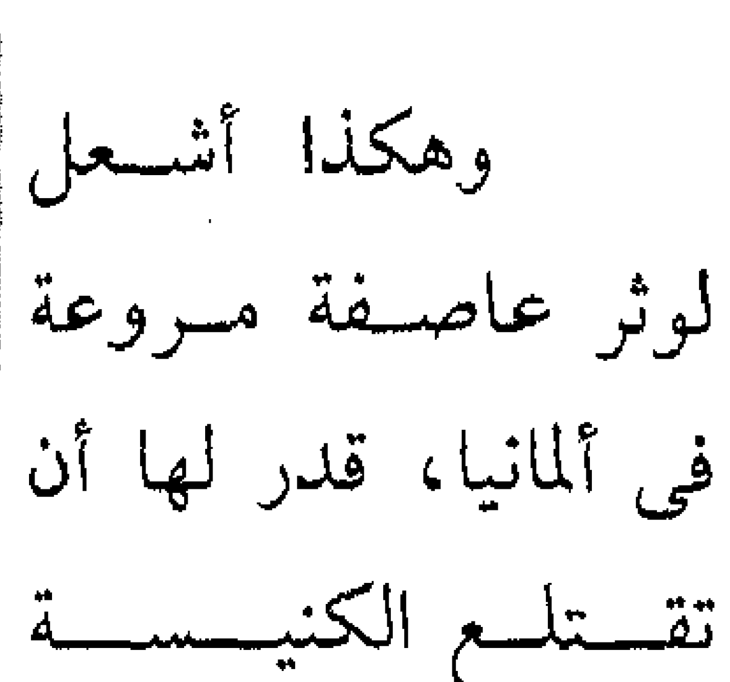
إلا أن القضية سرعان ما تفجرت من جديد، ولم تعد المسألة قضية صكوك الغفران، بل انتقل الجدل إلى السلطة البابوية نفسها وإلى نظام الكنيسة بشكل عام.

وقد بلور لوثر آراء سابقيه من معارضى الكنيسة الرومانية، فلقد تأثر بتعاليم جون هس وجون ويزل وغيرهما من الرواد السابقين.

وقد وجد لوثر تأييدا كبيرا لحملته الإصلاحية ضد الكنيسة الرومانية، ونشطت أقلام كثيرة تشد من أزره وتصفق له، ومن بين هذه الأقلام قلم واحد من مشاهير الساخرين هو أولرخ ڤون هوتن (Ulrich von Hutten) الذى نشر سنة ١٥١٩ مقالة قال فيها: «إن روما تعتمد فى كرامتها على ثلاثة أشياء: سلطة البابا، وعظام القديسين، وصكوك الغفران، إن هنالك ثلاثة أشياء تخشاها روما، وهى: المجمع الكنسى العام، ولفظة الإصلاح، ثم يقظة الشعب الألمانى، وهنالك ثلاثة أشياء تجرمها روما وهى: الزهد، وبساطة المسيحية الأولى، وكلمة الحق».

وفى سنة ١٥٢٠ نشر لوثر «رسالة إلى النبالة المسيحية فى الأمة الألمانية»، ثم أتبعها برسالة أخرى بعنوان «الأسر البابلى»، وفى الرسالتين أنكر لوثر سلطان البابا على الكنيسة، وندد بسر الكهنوت، ثم استبعد فكرة تحول القربان إلى جسد ودم السيد المسيح.

بادرت الكنيسة فأصدرت قرارا بالحرمان ضد مارتن لوثر فى يوليو ١٥٢٠. ولكن لوثر أعلن أن هذا القرار تافه وباطل وأن كاتبه ليس برجل دين وإنما هو المسيخ الدجال، (Antichrist)، ثم تناول قرار الحرمان وأحرقه بالنار علنا أمام جماهير غفيرة فى بلدة وتنبرج.

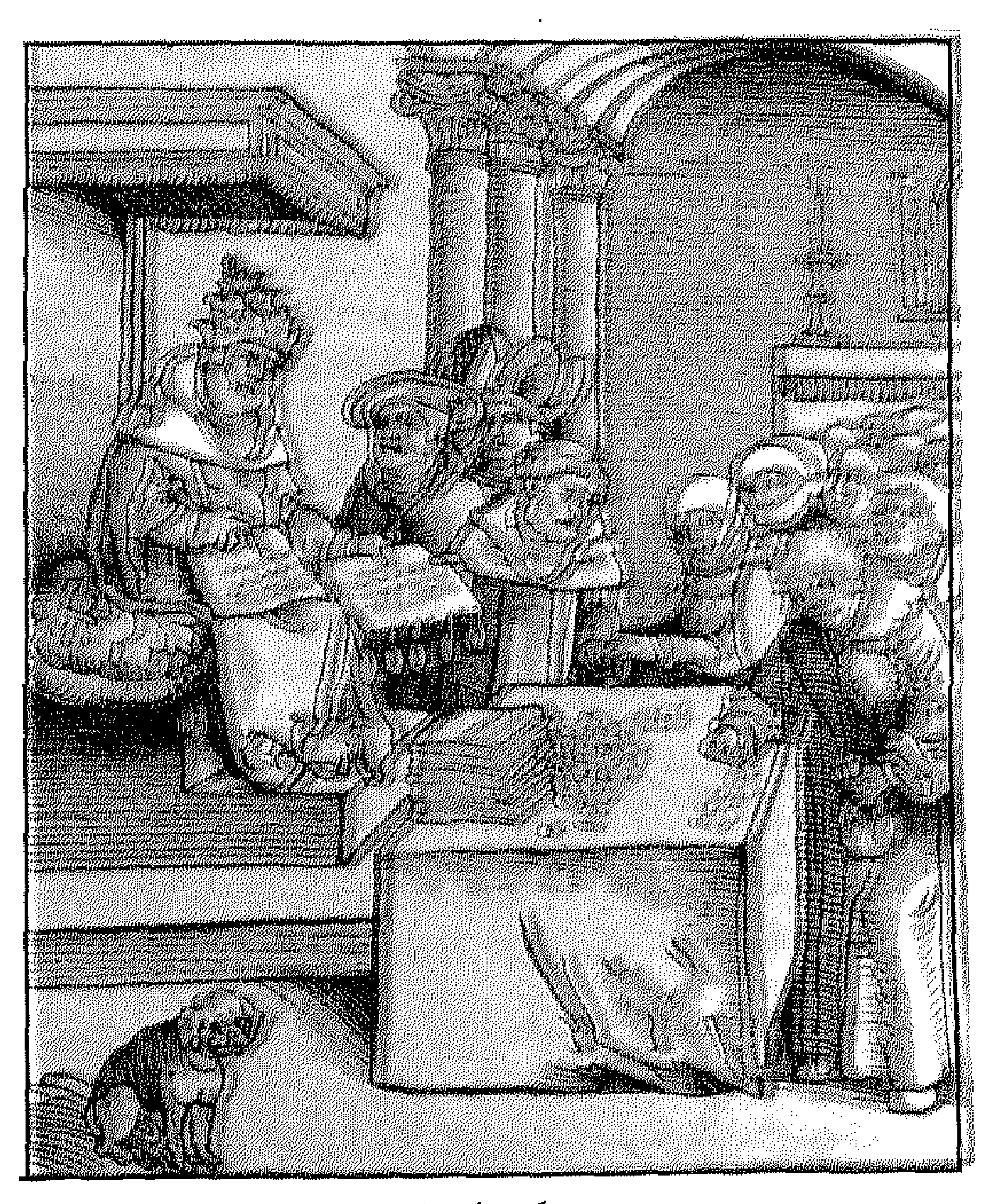




كاتدرائية سان بطرس - القبة التى صممها مايكل أنجلو - عصر النهضة

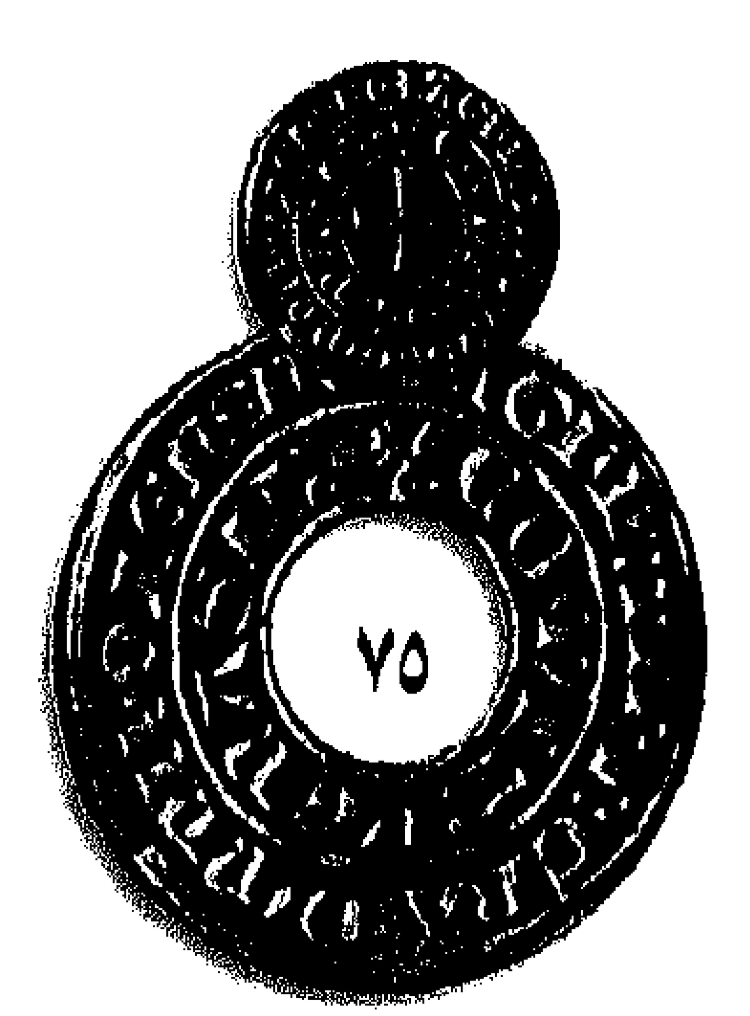
وهكذا أشعل لوثر عاصفة مروعة فى ألمانيا، قدر لها أن تقتلع الكنيسة الرومانية من جذورها، وبدأ عصر «المعارضين والمحتجين» (Protestants)، وعرف العالم مذهبا مسيحيا جديدا سرعان ما وجد قبولا مذهلا فى بلدان غرب أوربا.

دعا البابا ليو العاشر الإمبراطور شارلس الخامس إلى عقد مجلس الدياط فى مدينة ورمز للنظر فى قضية لوثر، إلا أن الإمبراطور ورجاله المقربين كانوا يدركون مدى ما تتمتع به آراء مارتن لوثر من شعبية لدى الشعب الألمانى وأيضا لدى كبار المفكرين والأحرار فى غرب أوربا. ويتضح هذا التأييد الذى كانت اللوثرية تتمتع به من شهادة ألياندر (Aleander) المندوب البابوى إلى ألمانيا عندما قال بأن تسعة أعشار ألمانيا يهتفون للوثر، أما العشر الباقى - وإن كان لا يهتم باللوثرية - إلا أنه يهتف بسقوط الكيوريا البابوية.



بيع صكوك الغفران

رأى المجتمعون فى دياط ورمز استدعاء لوثر للدفاع عن نفسه، وقد احتج البابا على



ذلك، ولكن الإمبراطور أصر على ظهور الثائر الألمانى أمام المجلس. وجاء لوثر وكان صلبا شامخا فى دفاعه عن قضيته، وراح يتحدى البابوية والكنيسة الرومانية والإمبراطور شارلس نفسه، وأعلن مدويا بأن «لا سلطان لبشر على فيما يتصل بكلمة الله وكتبه المقدسة». وانزعج الإمبراطور، وقرر المجلس إصدار قرار بالحرمان ضد لوثر وإحراق كتبه ومقالاته بسبب «ما فيها من هرطقة».

إلا أن لوثر تمكن من الهرب إلى قلعة وارتبورج فى سكسونيا تظله حماية الأمير فردريك الحكيم.

كان الإمبراطور شارلس الخامس مشغولا فى حروبه فى إسبانيا، حيث أمضى سبع سنوات (من ١٥٢٢ إلى ١٥٢٩).

وأثناء غيابه عن ألمانيا. انعقد مجلس الدياط من جديد فى نورمبرج (نوفمبر ١٥٢٢) للنظر فى القضية اللوثرية. ولكن غالبية الأعضاء كانوا متعاطفين مع لوثر؛ ولذلك فإن المجلس لم يتخذ أى قرار ضد لوثر، ولم يعبأ حتى بالنظر فى تنفيذ قرارات ورمز السابقة ضده.

انتشرت آراء لوثر فى كل بلدان غرب أوربا، وتهلل المعارضون للكنيسة الرومانية ومفاسد البابوية فرحا، وراح الأحرار يجاهرون بآرائهم علانية دون خوف من الإرهاب والقمع، إلا أن محاكم التفتيش كانت تضرب بيد من حديد خوفا على مصيرها الذى بات مهددا فى كل مكان، من ذلك ما قامت به محكمة التفتيش فى بروكسل ١٥٢٣، فقد أحرقت راهبين من جماعة أغسطين ومن رواد الفكر اللوثرى فى الأراضى الواطئة. وقد حزن لوثر حزنا شديدا على هذا الجرم، وانفعل وجدانه فكتب ضد محاكم التفتيش ما عرفه التاريخ باسم «مزامير الانتقام» وفيها يقول لوثر:

«إن رماد أجسادهم لن يبرد أبدا

الريح ستحمله من صعيد إلى صعيد

هو ذا الصيف يطل علينا من بعيد

وبرد الشتاء ولىَّ والجليد

براعم الأزهار تفتحت تهنئ بالعيد

من تعهد مذهبا استشهد به وهو سعيد

كلمة الحق تلوح مؤزرة بالعهد الجديد. آمين».

طالب لوثر برفع وصاية الكنيسة الرومانية عن أعناق الناس وأرواحهم، وأن يسمح لرجال الدين بالزواج، وأن تقام القداسات باللغات المحلية بدلا من اللاتينية، وأن يكون للمجامع الكنسية سلطة البابا كاملة.

وبينما كانت المجادلات على قدم وساق فى غرب أوربا، كان الإمبراطور شارلس الخامس فى حرب ضد الملك الفرنسى فرانسيس الأول حول مدينة ميلان. وقد انتصرت جيوش شارلس على الفرنسيين فى موقعة حاسمة عند باڤيا (١٥٢٤).

فى أثناء ذلك اشتعلت الثورة فى ألمانيا، فقد هب الفلاحون للانقضاض على السادة الإقطاعيين وتحطيم قلاعهم لتصفية ضغائن العصور الوسطى بين القنية والنبالة الظالمة.

وكان الفلاحون الألمان قد هللوا فرحا باللوثرية ومعارضتها لمظالم الكنيسة، ودخلوا تحت لوائها؛ لأن الأساقفة وكبارهم كانوا شر أمراء الإقطاع ظلما للفلاحين، كما أن الكنيسة الألمانية كانت تجبى ضريبة الشعور منهم بالقسر، وكانت المحاكم الأسقفية تمثل رعبا للمزارعين؛ لأنها تلوح لهم بتهديدات اللعنة والحرمان والإحراق بالنار.

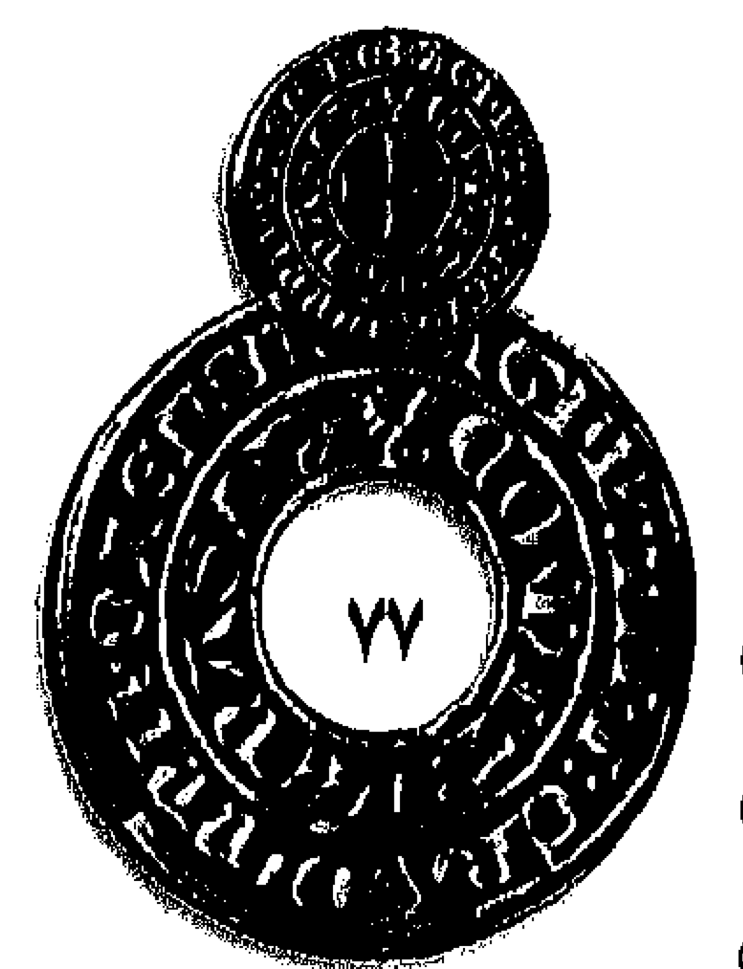
لقد وجد الفلاحون فى تعاليم لوثر شفاء لضغائنهم القديمة، وتحريرا لهم من قيود وأغلال الإكليروس الممقوت، فشايعوا البروتستانتية دون تردد، وأذكت اللوثرية فى الألمان الشعور بالقومية الألمانية.

ثورة الفلاحين فى ألمانيا

اندلعت ثورة الفلاحين أول الأمر فى المناطق الشرقية من الراين والدانوب (مايو ١٥٢٤)، وطلب الثوار بإلغاء ضريبة العشور، وبضرورة إعطائهم الحق فى انتخاب رجال الدين، كما ألحوا على حرية الصيد فى الأنهار والغابات التى كانت حكرا للسادة النبلاء، وطالبوا أيضا بتخفيض التزامات القن (Serf) الذى قصم ظهره بالأعباء الإقطاعية.

وانتشرت الثورة فعمت معظم أرجاء ألمانيا، وظهر للثوار زعيم هو توماس مونزر (Munzer) الذى اتخذ من بلدة ملهاوزن (Mulhausen) قلعة لمعسكراته.

وطالب مونزر بإعادة النظر فى نظام الكنيسة والدولة من جذورهما، وهجم الفلاحون الثوار على قلاع وقصور السادة وكبار الأساقفة، فقتلوا البعض وطردوا البعض الآخر، إلا أن الغريب فى الأمر أن الطبقة الوسطى، وعلى رأسها المصلح الثائر مارتن لوثر، قد تنكرت لهذه الثورة الاجتماعية، والتى كانت بمثابة العمود الفقرى للوثرية، على أنه إنصافا للحق ينبغى القول بأن



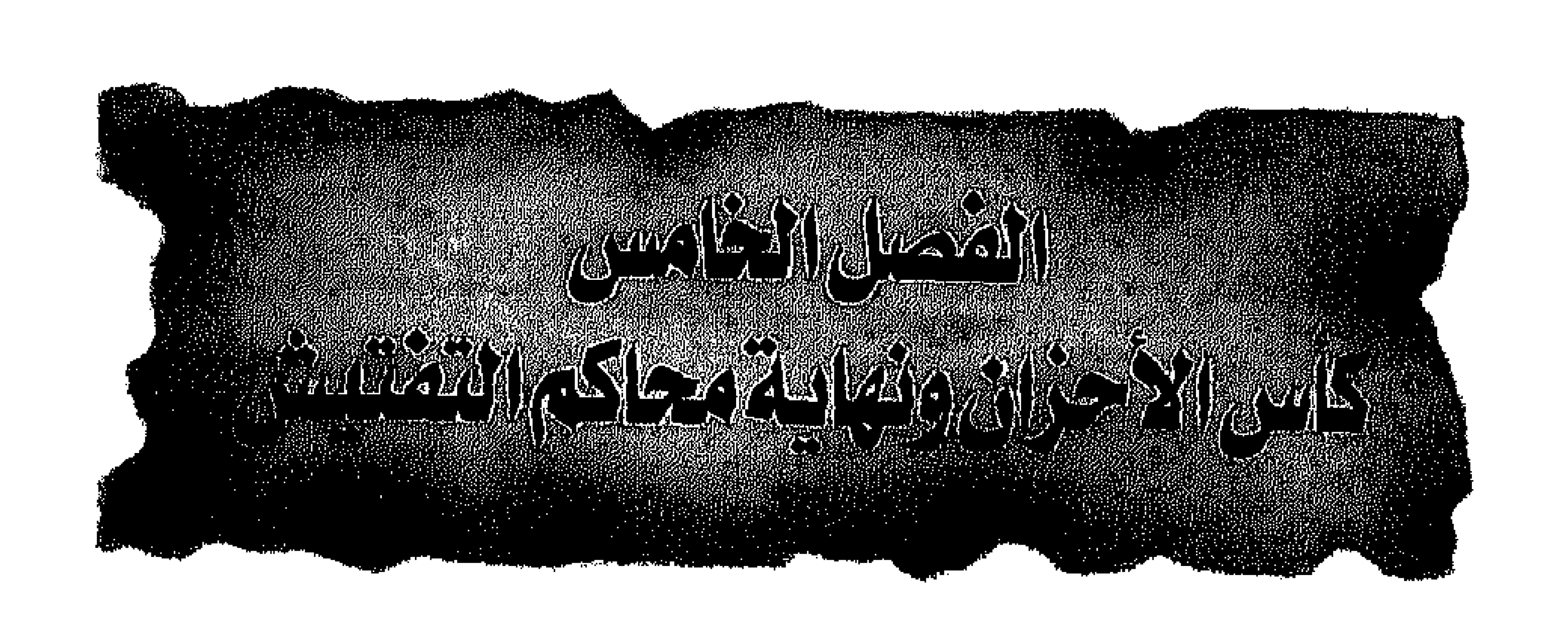
مارتن لوثر قد طلب إلى الفلاحين التحلى بالاعتدال ونبذ أساليب العنف، كما أنه نصح للسادة بأن يعطوا الفلاحين نصيبهم فى حقوقهم الآدمية.

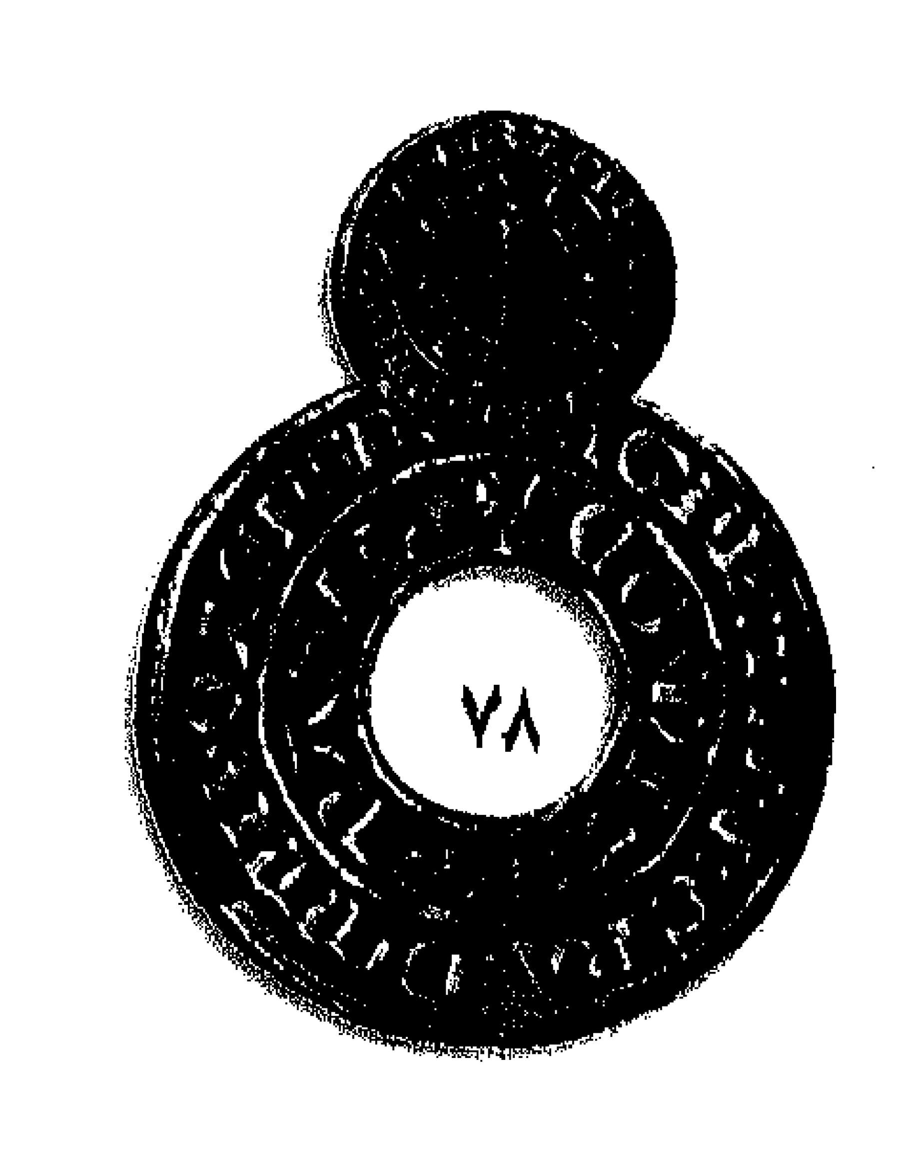
ولكن أعمال العنف التى اقترنت بهذه الثورة أغضبت لوثر فتخلى عن قضية الفلاحين تماما، بل إنه أعلن أن الدين وإن كان يحرر روح الإنسان الفرد - غنيا كان أو فقيرا - إلا أن نظام حياته المادية ينبغى أن يصاغ وفق مفهوم النظام وقانون الدولة. وأدان لوثر الثوار فى عنف بالغ، بل طالب السلطات الألمانية بأن «تطعن وتقتل وتشنق المشاغبين بكل عنف».

نظم السادة جيوشهم وانقضوا على الفلاحين عند بلدة لبهايم (Leipheim)، ثم زحف فيليب من هيس (Hesse) على الثوار وقطع دابرهم عند بلدة فرانكنهاوزن (Frankenhausen)، وأخيرا أوقع بالزعيم مونزر أسيرا، فاقتيد إلى المشنقة وتم إعدامه فى بلدة مولهاوزن، وتبع ذلك مذبحة رهيبة ضد الفلاحين وذويهم.

ثم دخلت اللوثرية فى صراع مرير ضد الكنيسة والإمبراطور شارلس الخامس، ولم يقدر لها أن تفرض نفسها على ألمانيا إلا فى سنة ١٥٥٥ فى دياط أوجزبرج، أى بعد وفاة لوثر بقرابة عشر سنوات.

وقد حمل لواء البروتستانتية بعد ذلك المصلح الفرنسى كالڤن (Calvin).





حمل لواء اللوثرية والبروتستانتية بعد مارتن لوثر مصلح آخر هو جون كالڤن.

جون كالڤن:

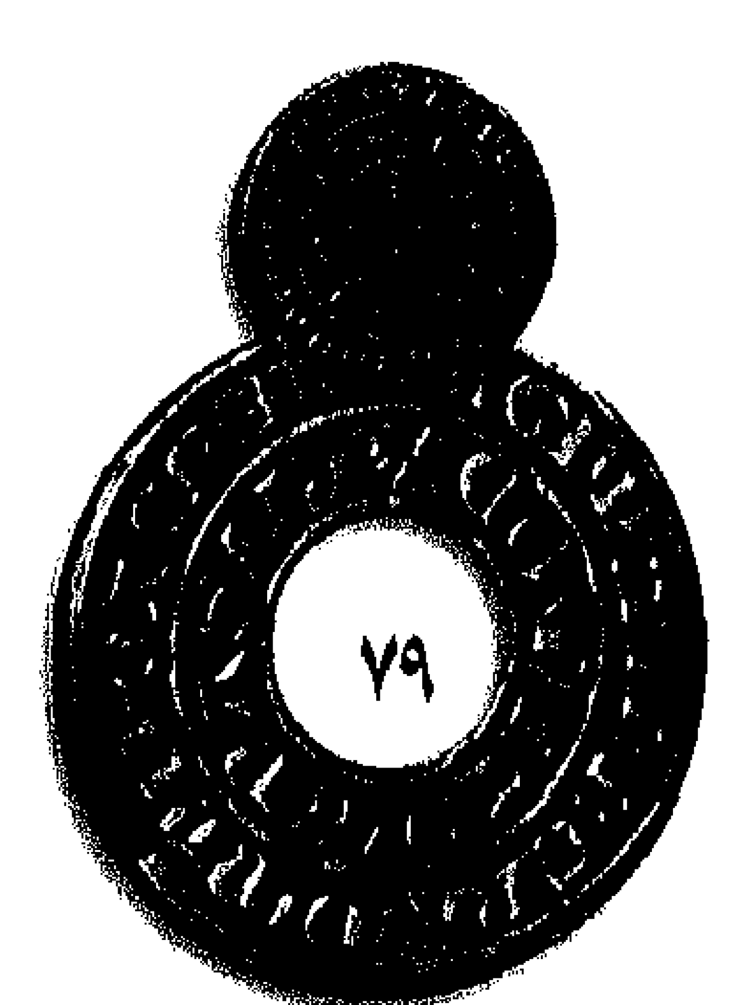
ولد كالڤن فى بلدة نويون (Noyon) فى إقيم بيكاردى بفرنسا سنة ١٥٠٩. وانخرط فى السلك الديرانى فى الثانية عشرة من عمره، ثم سافر إلى أورليانز ليدرس القانون (١٥٢٩-١٥٣١).

وأثناء دراسته عكف على تفهم التعاليم اللوثرية على يد أستاذ مرموق هو جاك لى فيڤر (Jacques Lefevre)، الذى يعتبر أب البروتستانتية الفرنسية. ولما أن شنت السلطات الفرنسية موجة من الاضطهاد ضد البروتستانت فى فرنسا على عهد الملك فرانسيس الأول، هرب كالڤن إلى مدينة بازل (Basle) فى سويسرا. وهناك أخرج كالڤن مؤلفه الهام بعنوان «النظم» (Institutes)، الذى يحوى المبادئ الدينية لجماعته والتى وصل إليها بعد دراسة مستفيضة.. ثم انتقل إلى جنيف، حيث طلب منه واحد من كبار رجال الفكر اسمه وليم فرال دى دوفنى، الذى كان قد نفى من فرنسا بسبب تبشيره بالمبادئ اللوثرية، أن يقوم بالتبشير بالمبادئ الجديدة التى وصل إليها من خلال بحوثه واقتناعه.

والواقع أن كالڤن كان مصلحا متشددا فى تطبيق تعاليمه، فلقد فرض على جميع أتباعه ضرورة المواظبة على حضور الصلوات



كالڤن



فى الكنيســة، وعلى كل منهم أن يشارك فى «العــشاء الربانى»، كمـا حرم عليهم ارتداء الملابس المزخــرفة والخليعة، ومنعــهم عن الرقص فى الأفراح والأعياد. ومن يخالف هذه التعاليم يعرض نفسه لعقاب رادع وفق القانون. أما جريمة الزنا فيعاقبها أتباع كالڤن بعقوبة الإعدام، وأما الابن العاق على والديه فتقطع رأسه.

والحق أن كثيرين قـد ضاقوا بتزمت كالڤن وعنف تعاليمه؛ ولذلك فإن بعض الأنصــار المشفقين على روح المذهب الجـديد ألفوا جماعــة عرفت باسم (Libertines) سعت إلى التخفيف من صرامة الكالڤنية ورهبتها على نفوس المصلين. ورغم هذا فإن آراء كالڤن كانت عاملا هامــا من عوامل تثبيت أقدام اللوثرية فى بلدان غــرب أوربا، فقد تبنت كل آراء لوثر الإصلاحية ضد الكنيسة الرومانية وعمــلت جاهدة على التبشير بها. وأثناء ذلك كانت تعاليم لوثر وجون كـالڤن قـد وصلت إلى الأراضى الواطئــة. وكانت هــذه تتكون من ١٧ مــقاطعــة، آلت بالمصاهرة إلى أسرة هابسبورج، ثم إلى الإمبراطور شارلس الخامس.

وشــعب هذه البــلاد خليط من الهــولنديين فى الشــمال الــشرقى ومن الفــلمنك فى مناطق برابانت (Barabant)، ومن الوالون (Walloon) والجرمان فى الجنوب والغرب.

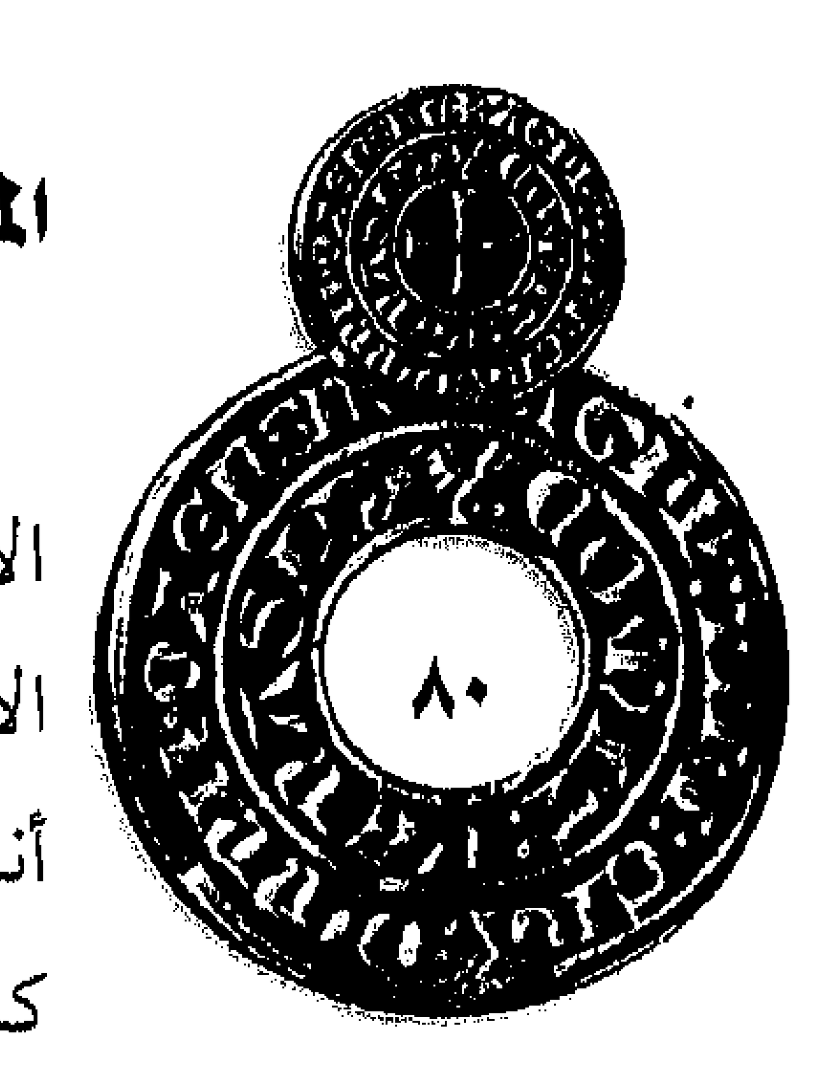
نشاط محاكم التفتيش فى إسبانيا

الإمبراطور شارلس الخامس:

وقد درج الإمــبراطور شارلس الخامس على إنابة حكــم هذه المقاطعات إلى أميــرات من البيت المالك، فكانت عمته مارجريت من ساڤوى نائبة عنه من ١٥٠٦ إلى ١٥٣٠، ثم جاءت بعدها أخته مارى الهنغارية من ١٥٣٠ إلى ١٥٥٥. وكانت للبلاد جمعية عمومية من رجال الدين والنبلاء الكبار.

ولما أن انتشرت تعاليم كالڤن فى هذه المقاطعات، قرر شارلس الخــامس قمع هذه التعاليم واستئصال شــأفة البروتستانتية منها تمامــا، فأصدر فى سنة ١٥٥٠ قرارا (Placard) يدين بالهرطقة كل من يردد تعاليم كالڤن أو يجتهد فى تغيير الكتــاب المقدس أو يحطم الأيقونات، وكان العقاب يتمثل فى الشنق والإحراق بالنار.

ثم عين الإمــبراطور مفتشــا كنسيا عامــا مطلق السلطة لقمع كل معــارضة للكثلكة، إلا أن الشعب قد ثار، واضطر المفتش العام إلى الفرار من الأراضى الواطئة.



الملك فيليب الثانى:

وفى سنة ١٥٥٥ أناب شارلس الخامس ابنه فيليب الثانى فى حكم الأراضى الواطئة، وكان فيليب شابا متعجرفا خشن الطبع يكره أهالى الأراضى الواطئة ويحتقر الفلمنكيين على وجه الخصوص؛ ولذا فإنه قد أناب عنه فى حكم تلك البلاد أختا له غير شقيقة هى مارجريت، التى كانت امرأة مسترجلة خشنة الصوت والمظهر.

كان شعب الأراضى الواطئة ينظر بعين الغضب إلى الفرق الإسبانية التابعة لفيليب الثانى، والتى كانت ترابط بالبلاد، إذ كان الجند الإسبان عبئا ثقيلا على مالية البلاد، واستفزازا لمشاعرهم الوطنية.

وغلت مشاعر الفلمنكيين فى جمعيتهم العامة، وكان على رأس المتذمرين وليم دوق أورانج، الذى كان يدين بالمذهب البروتستانتى، وقد بعثت المعارضة إلى فيليب تطالبه بالإصلاح فى حكم البلاد، وبضمان حريات الأفراد والتخفيف من طغيان محاكم التفتيش، وزيادة تمثيل الوطنيين فى الجمعية العامة بالبلاد.

ولكن فيليب رفض هذه المطالب، فأرسل قرارا يهدد فيه بالتنكيل بالمتمردين، خاصة فيما يتصل بأمر محاكم التفتيش.

وأمام هذا الموقف المتعنت، تآخى أهل البلاد الواطئة من بروتستانت وكاثوليك، وأصدروا وثيقة عرفت باسم «إعلان التراضى»، شجبوا فيها محاكم التفتيش، وطالبوا بأن يخول للجمعية العامة كامل صلاحياتها البرلمانية، ثم طالبوا من النائبة الإمبراطورية مارجريت أن تخاطب الإمبراطور لتنفيذ هذه المطالب.

غير أن فيليب، بدلا من أن يستجيب لهذه المطالب، أرسل وزيرا متطرفا اسمه ألفا (Alva) لكى يقلم أظافر الموقعين على الوثيقة السابقة.

فى خلال ذلك قامت مظاهرات صاخبة فى فلاندرز، وحطم الثوار جميع الأيقونات فى أربعمائة من كنائس البلاد، كما نهبت كاتدرائية أنتورب من كل كنوزها ونفائسها.

وقد غضب الكاثوليك من أهل البلاد من مسلك أتباع كالڤن، فتنكروا لميثاق التراضى الذى كانوا قد وقعوه معهم من قبل وهجروهم وحدهم فى الميدان، أما النائبة الإمبراطورية مارجريت فإنها استنفرت الفرق الإسبانية وقامت بقمع الثوار بالشنق وبالنار.

عندما تفاقم الموقف إلى هذا الحد، هرب الزعيم وليم أورانج إلى ألمانيا خوفا من بطش فيليب الثانى به، ثم وصل الوزير ألفا إلى الأراضى الواطئة. والمعروف أن دوق ألفا هذا كان قد

قاد كتائب الإمبراطور شارلس الخامس من قبل ضد اللوثريين فى بلدة موالبرج (Muhlberg) واستأصل شأفتهم، ثم مال على الإيطاليين بعد ذلك فأصلاهم بالحديد والنار. وقد قيل عنه أنه كلما تقدم فى العمر، ازداد طبعه حدة وشراسة.

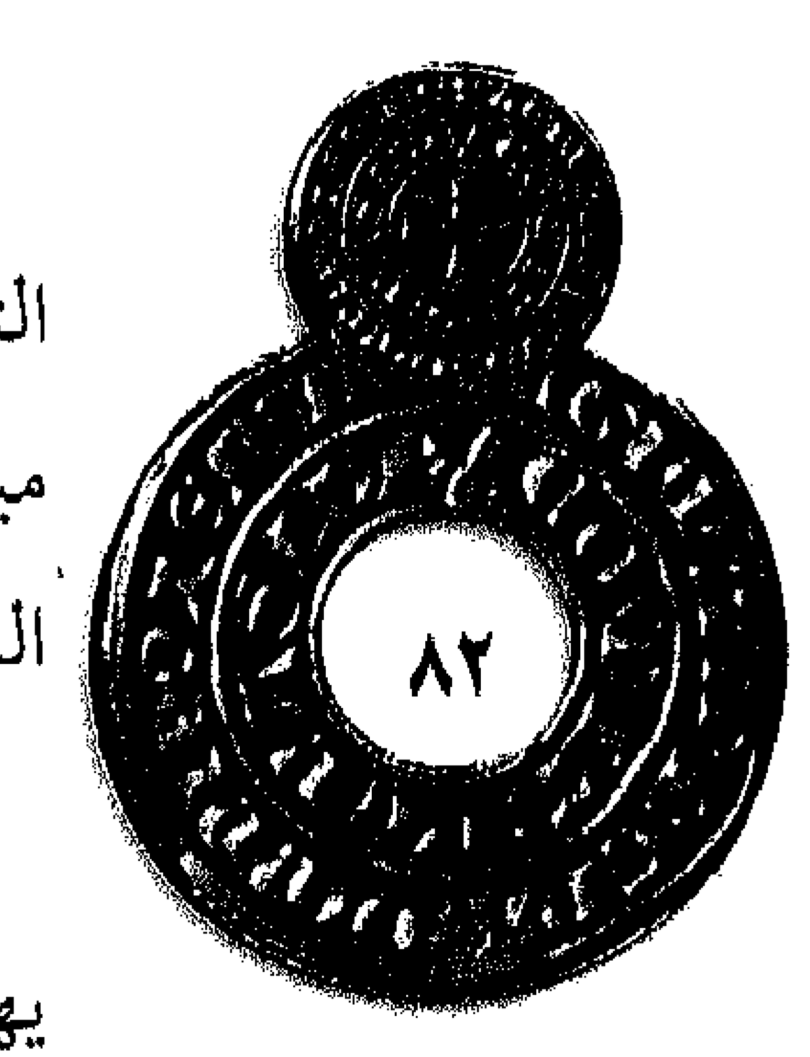
جاء دوق ألفا على رأس عشرة آلاف من قدامى المحاربين الإسبان لكى يقلم أظافر الفلمنكيين والهولنديين. وانتشر الجند الإسبان يقبضون على رؤوس المعارضة وأتباع كالفن. ثم ألف ألفا محكمة خاصة لمحاكمة المقبوض عليهم باسم «مجلس صاحب الجلالة»، وقد أطلق عليها المعاصرون فيما بعد اسم «مجلس الدم» نظرا لشدة بطشها بالمتهمين. وكانت هذه المحكمة تتألف من ١٢ عضوا، بينما كان قرار الحكم فيها وقفا على ثلاثة من الإسبان هم جوان دى ڤار جاس، دل ريو، ولاتورى (Juan de vargas - Del Rio - La Torre) وكان دوق ألفا يتصدر بنفسه رئاسة هذه المحكمة وجلساتها. وفى حالة غياب ألفا، كان يترأس جلسات المحكمة المفتش الإسبانى خوان دى ڤارجاس، الذى عرف بسوء السيرة والخسة، فقد قيل: إنه قد اغتصب فتاة كان وصيا عليها ذات يوم، كما أنه كان يغفو فى النوم أثناء جلسات المحكمة، وعندما يستيقظ فجأة من غفوته يصيح قائلا: «اشنقوهم جميعا».

وتعنتت هذه المحكمة فى تقتيل وإحراق أتباع كالڤن، كما كانت تضع فى اعتبارها الأول مصادرة أملاك المتهمين حتى تدخل الأموال الوفيرة إلى خزانة الإمبراطور لتمول حملاته العسكرية فى فرنسا وإيطاليا وإسبانيا.

ويعترف دون ألفا أنه قد قام بإعدام ١٨,٦٠٠ نفسا فى الأراضى الواطئة أثناء إقامته بها، وكان المثل الفلمنكى السائر فى تلك الأيام الصعبة: «إن الدار قد تنهار على أذن أهل الدار خوفا من ألفا».

أمام هذا الإرهاب، اضطر الكثيرون من أهالى البلاد إلى الهجرة عن الوطن، فقد بلغ عدد من هاجروا من الهولنديين والفلمنك إلى إنجلترا ٦٠,٠٠٠، وهاجر عدد مماثل إلى ألمانيا.

وفى سنة ١٥٦٨ كان وليم أورانج وشقيقه لويس قد جمعا جيشا من الهاربين لمقاومة البطش الإسبانى بالبلاد الواطئة، وتشجع النبلاء فقاموا بالثورة ضد دوق ألفا، ومن هؤلاء النبلاء الثوار كان هوجستراتن (Hoogstraten) فى برابانت، وكوكفيل فى آرتوا، ثم لويس دى نساو (de Nassau) وألحق النبلاء الهزيمة بإحدى الفرق الإسبانية عند بلدة هيلجرلى (Heiligerlee) فى ٢٣ مايو ١٥٦٨.



ونتيجة لهذه الهزيمة قرر دوق ألفا أن ينتقم من النبلاء فأعدم رؤوس الثورة: كونت إجمونت وكونت هورن (Hoorne)، وقد تم الإعدام فى ميدان السوق فى بروسكل فى ٥ يونية ١٥٦٨، ثم صودرت أملاك هؤلاء النبلاء وغيرهم وضمت إلى أملاك التاج الإسبانى.

أما الكونت لويس صاحب نساو فإنه فوجئ بجيش بقيادة ألفا نفسه يهجم على بلاده، وهزم الكونت عند بلدة جمنجن (Jemmingen) فى ٢١ يوليو ١٥٦٨.

فى أثناء تلك الأحداث كان الزعيم وليم أورانج يحاول التدخل لنجدة النبلاء الهولنديين والفلمنك ضد بطش ألفا، وظل يصارع حتى تم اغتياله سنة ١٥٨٤.

ولكى يذل ألفا أهالى البلاد الواطئة فرض على الجميع ضريبة على الممتلكات الثابتة والمنقولة، وكانت تمثل عبئا ثقيلا على كاهل جميع الطبقات، وفى سنة ١٥٧٠ ضرب إعصار مدمر أرجاء البلاد، فدمر السدود وأغرق الأرض، فأقفرت المقاطعات وتشرد الكثيرون، وفقد العمال مورد أرزاقهم، ثم لجأ عدد كبير منهم إلى عرض البحار يرتزقون من القرصنة ضد السفن التجارية للعدو الإسبانى.

وظل الصراع مريرا بين الأراضى الواطئة وإسبانيا، وسارع الهولنديون والفلمنكيون للمحاربة فى صف الإنجليز والفرنسيين عندما شنوا الحرب ضد الإسبان، حتى تم صلح وستفاليا (١٦٤٨) واضطرت إسبانيا إلى الاعتراف بالاستقلال لسبع من ولايات الأراضى المنخفضة هى جولدرلاند، أوترخت، فريزلاند، أوفريسل، جرونجين، زيلاند، ثم هولندا.

أما عن نشاط محاكم التفتيش فى إسبانيا، فقد اضطلع به رهبان الدومنيكان فى بداية الأمر. وقد

الملك فيليب الثانى

اتخذت محاكم التفتيش مقرا لها فى أشبيلية، ومع أن هذه المحاكم كانت خاضعة للتاج الإسبانى، إلا أن المفتش العام كان يخضع عند تعيينه لموافقة البابا.

ولقد قاوم الإسبان هذا الإرهاب الكنسى، فقامت ثورة فى قرطبة وأيدها بعض النبلاء ومجلس البلدية، واضطرت السلطات إلى نقل المفتش العام، ثم اندلعت ثورات مشابهة فى أراغون وڤالنسيا وقطالونيا، أما فى سرقوسة فقد اغتيل المفتش العام فى قلب كاتدرائية البلدة.

ويرجع قيام كل هذه الثورات إلى شعور الإسبان بأن «الهرطقة» صارت «دمغة» يدان بها الناس لأجل مصادرة أملاكهم وضمها إلى خزانة الملك، وأدرك الشعب الإسبانى منذ البدء أن التاج والكنيسة قد تآمرا ضد الشعب الآمن تحت قناع الدين.

واستمر التعاون بين التاج والبابوية إلى أن جاء الملك فيليب الثانى ـ وريث شارل الخامس ـ (١٥٥١-١٥٦٠)، الذى تحرش بمملكة نابلى وبجزيرة صقلية، فتصدى له البابا بولس الرابع (كارافا Caraffa)، الذى كان أصلا من مواطنى نابلى. وراح كارافا يصب جام غضبه على الملك الإسبانى، معلنا أن إسبانيا إن هى إلا مخلب قذر لليهود، وهم نفاية شعوب الأرض، وأنه ينبغى تطهير تربة إيطاليا الطاهرة من دنس الإسبان. ومضى كارافا شوطا بعيدا فى عداوته للإسبان وملكهم فيليب، إلى حد أنه طلب العون من السلطان العثمانى



باب «سان شيفانو» بمسجد قرطبة الذى حولته محاكم التفتيش إلى كنيسة – إسبانيا

سليمان ضد فيليب، وأخيرا أصدر البابا قرارا بالحرمان ضد الملك الإسبانى موجها إليه أبلغ الإهانات، على أنه «فيليب النمساوى»، ابن الضلال، المنحدر من إمبراطور مزعوم، الذى اغتصب عرش إسبانيا، والذى ينشر الفساد فى ربوع أوربا مثل الشياطين».

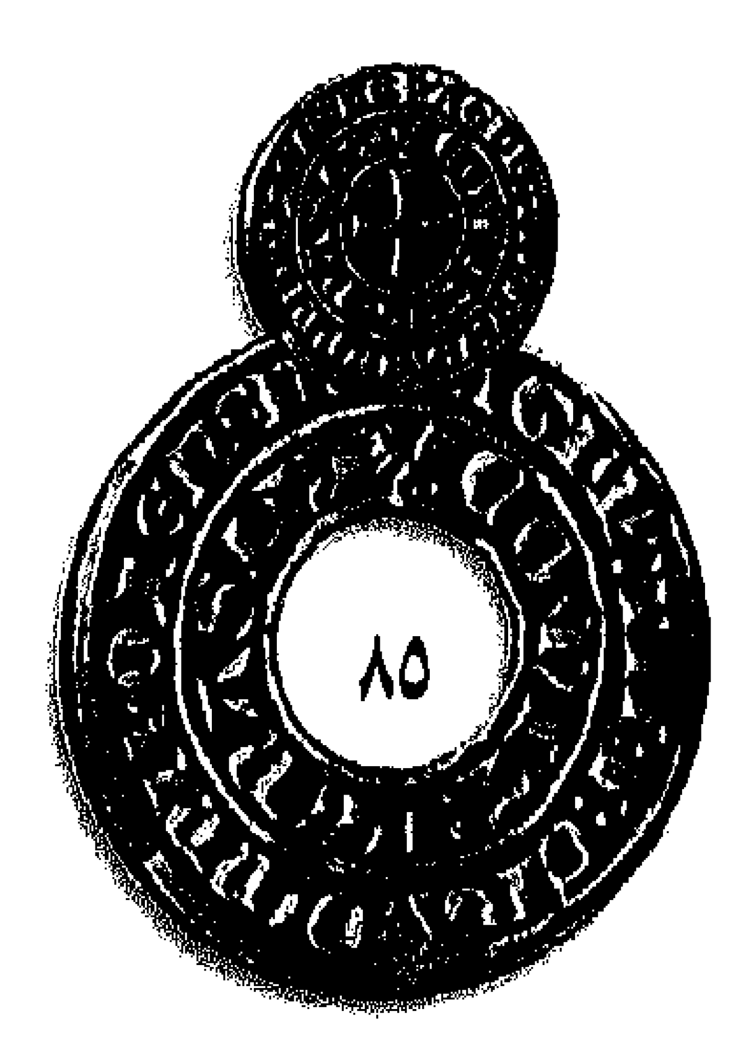
وعقدت البابوية حلفا مع فرنسا، ودخل الحلفاء حربا ضد إسبانيا وحليفتها إنجلترا، وبعد عدة تحرشات، توسط دوق البندقية فى الأمر، وتم الصلح بين البابا بولس الرابع وبين الملك فيليب الثانى.

كان فيليب يرى ضرورة تأمين موقفه بإقامة حلف مع إنجلترا؛ ولذا فإنه سافر إلى إنجلترا فى ٢٠ مارس ١٥٥٧، وتزوج هناك من الملكة مارى. وقد نتج عن هذه المصاهرة أن دخلت إنجلترا الحرب ضد العدو المشترك ـ فرنسا ـ فى ٧ يوليو ١٥٥٧.

غير أن حادثا خطيرا وقع فى إسبانيا، وكاد أن يعرض مركز فيليب لخطر داهم، ففى أثناء إقامته فى بروكسل ليتابع سير القتال بين قواته وحلفائه الإنجليز من جهة، وبين الفرنسيين من جهة أخرى، قام بتعيين كاهن اعترافه بورتولميو دى كارانزا فى منصب كبير الأساقفة على طليطلة. وكان كارانزا معروفا بعلمه وقوة بيانه، وكان قد سافر إلى إنجلترا، حيث دخل فى حوار مفتوح مع دعاة حركة الإصلاح من الإنجليز، ولما أن وصل إلى طليطلة، راحت الشبهات تروج من حوله، وصعدّت دوائر محاكم التفتيش تلك الإشاعات عنه، يعاونها فى ذلك خصمه ڤالديز كبير أساقفة أشبيلية، الذى كان يحقد على الأول لأنه منح أغنى أسقفية فى إسبانيا كلها، وبالفعل هاجم رجال التفتيش كارانزا فى مخدعه وجروه إلى السجن فى بلدة ڤالادوليد، ووجهوا إليه تهمة بالهرطقة والتحريف فى مسائل اللاهوت.

وحكم على كارانزا أمام محاكم التفتيش بالنفى عن منصبه وبإعلان التوبة والندم.

شعر الملك فيليب الثانى أنه قد أهين على يد محاكم التفتيش، فسعى إلى طيها تحت ذراعيه بالدهاء والخديعة، فبعد أن عاد إلى إسبانيا (٨ سبتمبر ١٥٥٩) بأسابيع قلائل، قصد إلى الشرفة الملكية المطلة على ميدان كنيسة سان مارتن فى بلدة ڤالادوليد، فأطل على الجماهير الإسبانية وأقسم لهم بأنه سوف يجعل نقاوة العقيدة الكاثوليكية هدفه الأول فى الحكم، كما أنه لن يدخر جهدا فى تثبيت دعائم محاكم التفتيش «المكتب المقدس»، ثم أمر بأن يستعرض المتهمون الهراطقة أمامه للسخرية منهم. وكان من بين تعساء هذا الموكب أحد النبلاء المتهمين بالهرطقة واسمه دون كارلوس دى سيسا، وقد شوه رجال التفتيش أطراف الرجل ووجهه بالنار حتى أصيب بالشلل،



فلما أن وصل الرجل إلى شرفة صاحب الجلالة صرخ نحو فيليب يقول: «إنى أتوسل إليك يا صاحب الجلالة، توسل رجل من أصل نبيل إلى سيد عريق فى النبالة، أن تسأل هؤلاء السادة عن الذنب الذى اقترفته حتى ألقى العذاب على هذه الشاكلة تحت سمعك وبصرك».

إلا أن الملك فيليب رد عليه قائلا: «لو كان ابنى ذاته منحرفا فى العقيدة على شاكلتك لقمت بنفسى لحمل الوقود إلى المحرقة التى يلقى إليها».

وتدليلا على حرص فيليب الثانى على محاكم التفتيش أمر بأن يحرق نفر من الهراطقة فى «المحرقة» (Auto da fe) فى حضوره شخصيا، وبهذه الجريمة الكبرى نجح فيليب فى أن يبسط نفوذه بدهاء على محاكم التفتيش ورجالها فى إسبانيا.

ضج الشعب الإسبانى من طغيان محاكم التفتيش، وتذمر أهالى قشتالة، فوجه إليهم فيليب الثانى رسالة فى فبراير ١٥٦٣ يعبر فيها أن «المكتب المقدس» باق كى يستأصل شأفة الهرطقة من طول البلاد وعرضها، كذلك ثار أهالى أراغون لأن محاكم التفتيش باتت تحشر أنفها فى أمور لا تمس الدين من قريب أو بعيد، كما أن الرهبان قد استمروا فى شهادات الزور ضد الأبرياء، ولكن كل هذا لم يحرك ضمير فيليب الثانى، ولدينا رسالة من السفير الفرنسى فى إسبانيا موجهة إلى كاترين دى مدتشى يصرح فيها بأن فيليب الثانى قد نجح فى استخدام محاكم التفتيش أداة طيعة لفرض إرادته على الشعب الإسبانى بالقهر.

بعد هذا جاءت الشكوى فى إسبانيا ضد محاكم التفتيش من رجال الكنيسة الإسبانية نفسها، فقد استبد المفتشون بأمور العقيدة وخلعوا على أنفسهم صلاحيات باتت تهدد حتى كبار الأساقفة؛ ولذلك فإن القضية برمتها طرحت أمام مجمع ترنت. وكان الوفدان الفرنسى والألمانى يميلان إلى ضرورة إدخال بعض الإصلاحات فى نظام الكنيسة حفاظا على وحدة العالم المسيحى فى أوربا ومن أجل مهادنة البروتستانت، ومن بين الإصلاحات التى طرحت السماح للكهنة بالزواج وتخفيف وطأة محاكم التفتيش عن كواهل الناس، إلا أن مندوبى فيليب الثانى وعلى رأسهم ڤارجاس حذروا البابا بيوس الرابع من المساس بمحاكم التفتيش. وقيل أن البابا قد صرح غاضبا بأن ملوك إسبانيا «يريدون أيضا أن يكونوا بابوات».

الملك فيليب الرابع:

وإذا وصلنا إلى عهد الملك فيليب الرابع (١٦٢١ - ١٦٦٥)، نجده شابا منحلا خليعا،

يقضى جل أوقاته فى اللهو والمجون فى ساحات مدريد أو فى قصره الجديد فى ضواحى المدينة فى بوين رتيرو (Buen Retro). وكان طبيعيا أن تنشط محاكم التفتيش فى هذا الجو الداعر، ومن متناقضات الساعة أن ظهرت فى ظل هذه المحاكم «المقدسة» جماعة إسبانية راحت تشجع الناس على الفجور والجنس المشاع والعلنى حتى فى داخل الكنائس وفى البيوتات الرهبانية أيضا. وقيل: إن الوزير أوليڤارس (Olivares) قد ساعد بنفوذه على إنشاء هذه الجماعة التى عرفت باسم «ألمبارادوس» (Alumbrados) أى «المتنورين» ليساير صاحب الجلالة فى فجوره ونزواته.

وكان فيليب الرابع قد تزوج من أميرة فرنسية فاتنة هى إليزابيث، وقد حاولت إيقاظ زوجها من وحل الفساد الذى غرق فيه حتى أذنيه، ولكن دون جدوى، وباتت العلاقة بين الملك والملكة علاقة حقد وكراهية، تفضحها الواقعة التالية:

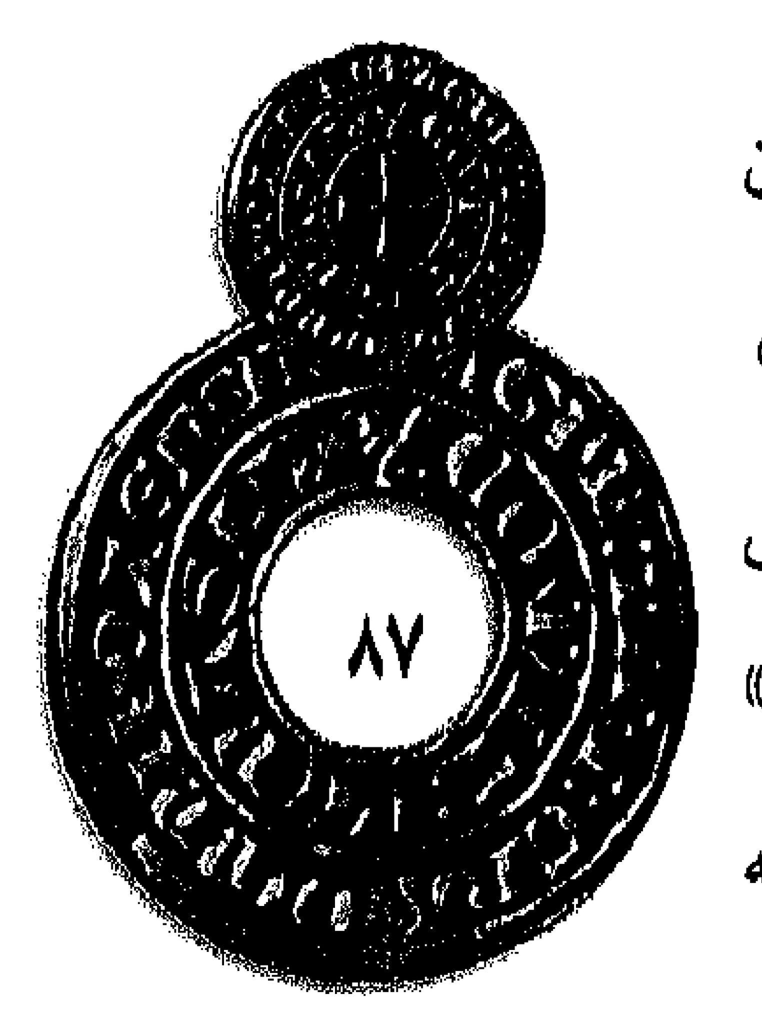
ففى أول حلقة من مصارعة الثيران فى بلازا مايور سنة ١٦٢١، ظهر فى الحلبة شاب نبيل وسيم هو كونت دى ڤيللا ميديانا، الذى كان متمرسا فى مصارعة الثيران، وكان هذا الشاب نبيلا جريئا، وقد زين صدره بحروف من الفضة فى نقش يقول:

«Son mis amores» وكان الملك والملكة يشاهدان هذه المصارعة، والعبارة المنقوشة على صدر الشاب النبيل تعنى بالإسبانية «إنى أحب المال»، وقد بلغت الجرأة بهذا الشاب أن ألقى بنظرات إعجاب وغزل على عيون صاحبة الجلالة الملكة وهى فى المقصورة الملكية بجوار زوجها. وفسر الجمهور الإسبانى تلك النظرات بتفسير آخر للعبارة المنقوشة على صدره بأنها تعنى «إن حبى هو حب الملوك»، إذ إن العبارة فى نصها الإسبانى تحتمل كلا التأويلين.

وقد ساء الموقف عندما عاد الملك والملكة إلى القصر، وهتفت الملكة بأن الكونت المصارع «كان يصوب رمحه فى روعة بالغة» فرد الملك غاضبا: «ولكنه يا سيدتى يصوب إلى المقام العالى».

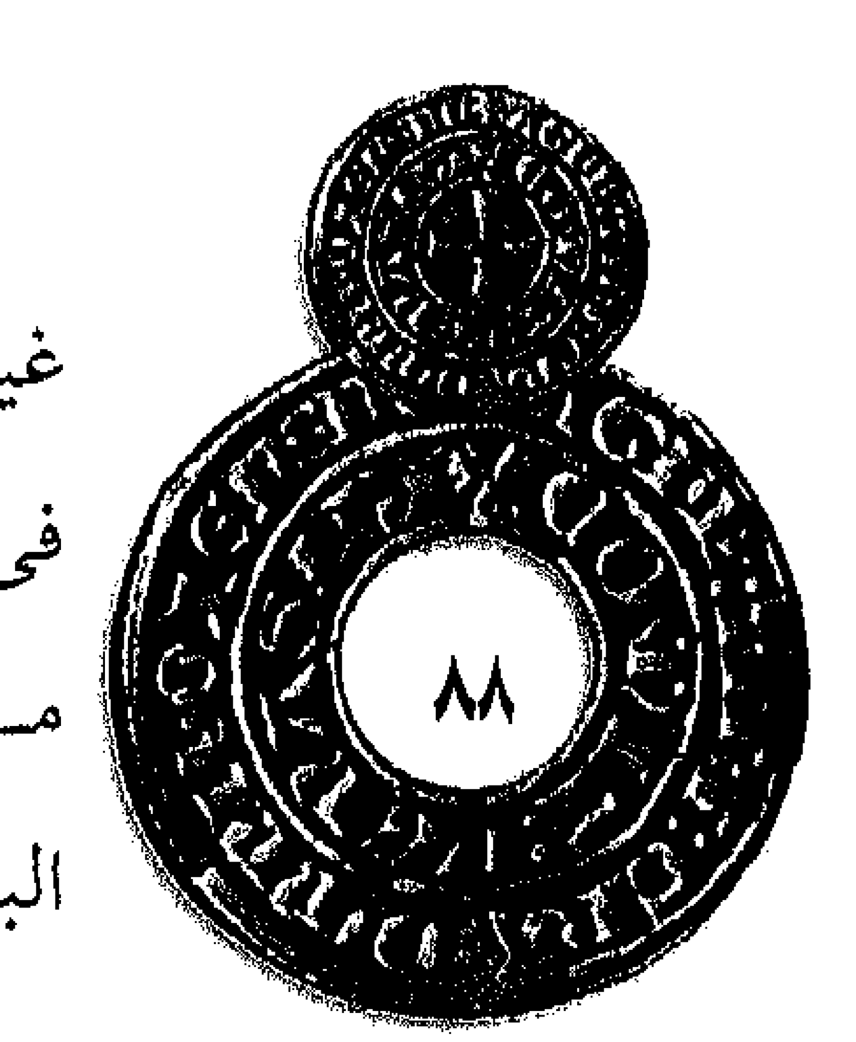
وبعد شهور قلائل (أغسطس ١٦٢٢) تم اغتيال هذا الكونت عند مدخل قصره بيد واحد من رجال الحرس الملكى، بتحريض مفضوح من الملك فيليب الرابع.

وفى عهد الملك شارلس الثانى وهو آخر ملوك إسبانيا من أصل نمساوى (١٦٦٥- ١٧٠٠)



تدهور حال البلاد وضج الناس من غلاء الأسعار وقرب المجاعة. وكان طبيعيا فى ظل هذا التدهور أن يزداد رجال محاكم التفتيش بطشا بالشعب، ففى سنة ١٦٨٠ أقيمت المحرقات (auto de fe) فى البلازا مايور فى مدريد فى حضور الملك والملكة، وبعد أن استعرض ١٥٠ من «الهراطقة» تم إحراق عشرين منهم فى حريق بلغ ارتفاعه سبعة أقدام وكانت مساحته ستين قدما. ولما أن بلغ الأسى مداه، هبت ثورة فى مدريد سنة ١٦٩٩م، وزحف الشعب على قصر الملك يصرخون: «نريد أن نقابل الملك» ولما أن ردت عليهم الملكة بأنه نائم فى فراشه، صاح الثوار: «لقد نام الملك وغط فى نومه بما فيه الكفاية، وآن له الأوان أن يستيقظ من غفوته»، والواقع أن الملك كان يحتضر فى فراش الموت، ورغم هذا فقد طلب أن يحمل إلى الشرفة ليهدئ من غضبة الجماهير.

فرنسا تقود الثورة – لوحة زيتية للفنان ديلاكروا



وتحدث أمين سر الملك بنيڤنتى إلى الشعب الغاضب معلنا أن الملك غير غاضب على الشعب بسبب سخطه، ولكن تخفيض أسعار الخبز ليس فى يديه، وإنما الأمر كله فى يد الوزير أوربسا (Orapessa). وفهم القوم مدلول الإشارة الملكية، فهجموا على الوزير، الذى انسل هاربا خارج البلاد.

كان شارلس الثانى قد تنبه فى أواخر سنى حكمه إلى خطر محاكم التفتيش التى باتت تمثل دولة داخل الدولة الإسبانية؛ ولهذا فإنه عندما ساءت حالة الملك الصحية تماما، همس بعض أعوان المحاكم فى أذن الملكة بأن الملك يعانى من السحر الأسود الذى دبره له «الهراطقة» وصدقت الملكة الرواية، وطلبت إلى محاكم التفتيش أن تتدخل فى الأمر لإنقاذ صحة صاحب الجلالة!!

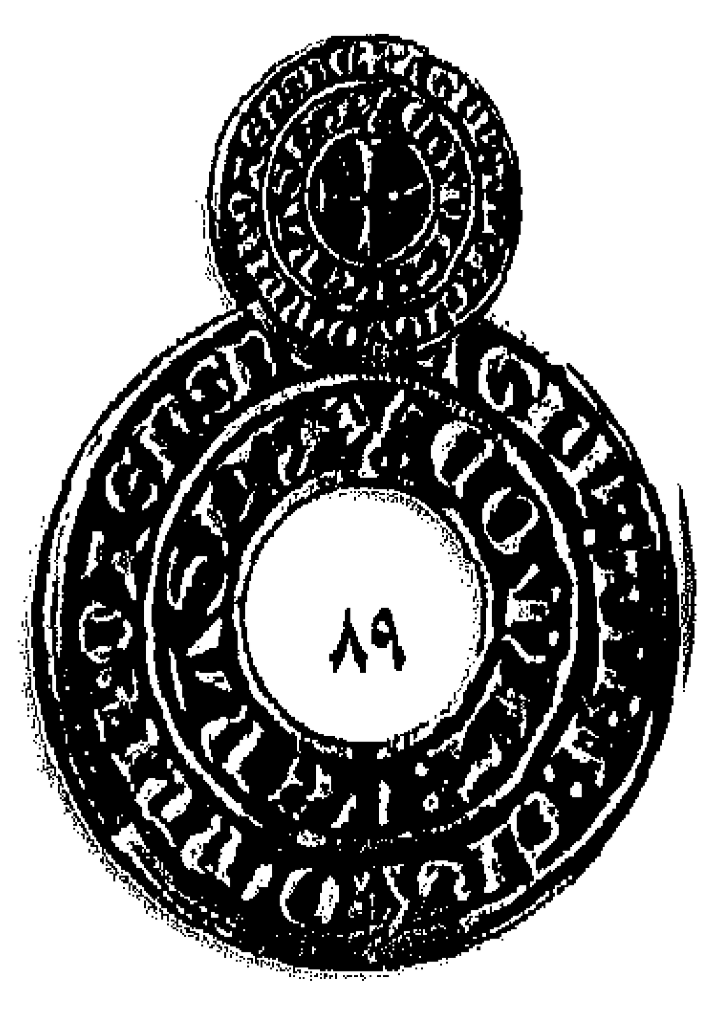
ظلت محاكم التفتيش سوطا مسلطا على الإسبان فى عهد الملك فيليب الخامس (١٧٠٠-١٧٥٩)، ففى عهده أدين ١٤,٠٠٠ بالهرطقة، وأحرق منهم ٧٨٢.

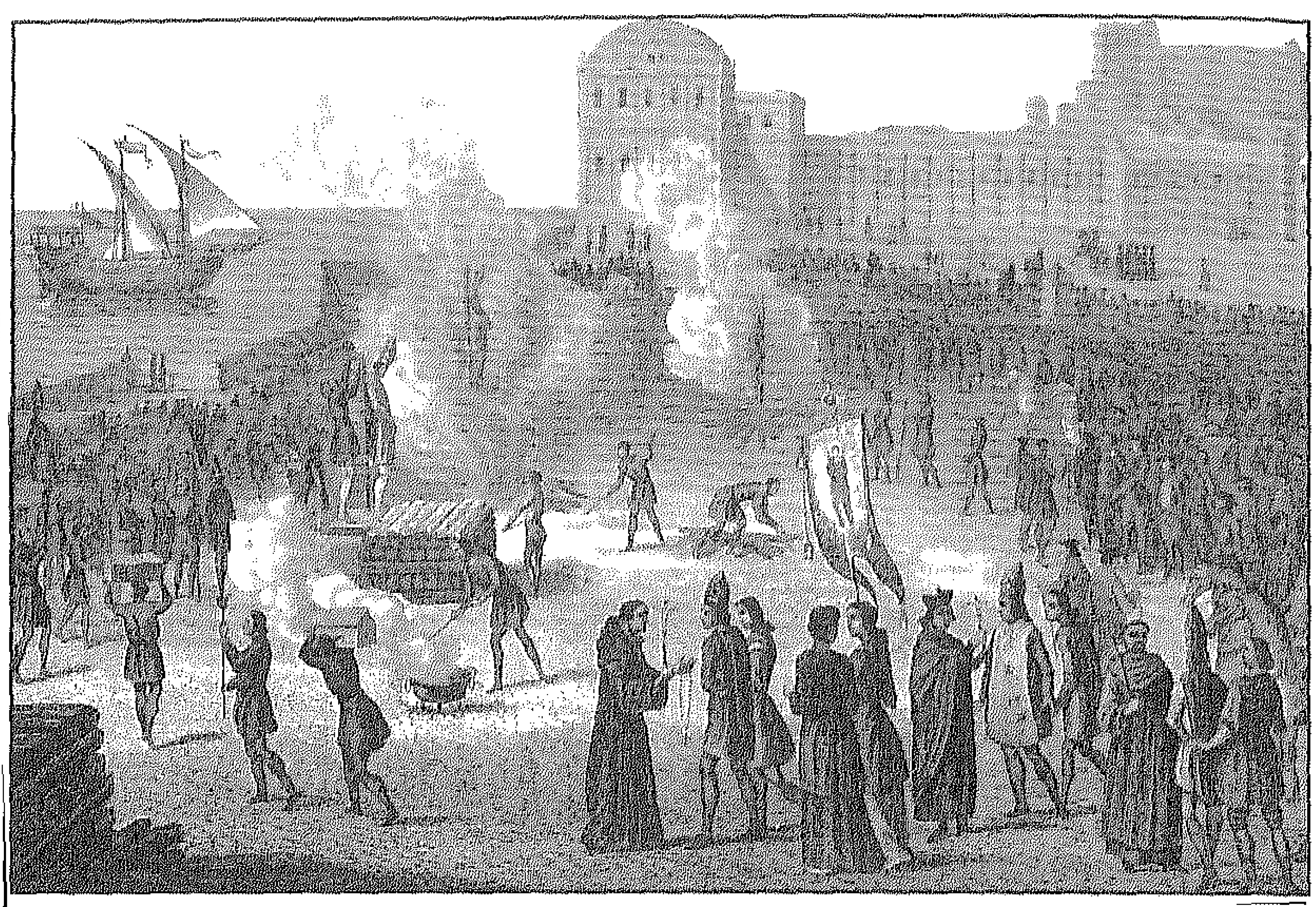
إلغاء محاكم التفتيش فى إسبانيا

وباعتلاء الملك شارلس الثالث العرش الإسبانى (١٧٥٩- ١٧٨٨)، بدا وكأن إسبانيا تبعث إلى الوجود من بين رماد العصور الوسطى ومحاكم التفتيش. فقد كان شارلس الثالث على علاقة طيبة بفرنسا، وفتح الملك ذراعيه لمفاهيم عصر التنوير والحرية التى كانت إرهاصاتها على قدم وساق فى باريس! ولذلك فإن الملك قد عين وزيرا مستنيرا هو آراندا (Aranda) فى عام ١٧٦٦ لإصلاح ما أفسدته قرون العصور الوسطى.

كان الوزير آراندا ينظر إلى أملاك الكنيسة الإسبانية وثرواتها الفاحشة بعين الازدراء؛ ولذلك فإنه فى عام ١٧٦٧ أصدر قرارا مفاجئا بطرد جماعة الجزويت من أراضى إسبانيا، على ألا يحملوا معهم شيئا سوى أمتعتهم الشخصية، ثم قام بترحيلهم إلى الموانى، وبلغ عدد المرحلين من الجزويت ستة آلاف دفعة واحدة.

ولما أن غضبت البابوية من هذا الإجراء ضد الجزويت، كتب إليه الملك الإسبانى بأن هذا الإجراء لا يعدو أن يكون إجراء اقتصاديا لصالح فقراء الإسبان. ورد البابا بقوله: «إن طرد الجزويت إنما هو آخر قطرة فى كأس الأحزان».





محارق الهراطقة - إسبانيا

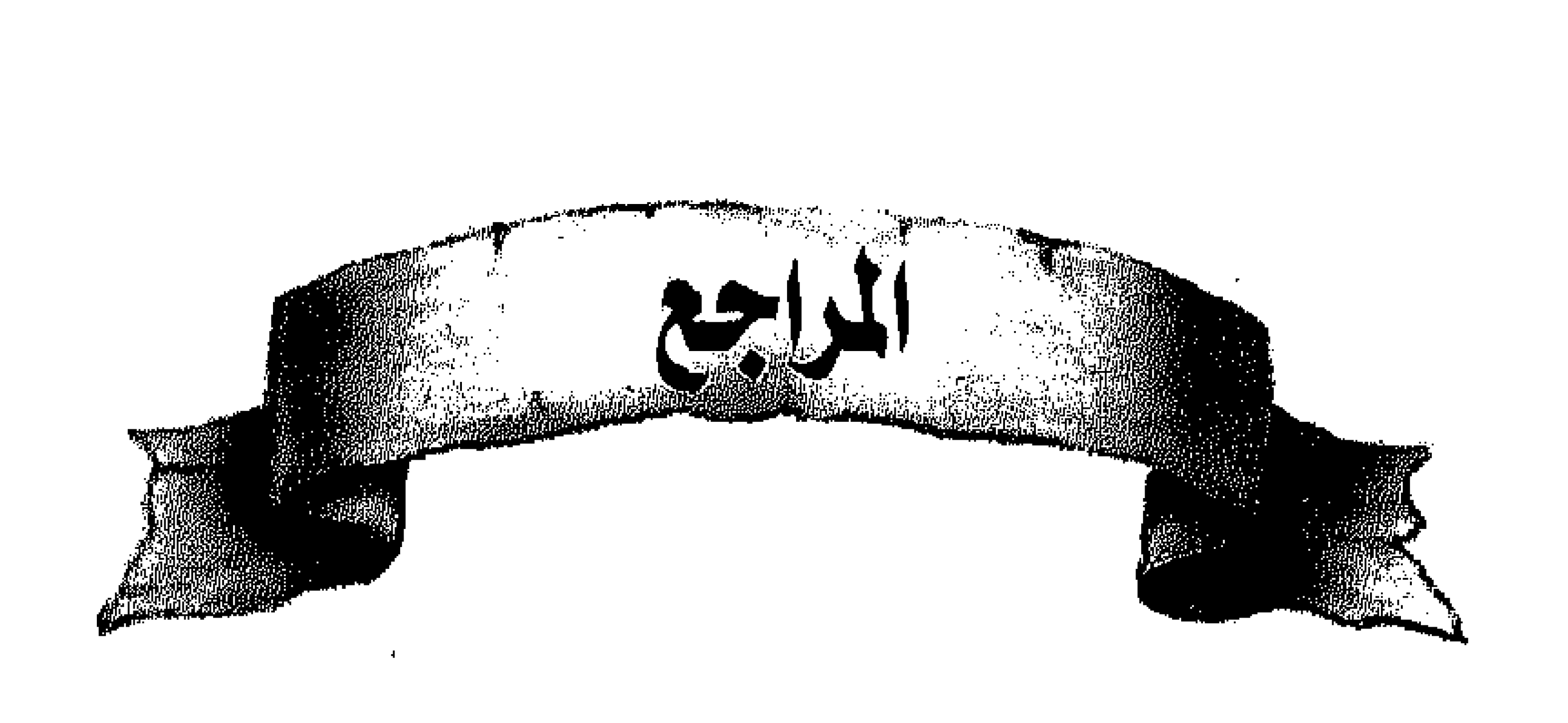
وقد عهد شارلس الثالث إلى وزيره آراندا وإلى تابع آخر اسمه أولاڤيد بإنفاذ برنامج إصلاحى ينجى البلاد من التهلكة، وتم توزيع بعض الأراضى على فقراء الإسبان، وتم استيراد كميات من القمح لبيعها بأسعار زهيدة للجياع. وأصلحت العملة وانتظمت السجلات العقارية، واستقدم الخبراء من القارة الأوربية للأخذ بيد الصناعة، وشقت القنوات وجففت المستنقعات، وانتظمت الخدمة البريدية، وأنشئت قرى نموذجية فى صحراء سيرا مورينا بعد أن كانت أوكارا للمتشردين واللصوص، وانتظم الأمن واستقامت آداب الطريق. وازدهر التعليم ـ على الأسس التى وضعها الجزويت بعد علمنتها وتطويرها ـ لتتواكب وروح العصر الجديد.

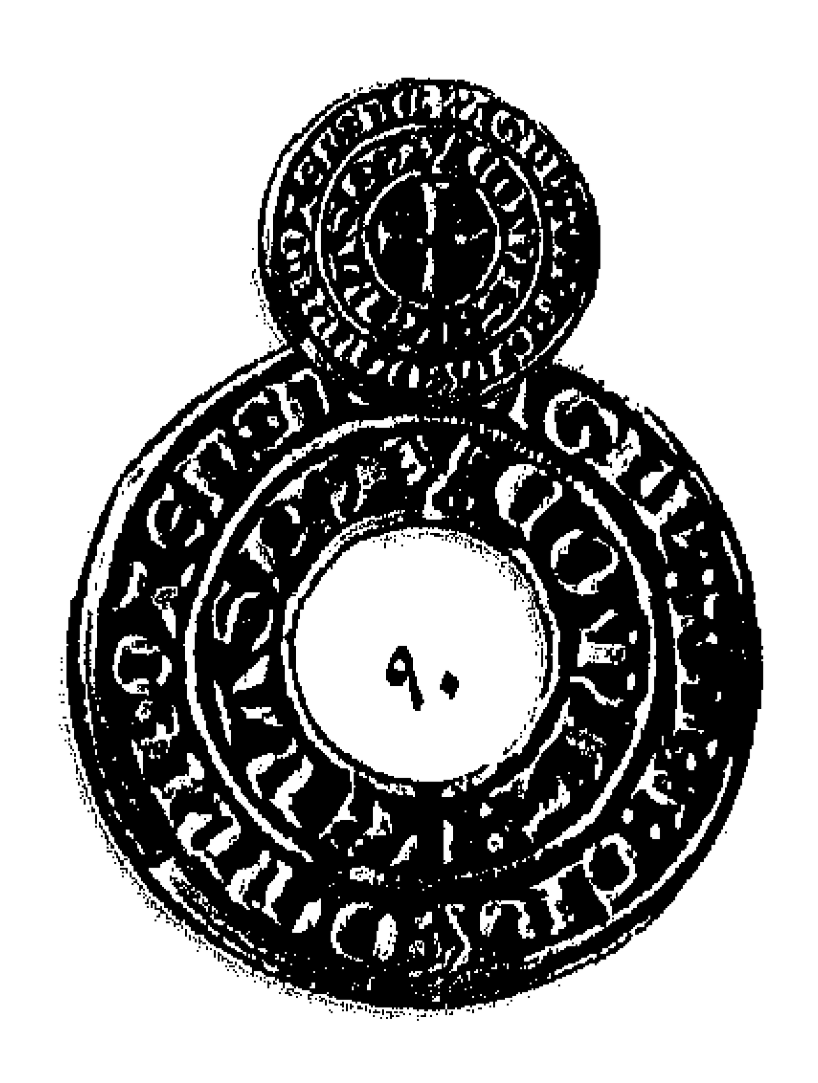
ثم صدرت الأوامر إلى محاكم التفتيش ـ وكانت قد شاخت بفعل الزمن ـ بأن زمانها قد ولى إلى غير رجعة، وبأن الحكم فى كل القضايا غدا من حق المحاكم المدنية فقط (أبريل ١٧٧٤).

ولما أن حاولت محاكم التفتيش أن تستجمع قوتها التى شاخت، لتضرب الوزير أولاڤيد، وجدت أنها عاجزة حتى عن مد تلك اليد، إذ هب الناس جميعا ـ حكاما ومحكومين ـ ينعتون «المكتب المقدس» بأنه شبح الماضى العفن الذى آن له الأوان لكى يدفن إشفاقا على حاله.

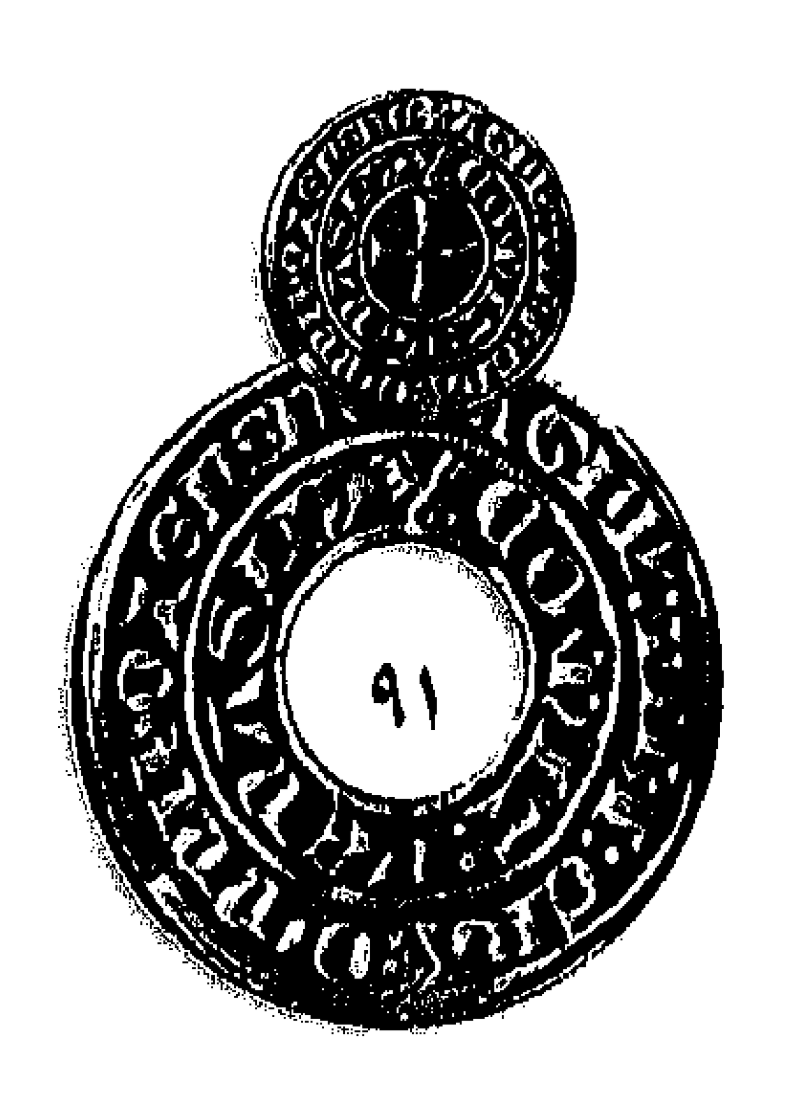
ولقد شاءت الأقدار أن يكون آخر ضحايا محاكم التفتيش ـ وهى تحتضر ـ تلك السيدة الشمطاء العزلاء، التى لم يكن لها أهل أو ولد فى مدينة أشبيلية. وقد أحرقت تلك السيدة العاجزة سنة ١٧٨١، ليشيعها التاريخ الأوربى على أنها آخر أضحية عجفاء لنمر انكسرت أنيابه، فلم يقو على صيد سواها!!!

وأسدل الستار على ظلام رهيب، فبعد ذلك الحادث المخزى بسنوات ثمان اندلعت نيران «الحرية والإخاء والمساواة» فى الثورة الفرنسية الكبرى، التى زلزلت أركان أوربا جميعا. وانبلج نور فجر جديد.

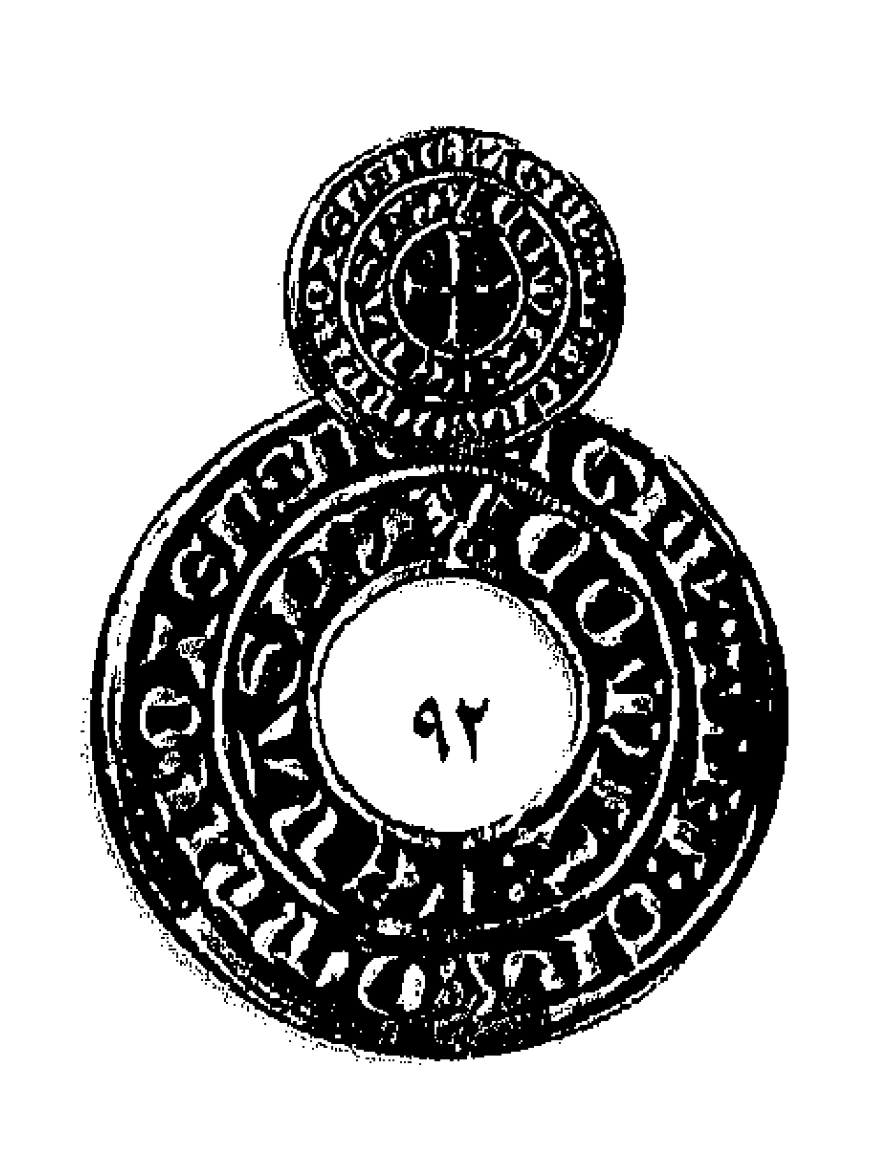




- Atkinson, J., Martin Luther and the Birth of Protestantism . London, 1968.
- Beer, M., Social Struggle in the Middle Ages (trans. by J.H. Stenning).
- Benoit, J., Hisroire des Albigeois et des Vaudois au Barbets, Paris, 1691.
- Mansi, J., Sacrorum Conciliorum nova et amplissima Collectio (31 in fol.) Venise, 1769.
- Guiraud, J.H., Histoire de l' Inquisition au Moyen Age. Paris, 1935.
- Hume, M.A.S., Spain, its Greatness and Decay (1479-1788). Cambridge, 1913.
- Lea, H.C., History of the Inquisition in the Middle Ages, New York, 1888. History of the Inquistion in Spain. 1905 - 1908.


٩١


محتويات الكتاب





This work is a survey of the non-conforming ideas, which challenged the Church of Rome and its claims for supremacy over both spiritual and mundane affairs through the Inquisition, established in 1215 A.D. by Pope Innocent 111.

However, many revolutionists triggered opposition against the Inquisition, in Bulgaria, Italy, France, England, Checkozlovakia, and Germany. The Inquisition suppressed a great number of these rebels after condemning them as heretics, including Bogdmiles in Bulgaria, Arnold of Brescia, Savona Rola, John Huss, and others.

Finally it was Martin Luther who struggled relentlessly against the Catholic Church and its Bills of Indulgence, Corruption, and the Inquisition. He came out victorious from that tormenting struggle and that was the birth of Protestantism in Europe.

Dr. Ishak Ebeid



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

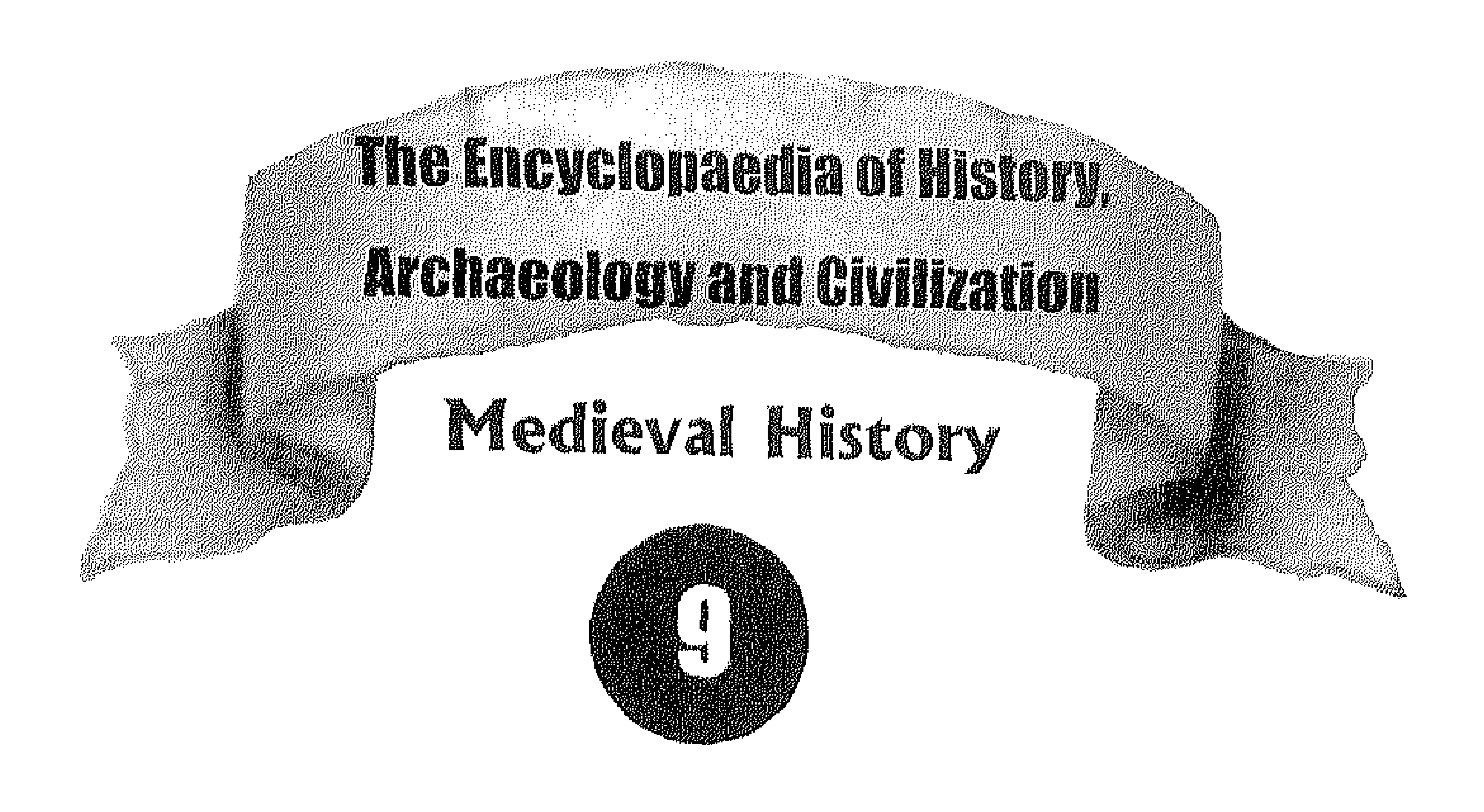
Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 2752984 Fax: 2752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com





The Inquisition

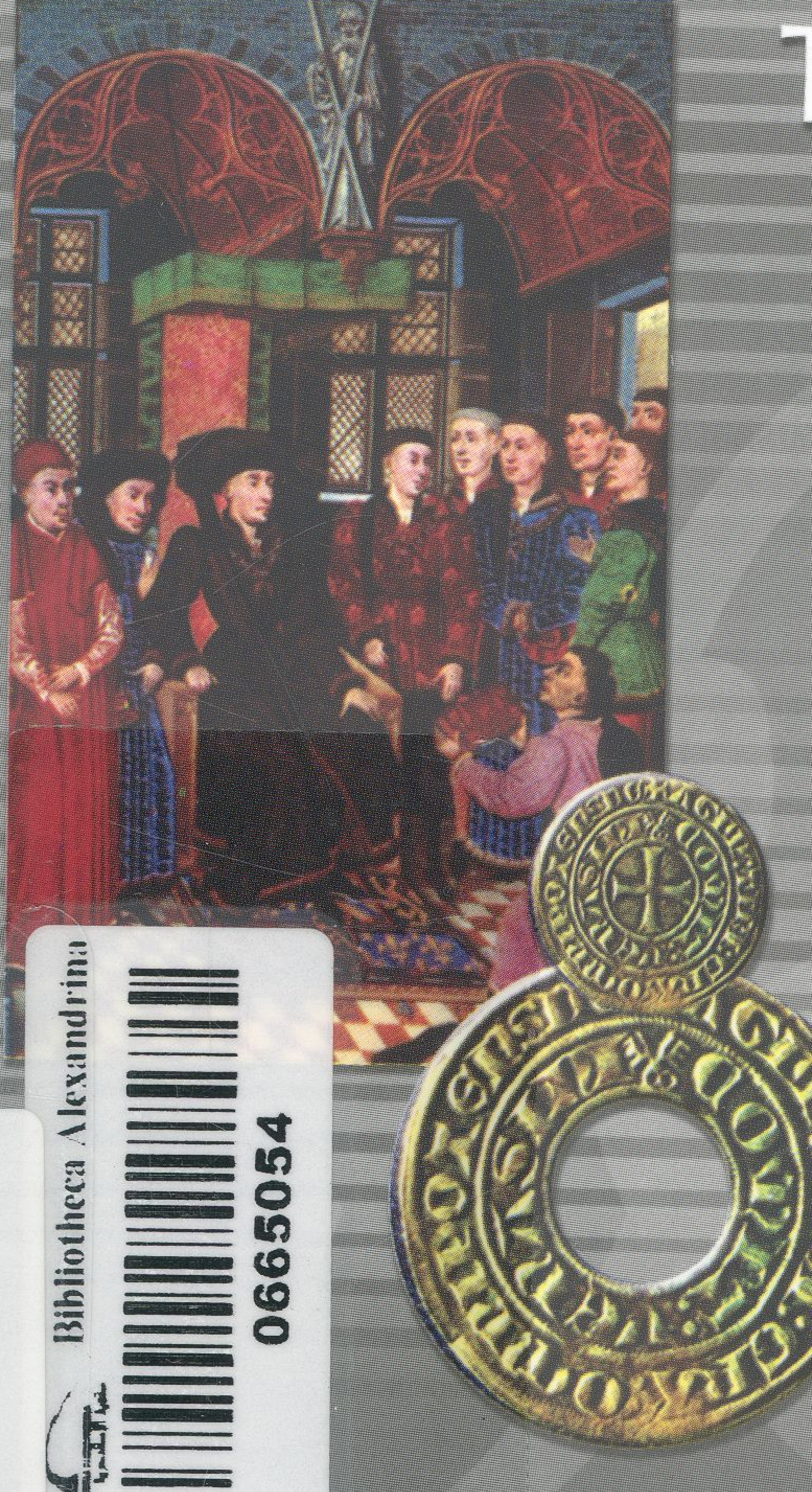
Dr. Ishak Ebeid

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo
tel : 2752794 . Fax : 2752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopedia of History, Archaeology and Civilization



The Inquisition



Dr. Ishak Ebeid

